الدكتور عزيز السيد أحمد

انهيار أسطورة السلام

مصير السلام العربى الإسرائيلي

☆ الكتاب : **انهيار أسطورة السلام.**
مصير السلام العربي الإسرائيلي.

☆ المؤلف : **الدكتور عزت السيد أحمد** .

☆ عدد الصفحات: ٢٩٦ صفحة.
☆ قياس الصفحة: ب ٥ = ١٧ X ٢٤.
☆ تصميم الغلاف بريشة المؤلف.
☆ الطبعة الأولى: **١٩٩٦م.**
☆ الطبعة الأولى: **٢٠٠١م.**
☆ تمت عمليات التنضيد والإخراج في دار الفكر الفلسفي للدراسات والترجمة والنشر بدمشق.

☆ **الحقوق جميعها محفوظة.**
تمنع طباعة هذا الكتاب أو بعضَه بأيِّ وسيلةٍ من وسائل الطِّباعةِ والنَّشر والإعلام من دون موافقةٍ خطيَّة من النَّاشر أو المؤلِّف.

☆ النَّاشر: **دار الفكر الفلسفي.**
دمشق . معضميَّة الشَّام ص.ب : ٣٢
هاتف وناسوخ ٠٠٩٦٣ . ١١ . ٦٢٤٤٢٤٤

الدكتور عزت السيد أحمد

انهيار أسطورة السلام

مصير السلام العربي الإسرائيلي

الطبعة الثانية

دار الفكر الفلسفي
للدراسات والترجمة والنشر
دمشق ـ ٢٠٠١م

THE CRUMBLE OF
Peace Myth

The Fate of Arabian And Israeli's Peace

BY
Ph.D.EZZAT AS-SAYED AHMAD

Published By
DAR AL FEKR AL PHLSAPHY

Damascus. Moaddamet Al Sham B.O.Box 32
Telefax. 00963-11-6244244

Damascus 2001.

الإهداء

مع ابتسامة يائسة ...
وحــوقلة صـــادقة ...

إلى المظلومين في الأرض ريثما ينتصفوا

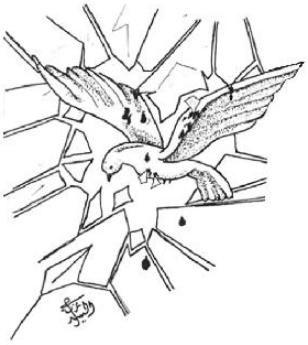

مقدمة الطبعة الثانية

بعد نحوِ أربعين عاماً على الصِّراع العربيِّ الإسرائيليِّ من أجل تحرير الأرض، واسترداد ما هُدِرَ من الكرامة العربيَّة بسبب القضيَّة الفلسطينيَّة، فُرِضَ على العرب التَّسليم بالأمر الواقع والاعتراف بإسرائيل دولةً كأي دولة، والدُّخول معها في مفاوضات سلام شامل؛ عسكريٍّ وسياسيٍّ واقتصادي...

من البداهة بمكان أنَّ المستجدات الَّتي طرأت على السَّاحة العالميَّة هي الَّتي وَضَعَت العرب أمام هذا الأمر الواقع، فانهيار الاتحاد السوفيتي بين عشيَّةٍ وضحاها أدَّى إلى اختلال موازين القوى العالميَّة، وتَرْكِ فراغٍ كبيرٍ من المتعذَّر ملؤه بسرعة أو بسهولة، الأمر الذي أدَّى إلى وضع العالم لسنين قليلة في حالة من اختلال التَّوازن، والتَّرقُّب الغامض لما سيكون عليه حالُ العالم إثر هذا الانهيار المريع للمنظومة الاشتراكيَّة والاتحاد السوفيتي.

في غمرة هذا الخلل، وبسرعةٍ خاطفةٍ أوحي للعالم، والعرب ضمناً، أنَّ الولايات المتحدة سَتُحِل السَّلام في العالم، وتُحِلُّ الأمن والديمقراطية،

والعدالة... وأخطر المشكلات الَّتي تعترض هذا المشروع الأمريكي، وتهدِّد السِّلم والأمن العالميين، هي مشكلة الصِّراع العربيِّ الإسرائيلي، ويجب أن تحل أولاً.

لقد صَدَّقَ العرب هذه الخدعة الكبيرة، وكان من الطَّبيعي أن يصدِّق العرب، والعالم كله، هذه الخدعة، حتَّى الولايات المتحدة ذاتها كَذَبَت هذه الكذبة وهي مؤمنة بصدقها في ذلك الحين... لأَنَّ العالم كله كان يعيش حالة من الدَّهشة والبله في السَّنوات الثَّلاث الأولى لانهيار الاتحاد السوفيتي...

لقد صدَّق العرب هذه الخدعة بشيء من السَّذاجة، وآمنوا بأَنَّهُ من الواجب عليهم فعلاً أن يسلِّموا بأنَّ إسرائيل حقيقة واقعة لا يمكن أن تزول، ونسجوا من صلب مأساتهم أحلام المستقبل القائم على تحقق السَّلام، وراحوا يترقَّبون ساعة إحلال هذا السَّلام... كلُّ ظنِّهم كان أنَّ السَّلام سيحلُّ بين ليلةٍ وضحاها، مثلما انهار الاتحاد السوفيتي بين عشية وضحاها.

في الثَّاني من كانون الثاني عام ١٩٩٢م بدأ مؤتمر السَّلام في مدريد بحضور كبار ممثلي معظم دول العالم، وتابع النَّاس المؤتمر باهتمام بالغٍ، وكلهم ظنًّا أنَّ السَّلام قد تَمَّ، أو سيتمُّ بُعَيْدَ انتهاء المؤتمر. ولكنَّ المفاجأة كانت في خطاب الوفد الإسرائيلي الذي لا يوحي أبداً بوجود أيِّ نية في تحقيق السَّلام. وعلى الرُّغم من ذلك ظلَّت النَّاس تترقَّب نتائج هذا المؤتمر،

ونتائج المفاوضات، ولكنَّ الأيام تمرُّ وتمضي ولا يزداد الوضع إلاَّ سوءاً، ولا يزداد السَّلام إلاَّ بعداً...

نحو عشر سنوات قد انقضت على بدء مفاوضات السَّلام من دون أيِّ جديدٍ يستحقُّ الذِّكر في نتائج هذه المفاوضات، ومن دون تحقيق أيِّ إنجازٍ يستحقُّ الذكر!!! اللهم إلاَّ عدم استخدام لفظ العدو عند الحديث عن إسرائيل!!! والاعتراف بإسرائيل دولةً بعد نحو أربعين سنةً من تكفير من يقول إسرائيل ولا يقول الكيان الصهيوني.

أما الاتِّفاق المزعوم الموهوم الذي وقَّعه الفلسطينيون في أوسلو وما تبعه فهو كسبٌ لإسرائيل لا للعرب، لأنَّ الأراضي الَّتي تخلَّت عنها إسرائيلُ للسُّلطة الفلسطينيَّة هي الأراضي الَّتي كانت ستتخلَّى عنها من دون أيِّ ثمنٍ بسبب الانتفاضة على أقلِّ تقديرٍ كما تخلَّت تماماً عن الجنوب اللبناني من دون أيِّ مفاوضات لأنَّها لم يعد لها طاقة على احتمال بقائها في فوهة بركان متفجِّر ، وإلى جانب ذلك فقد استطاعت إسرائيل بذلك الاتفاق مع الفلسطينيين شرخ الصَّف العربيِّ، من خلال فصل المسارات التَّفاوضيَّة...

إنَّ ما جرى حتَّى الآن يؤكِّد حقيقةً واحدةً على الأقلِّ وهي إصرار العرب على السَّلام بوصفه خياراً وحيداً لا بديل عنه، ورفض إسرائيل السَّلام بعنجهية وتمرُّدٍ وتمادٍ لا نظير له...!! ولكن إذا كان للسلوك الإسرائيليِّ ما يسوِّغه بالنسبة لهم، من خلال عقيدتهم التوراتية والتلمودية، بغض النَّظر عن تناقضها مع ذاتها، ومع العقل، والمنطق... فما الذي يسوِّغُ للعرب سلوكاتهم هذه الَّتي ترفضها الأخلاق، ويرفضها العقل والمنطق؟؟

إنَّ ما حَدَثَ ويحدث أعاد للعرب وعيهم، وانتشلهم من سكرتهم الَّتي اعترفوا فيها بإسرائيل، فانتبهوا إلى أنَّ إسرائيل لا تريد السَّلام، ولا يمكن أن تريد السَّلام، لأنَّ أساس قيامها، ومحوره هو اللاسلام. لأنَّ السَّلام يميت إسرائيل وينهيها. ولذلك تجدها تختلق من الأسباب والممارسات كلَّ ما يؤكد أنَّها لا تريد السَّلام.

الحقُّ أنَّنا عندما أصدرنا الطَّبعة الأولى من هذا الكتاب تحت العنوان ذاته: انهيار أسطورة السلام، لم نبن حكمنا في انهيار السَّلام على الرَّغبة الإسرائيلية في عدم تحقيق السَّلام، وإنَّما كان موقفاً من عملية السَّلام بحدِّ ذاتها أولاً، ومن إمكانيَّة قيام السَّلام بحدِّ ذاته ثانياً. وقد جاءت الحقائق لتؤكِّد ما ذهبنا إليه منذ ما قبل مؤتمر مدريد، في كتابنا: كيف ستواجه أمريكا العالم؟[1] عندما كشفنا عن حقيقة موقف الولايَّات المتَّحدة من إسرائيل والعرب وما ستفعله بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

إنَّ أهميَّة الموضوع وخطورته الشَّديدة هي الَّتي أوجبت عليَّ إعادة طباعة هذا الكتاب، مع الزِّيادات الَّتي نافت عن الضِّعف، لتضمين المستجدَّات الَّتي طرأت على الموضوع، وهي كلها مما يؤكِّد الحقيقة الَّتي نؤمن بها، وهي أنَّ السَّلام سلام الأقوياء، الأقوياء وحدهم وحسب.

دمشق-حزيران-٢٠٠١م

(١) . ستصدر الطبعة الثانية من هذا الكتاب في غضون عام ٢٠٠٣م.

مقدمة الطبعة الأولى

من باب الصِّدق والأَمانة يجدر التَّنويه بأَمرين قبل مباشرة عرض فصول الكتاب أَوَّلهما أَنَّ هذه الفصول مقالاتٌ خُصَّت للنشر في صحيفة الحياة اللندنيَّة، وقد نشرت معظمها فيها. ولكنها في الأَصل تستند إلى كونها ستشكِّلُ كتاباً متكاملاً ذا مقصدٍ وغاية. إلا أَنَّ الصَّحيفة قد تصرَّفت بهذه المقالات عند نشرها بحذف بعض الفِقَرِ والأَفكار؛ صحيحٌ أَنَّ ذلك لم يُسء في معظم الأَحيان، ولم يُفقد الكلام تماسكه، ولكنَّه كان، أَحياناً، يفقده تماميَّة المراد. نقول هذا الكلام توضيحاً لمن قرأَ ما نشر منه، أَو بعضه، في الصَّحيفة وإن لم يكن من لَبْسٍ يستوجب التَّوقُّف عنده.

أَمَّا ثاني الأَمرين فهو رجاءٌ نضعه بين يدي القارئ قبل القراءة، آملين فيه عدم التَّسرُّع في الأَحكام أَوَّلاً، ثمَّ ربط كل فصلٍ بما سبقه حتى يأتي الحكم أَخيراً حكماً على الكتاب بمجمله.

نعم كلٌّ فصلٍ، كما سيبدو، مستقلٌ عن الآخر بمعنًى من المعاني ولكنَّها كلُّها متواشجة متواصلة، يبدأ كلٌّ منها حيث ينتهي سابقه، لتكمِّل بعضها بعضاً في المحصلة، وهذا بعض ما حدا بنا إلى التَّمنِّي على القارئ أَلا يتسرَّع في أَحكامه وأَلا تكون أَحكامه منصبَّةً على الجزئيات أَو على كلِّ فصل على حدة.

وأَرجو أَيضاً أَلا يفهم من ذلك أَنَّه لا يجوز الحكم على الفصول مستقلَّةً عن بعضها بعضاً، أَو أَنَّنا لا نقبل ذلك فالعكس هو الصَّحيح تماماً؛ وإنَّما قصدنا من ذلك أَوَّلهما أَنَّ هذه الفصول قد تبدو تعليقات سياسيَّة، أَو متابعات لأَحداث السَّاعة، أَو ما يشبه ذلك، ولكنَّها ليست كذلك؛ إنَّها، معظمها، طروحات ذات صبغة فكريَّة أَو فلسفيَّة بالدَّرجة الأُولى ولهذا يتمتَّع كلٌّ منها باستقلاليَّته الخاصَّة التي ينبغي أَن يُفهم في إطارها وحدها أَوَّلاً، وليس في هذا أَيُّ مشكلة أَبداً، ويمكن أَن يُقرأ كلُّ فصلٍ مستقلاً عمَّا سواه دون أَن يؤثِّر ذلك في تكامل الفصول من حيث المؤدَّى الكلِّي. ولكن قد يحدث أَن يقع البعض في مشكلةٍ غير موجودة ولا مقصودة وهي الظَّنُّ بأَنَّ ثمَّة تناقضاً في الأَفكار بين بعض الفصول، وهذا ما ليس بصحيحٍ البتَّة، ولا يحتاج الأَمر إلى شرحٍ أَو تفصيل، كلُّ ما يحتاجه هو إعطاء كلِّ فصلٍ حقَّه من الرَّبط بالفكر والواقع من جهة وبالفصول الأُخرى من جهةٍ ثانية.

صحيحٌ أَنَّ السَّلام العربي الإسرائيلي هو المحور الذي يدور حوله كتابنا إلا أَنَّ المرام أَبعد من ذلك بكثير. وكيما يكون الموضوع متكاملاً كان لا بدَّ من إعطائه حقَّه، لا بالسَّرد والتَّطويل وإنَّما بتبيان الأَبعاد على مختلف أَوجهها وتباين مسالكها، وعلى الرُّغم من إمكان الإطناب بالشَّواهد والأَمثلة والشُّروح إلا أَنَّنا ملنا إلى التَّكثيف والإيجاز قدر المستطاع؛ فمثالٌ ينوب عن أَمثلةٍ كثيرة، وفكرةٌ واضحةٌ موجزة تُغني عن عشرات الصَّفحات.

ولتحقيق ذلك وجدنا أَنَّ من المناسب . وليس من الضَّرورة أَن يكون ما رأيناه هو الأَنسب . تقسيم الحديث في الموضوع إلى سبعة فصولٍ متكاملة متداخلة؛ فتناولنا في البداية مبدأ التَّفاوض وحقيقته بغضِّ النَّظر عن أَيِّ اعتبار لأَيِّ حق. وأَنهينا الكتاب بفصلٍ يشبهه من حيث البعد النَّظري، ويتوجه مع الكتاب في تناول مبدأ السَّلام وحقيقته. وفي هذين الفصلين تحديداً قد يجد القارئ نفسه أَما أَفكارٍ تنطوي على بعض الغرابة والبعد عن المألوف، ولكن القراءة الموضوعيَّة لهما كافيةٌ لتفهُّمهما ولتقبُّلهما. وعلى العموم ليس فيهما شيئاً نابياً ولا ممجوجاً: فيهما الحقيقة؛ الحقيقة التي نخاف أَن نواجهها، نخاف أَن نواجهها في أَيِّ ميدان لا في السِّياسة وحدها، ولذلك قالوا: الحقيقة مُرَّة.

وفيما بين هذين الفصلين تناوبت أَبعادُ مشكلة السَّلام العربي الإسرائيلي في الظُّهور تباعاً بحيث يكمِّلُ اللاحقُ السَّابقَ؛ كانت

البداية في استثنائيَّة المفاوضات العربيَّة الإسرائيليَّة عن غيرها من المفاوضات عَبْرَ التَّاريخ، وعَقَبَ ذلك الحديث عن أَغراض إسرائيل من السَّلام؛ هل هو مجرَّد إنهاء حالة الحرب أَم التَّطبيع أَم ماذا؟ وأَلحقنا هذا بتناول مسأَلة التَّطبيع؛ أَهو ضرورةٌ أَم خيار؟ ثمَّ ما حقيقة المقاصد الإسرائيليَّة من المطالبة بالتَّطبيع؛ أَهي لمحض الإلفة والتَّعامل بين العرب والإسرائيليين أَم أَنَّ ثمَّة مقاصد أُخرى وراء ذلك؟ وتلى هذا الكلامَ الكلامُ في المفاوضين العرب والتَّساؤل عمَّا دفعهم إلى ولوج حلبة المفاوضات وتبيان بعض ما اعتقدناه أَسباباً في تهالك البعض على التَّسليم. وخصصنا الفصل السَّادس للحديث عن مصير السَّلام العربي الإسرئيلي وآفاقه؛ القريبة والبعيدة؛ هل سيدوم السَّلام؟ إلى متى سيقوم؟ بل كيف سيقوم؟

تلكم هي محاور الكتاب وعناوينه الرَّئيسة، فنرجو أَن نكون قد وفِّقنا في إيصال الفكرة من غيرما إجهاد ولا إتعاب. وعلى الرُّغم من أَن هذا الكتاب يمثِّل حصيلة آرائنا ومواقفنا في هذا الموضوع وهذا الميدان فإنَّنا نأمل أَن نكون لَبِنَةً من لبنات الشَّارع العربي؛ من نسغها ونسجها، مؤتلفةٍ معها غير نابيةٍ عنها.

دمشق- ١٩٩٥م

الفَصْل الأوَّل

هذا هو التفاوض

بإمكانك أَن تطالب بما تستطيع تحصيله بالقوَّة؛ تقبل وترفض بقدر قوَّتك على القبول والرَّفض، تتكلَّم بما تتيحه لك قوَّتك، وحتَّى دورك في الكلام يكون بحسب ترتيب قوَّتك بين قوى المتكلِّمين، فإن كنت على الهامش فإنَّ دورك على الهامش، وحقوقك على الهامش، ومطالبك على الهامش....؟

ماذا يمتلك العرب من عناصر قوةٍ يفاوضون بها؟ ... الحق معهم نعم، والأَرض لهم نعم، فهل هذه هي القوة التي يفاوضون بها؟ وهل تكفي الشَّرعيَّة الدُّوليَّة مصدراً للقوة؟ لقد ظنَّنا أَنَّ العرب قد استفاقوا من هول الصَّدمة ولكن الصَّدمة كانت لنا عندما فوجئنا بأَنَّهم لم يستفيقوا رغم كلِّ الأَهوال.

لعلنا لا نبتعد كثيراً إذا ما جعلنا نهاية حرب الخليج بداية؛ لقد انتهت هذه الحرب إلى فتح باب التَّفاوض؛ هو التَّفاوض الذي يحدث بين المتحاربين غالباً. شَعَرَ العراقُ بالعجز عن المواجهة فوافق على التَّفاوض غير مرَّة ولكنَّ قوَّات التَّحالف لم تقبل، يجب على العراق أَن يذعن للشُّروط التي ستفرضها قوَّات التَّحالف مسبَّقاً مهما كانت ومن دون أَيَّ شرط، واضُّطرَّ حينها **طارق عزيز** «وزير الخارجيَّة» إلى الإعلان على الملأ أَنَّه قد وافق على ذلك، وعقَّب بشبه اجتهاد:

. ولكن يجب وقف القصف.

فسأله أَحد الصَّحفيين المتحذلقين فوراً:

. هل تعدُّ ذلك شرطاً ؟

فازدرد **طارق عزيز** ريقة وقال مرتبكاً:

. لا... لا... ليس شرطاً .

وهذا يعني أَنَّه أَقرَّ بإذعان العراق لما سيفرض عليه من شروط من دون أيِّ نقاشٍ، أو جدال... حتَّى ولو ظلَّ القصف مستمرًّا، بل من دون أن يجوز له طلب وقف هذا القصف.

لا حاجة بنا إلى التَّلويح بأَنَّنا انطلقنا من هذه النِّهاية لأَنَّها كانت أَحد الأَسباب الرَّئيسة والمباشرة لبدء المفاوضات العربيَّة الإسرائيليَّة، ولا حاجة بنا ، هنا على الأقل، إلى تأكيد أنَّ هذا المثال ليس واحداً في التاريخ، وليس فريداً، وهو يذكرنا بأمثلة أُخْرَى كثيرة منها على سبيل المثال أنَّ **نقفور** «لما استوثقت له الروم كتب إلى **الرشيد**:

من **نقفور** ملك الروم إلى **هارون الرشيد** ملك العرب، أما بعد، فإنَّ الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُّخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنتَ حقيقاً بحمل أضعافها إليها، لكنَّ ذلك ضعف النِّساء، وحمقهنَّ، فإذا قرأت كتاب هذا فاردد ما حصل لك لم من أموالها، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا.

فلما قرأ **الرَّشيد** الكتاب استفزَّه الغضب، حتَّى لم يقدر أحد على النظر إليه، وتفرق جلساؤه، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون الرَّشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الرُّوم؛ قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه»[٢].

(٢) . ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**. دار صادر. بيروت. ١٩٧٩م. ج٦. ص١٨٥. وفي تتمة الخبر أنَّ الرشيد سار إليه، وفتح بلاداً، وأدبه، وألزمه بخراج يحمله كل سنة. لكن عندما عاد الرشيد وصار بالرقة، وكان البرد شديداً، وأمن نقفور من عودة الرشيد نقض العهد، ووصل الخبر فوراً إلى الرشيد،

ومثل ذلك أيضاً، من حيث المبدأ، ما يؤرخه اليابانيون بداية لعلاقاتهم مع الولايات المتحدة الأمريكية، إذ «دخل الكوماندور **ماثيو بيري**؛ ضابط البحرية الأمريكية بأربع سفن حربية إلى ميناء ييدو الياباني في تموز عام١٨٥٣م، واستقبل بفتور شديد... ولكن الكوماندور الأمريكي المتغطرس أعلن تصميمه على أن يسلِّم إلى الإمبراطور رسالة من الرئيس الأمريكي **ميلارد جيلور**، يطلب فيها إقامة علاقات سياسية مع الولايات المتحدة، وأعلن أنَّه إذا لم يحضر الإمبراطور على ظهر سفينتين مسؤول رفيع الشأن لتسلمها وقبولها رسميًّا، فإنَّه سينزل إلى البر بقوة عسكرية كافية ليسلمها بنفسه...

وبعد ستة أيام متوترة قبل اليابانيون شرط **بيري**، وبعد ثمانية أشهر وقعوا معه (معاهدة كاناجاوا)، التي فتحت أكبر ميناءين يابانيين أمام السفن الأمريكيَّة؛ الحربية والتجارية، فيما عدَّ اليابانيون ذلك مهانة لا تنسى»[٣].

هذه بعض نماذج التفاوض والحوار بين قوي وضعيف، ولا نعدو الحقَّ إذا قلنا إنَّ الآلية التي تحكم تعامل الأفراد مع الأمم الأُخْرَى، أو الأفراد من الأمم الأُخْرَى محكومة بمبدأ التفاوض هذا، بل إنَّها هي ذاتها ضرب من التفاوض، الذي تختلف حدته، وقسوته، وصفاقته، ولينه... باختلاف عقلية الأمة التي ينتمي إليها هذا الفرد، والأمثلة والشواهد على ذلك متعذرة الإحصاء... ولأنَّ كانت الشواهد المعاصرة حاضرة في ساحات الشعور، نذكر فَقَطْ قصَّة

فعاد إليه في أشد زمان، وأعظم كلفة، حتَّى بلغ بلادهم، فأقام بها حتَّى شفى واشتفى وبلغ ما أراد. ومن ذلك فتح هرقلة.

(٣) . انظر الحادثة مع تداعياتها في كتابنا: **كيف ستواجه أمريكا العالم** . مكتب دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢م . ص٣٥ . ٤٠ .

أسامة بن منقذ عندما أسرَه الصَّليبيون وعُرِضَ عليه أن يتجوَّل في المدن الإيطاليَّة ليطلع عليها ويرى ما فيها، فقال: **وماذا الذي سأراه عندكم وأنتم قوم متخلِّفون، بعيدون عن التَّحضُّر؟!**

ولكنَّ السؤال الذي يفرض ذاته بقوة هنا هو:

هل يجوز قياس هذه المفاوضات على تلك؟ أي هل يجوز قياس مفاوضات السلام العربيَّة الإسرائيلية على مفاوضات إذعان العرق (لقرارات الشَّرعيَّة الدُّوليَّة)، أو مفاوضات **الرشيد ونقفور**، أو مفاوضات اليابان وأمريكا؟

الحقيقة أَنَّ **مبدأ التَّفاوض واحدٌ عبر التَّاريخ مهما كانت طبيعة طرفي أَو أَطراف التَّفاوض، ويقوم أَوَّل ما يقوم على عنصر القوَّة؛ تطالب بما تستطيع تحصيله بالقوَّة، تقبل وترفض بقدر قوَّتك على القبول والرَّفض، تتكلَّم بما تتيحه لك قوَّتك، ويطول كلامك ويقصر بقدر قوَّتك، وحتَّى دورك في الكلام يكون بحسب ترتيب قوَّتك بين قوى المتكلِّمين.** فإن كنت على الهامش فإنَّ دورك على الهامش، وحقوقك على الهامش، ومطالبك على الهامش، بل ليس عليك إلاَّ أَن تهزَّ رأسك للمتكلِّمين وتصفِّق لهم حتَّى لو صفعوك بكلامهم وقراراتهم.

إن كنَّا نبالغ ـ كما يبدو ـ في التَّعبير والتَّصوير فإنَّنا لا نعدو جوهر الحق؛ هذا هو الواقع وهذه هي الحقيقة، ومن لم يقرأ التَّاريخ فليقرأه، ومن قرأه ولم يستجلِ ذلك فليَعُد قراءة التَّاريخ ثانيةً: بدءاً من الممالك القديمة إلى الحضارات المتوسِّطة فالحديثة والمعاصرة، والحربان العالميَّتان ليستا بعيدتين عن الأَذهان، ونهايتاهما لا تختلفان أبداً ـ من حيث المبدأ ـ عن نهاية حرب الخليج أَبداً؛ **لا يحقُّ**

للمهزوم أَن يطالب، ولا حتَّى أن يفاوض، ولا يجوز له أَن يطالب بذلك، وعندما يفاوضه المنتصرون فإنَّهم في حقيقة الأمر إنَّما يملون عليه التعليمات والشُّروط والمطالب، ويفرضون عليه ما يريدون، ولا ينتظرون منه الرَّدَّ أَو الموافقة. لأنَّه يجب أن يكون الرَّدُّ هو الموافقة، والموافقة فَقَطْ، لأنَّ الموافقة هي الخيار الوحيد الواجب اختياره.

وحتَّى الأَقوياء عندما يتفاوضون فإنَّما يتفاوضون استناداً إلى هذا المبدأ؛ مبدأ أنَّ عنصر القوة هو صاحب فيصل الحسم في ساحة المعركة. والصِّراعات الدُّوليَّة المعاصرة في مختلف الميادين؛ السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة ... لا تنحرف عن هذا المبدأ قيد شعرة:

الأَقوى هو الذي يبدأ الكلام وهو الذي ينهيه، وهو الذي يأخذ الأَفضل، ويحصل على الأَكثر، ويحصد الأَثمر. ولذلك ليس ثمَّة فرقٌ أَبداً في أَن ننطلق من نهاية حرب الخليج أَم من أَيِّ نقطة تفاوض أُخرى، إذ لا تختلف المفاوضات التي عقبت الحرب العالميَّة الأُولى عن مفاوضات نهاية الحرب العالميَّة الثَّانية، ولا عن المفاوضات المتعدِّدة والمختلفة بين الأَمريكان والسُّوفيت إبَّان مرحلة سياسة الاستقطاب الثُّنائي، ولا عن المفاوضات الأَمريكيَّة الأَوربيَّة بمختلف أَوجهها، ولا عن الحوار العربي الأَوربي بشِعَبه المتباينة؛ السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة والثَّقافيَّة والاجتماعيَّة والعلميَّة ... ولا عن مفاوضات تحرير التِّجارة العالميَّة، ولا عن المفاوضات العربيَّة الإسرائيليَّة التي هي مآل حديثنا الآن.

هذه كلُّها مفاوضات، وكذلك غيرها مما يضيق المجال عن سردها أَو عرض أَهمِّها، وهي كما تبدو ذات أَوجه مختلفة وجوانب متباينة وميادين متعدِّدة ... **ولكنَّها في حقيقة الأَمر أَوجه موشور أَيَّما وجه اخترت التَّحديق**

فيه انعكست إلى حدقيك بقيَّة الجوانب، ولذلك ليس ثمَّة مشكلة أَبداً في أي اختيار كان للانطلاق منه حتَّى ولو كان تفاوض صلحٍ بين شخصين اختلفا في وجهات النَّظر أَو اعتدى أَحدهما على الآخر ...

نعني بذلك، بلفظٍ آخر، أنَّ الأمثلة الَّتي بدأنا بها هذا الفصل هي القالب الذي تسير كلُّ أنواع المفاوضات على أساسه وقياساته، ولذلك لا حاجة بنا إلى مزيدٍ من الأمثلة لأنَّ الأمثلة حقًّا أكثر من أن تحصى، بل إنَّها عصيَّةٌ على العدِّ أو الإحصاء؛ يكفي أن نقف عند أيِّ حادثةٍ؛ من مستوى المناقشة الخفيفة، إلى أعقد المفاوضات بين الدُّول، ونفكِّر فيها قليلاً، لنجد أنَّ هذا المبدأ ينطبق عليها.

بعد هذا الكلام لا نستطيع البتَّة القول بأَنَّ المفاوضات العربيَّة الإسرائيليَّة حالة خاصَّة أَو استثنائيَّة متوضِّعة خارج هذا الإطار، لأَنَّها تقوم على المبدأ ذاته من دون أدنى شك، ولن نقول إنَّ هذا المبدأ ينطبق على هذه المفاوضات أَكثر من غيرها لأنَّ ذلك مبالغة لا مسوِّغ لها؛ إنَّها شأنها شأن المفاوضات كلِّها؛ طرفان متحاربان، متنافسان، متصارعان ... يريدان وضع نهاية للمواجهة، سيَّان أكان هذا التَّوجُّه بإرادتهما أَم بضغوط خارجيَّة، وهنا تخطر في بالنا جملة من التَّساؤلات المهمَّة والكثيرة:

- **من هو الأَقوى؟**
- **ما طبيعة موازيين القوى؟**
- **إلى أَيِّ مدى ستكون نهاية حالة الحرب؟**
- **وقبل ذلك: ما الخصوصيَّات التي تفترق بها حالة التَّفاوض هذه عن غيرها؟**

- **ومن ثمَّ ما الذي ترجوه إسرائيل من المفاوضات وإلام يرنو العرب منها؟**
- **وقد تساءل كثيرون عن مستقبل السَّلام والعلاقة بين السَّلام والتَّطبيع.**

أَسئلة كثيرة، إن كانت الإجابة عنها غير يسيرة فهي غير عسيرة. وأَيَّاً كان الأَمر فإنَّها تحتاج إلى صفحات طويلة، وربَّما طويلة جدَّاً.

لقد أَدركت إسرائيل هذا المبدأ حقَّ الإدراك وانطلقت من خلاله في مفاوضاتها وسلوكاتها، ولا أَستطيع الجزم فيما إذا أَدرك العرب ذلك أَم لم يدركوه، وواقع الأَمر أَنَّهم تشرَّبوه جرعةً سهلة يسَّرت على بعضهم سرعة التَّوقيع ... نعم، لقد اقتنع الفلسطينيون والأُردنيون بأَنهم عاجزون عن فعل شيء في ميدان المعركة فاعتقدوا أَنَّ استعادة أَيَّ شبر من الأَراضي المحتلة بالمفاوضات إنَّما هو غنيمة كبرى، وربَّما لم يصدِّق **ياسر عرفات** أَنَّه استعاد غزَّة وأَريحا حتَّى بادر **رابين** بالمصافحة «ولربَّما همَّ بالتَّقبيل». وكذلك الملك **حسين** الذي لم يرد أن يُصدمَ بعودة أَراضيه فجأَة فقرَّر استمرار بقائها مع إسرائيل بتأجيرها لها .....

الحقُّ أَنَّهم معذورون في ذلك، فإسرائيل ترسانة أَسلحة، وقلعة؛ أَمريكيَّة، إنجليزيَّة، فرنسيَّة، أَلمانيَّة ... كلُّ من عدا العرب . **مجازاً** . يقفون سوراً منيعاً لتحصينها؛ تَخترقُ ولا تُخترق، حقُّ النَّقض معها دائماً، الأَسلحة القويَّة لها دائماً، مفاوضات السَّلام جاريةٌ وطائرتها تقصف جنوب لبنان وشماله؛ تقتل، تعتقل، تقيم المجازر للفلسطينيين، تبعدهم ... فماذا يفعل العرب أَمام هذا الجبروت؟!

لقد وقع العرب في المصيدة فعلاً، واقتنعوا أنَّهم أمام خيارين لا ثالث لهما؛ إمَّا التَّسليم أَو الاستسلام، فالعالم كلُّه مع إسرائيل، والقوة كلها معها، وراحوا يزرعون في نفوس الشَّعب العربي أنَّنا غير قادرين على الدِّفاعِ عن أنفسنا، وغير قادرين على ردع العدوان الإسرائيلي، وغير ذلك مما يوحي بأنَّ العرب محض كائنٍ هلاميٍّ، تجرحه نسمة الهواء، بل يوحي بأنَّ وجود العرب وعدمه سواء.

هذه هي الفلسفة، بل القناعات التي حركت حكام العرب إبان النكبة، ومعظم من جاء بعدهم، فالملك **الحسن الثاني** أقام علاقاته السرية مع إسرائيل على هذا الأساس، واقتنع **السادات** بأن مفاتيح العالم كلها بيد أمريكا، وأمريكا هي إسرائيل، ولذلك لا طاقة له على المواجهة، وأعلن ذلك على الملأ، وكذلك شأن الملك **حسين بن طلال** في تعاونه الوثيق من خلال علاقته السِّريَّة، الَّتي فضحت معظمها، مع إسرائيل.

وقد استمرَّت هذه الرُّؤية بعد مفاوضات السَّلام، على الرُّغم من أنَّ الأدلَّة التي تؤكد عدم صدق إسرائيل في مشروع السَّلام أَدلَّة تفقأ أَعين الجاحدين، **فأَيُّ عقلٍ متوافقٍ مع ذاته يستطيع الإقرار بأَنَّ إسرائيل تريد السَّلام وهي طيلة فترة المباحثات لم تنقطع عنها الأَسلحة المتطوِّرة، ويتوَّج ذلك باستثنائها من معاهدة حظر انتشار الأَسلحة النَّوويَّة، إلى جانب اعتداءاتها الدَّائمة على الجنوب اللبناني طوال فترة المفاوضات، ومجازرها الوحشية بحق الفلسطينيين لم تتوقف أبداً منذ ما قبل مفاوضات السلام إلى الآن، وتزعم على الرغم من كل ذلك أنَّها هي التي تريد السلام، والعرب هم الذين يقفون ضدَّ السلام، وأنها هي الوديعة، والعرب هم الإرهابيون!!!**

فما الذي يمتلكه العرب من عناصر قوَّة يفاوضون بها؟

الحقُّ معهم نعم، الأَرض لهم نعم، فهل هذه هي القوَّة التي يفاوضون بها؟

لقد دخلوا المفاوضات على أَساس مبادئ الشَّرعيَّة الدُّوليَّة وتنفيذ قرارات الأُمم المتحدة فَقَطْ من دون أَيِّ سندٍ من القوَّة التي تفرض إرادتها، لقد اعتقدوا أَنَّ الأُمم المتحدة وراعيي المفاوضات[٤] سيعيدون لهم حقوقهم كاملةً مع «بوسة يد» فتفاءلوا كثيراً وأَشرقت ابتساماتهم، ثمَّ لم يلبثوا أَن بدأوا يتذمَّرون ويشكون ويتأَفَّفون ويطالبون راعيي المفاوضات بالتَّدخُّل لإلزام إسرائيل بالقبول بقرارات الشَّرعيَّة الدُّوليَّة ولكن «أُذنٌ من طين وأُخرى من عجين»؛ أَنتم من يفاوض وأَنتم من يقرِّر، وهنا ربَّما استفاق العرب من الصَّدمة، **لقد أُلقي بهم في ميدان المعركة؛ معركة المفاوضات، وعليهم أَن يفاوضوا بما يمتلكون من القوَّة،** ولكن:

- أَين هي قوَّة العرب؟
- أَهي في مصر المنسحبة من الميدان منذ كامب ديفيد؟
- أَم هي في منظمة التَّحرير الفلسطينيَّة المنقسمة إلى أَحلاف متحاربة يكاد يساوي عددها عدد أَعضائها والموزَّعة على الوطن العربي بحسب أَسهم مالكيها؟

(٤) . عندما انعقد مؤتمر السلام في مدريد بإسبانيا عام ١٩٩١م، انعقد برعاية الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي الذي كان يعيش أيامه الأخيرة، ويلفظ أنفاسه، إذ في السنة ذاتها، وبعد انعقاد المؤتمر تفتت الاتحاد السوفياتي تماماً، وكانت المنظومة الاشتراكية قد بدأت بالانهيار قبل ذلك بسنوات قليلة، فبقي العرب تحت رحمة الراعي الوحيد وهو الولايات المتحدة الأمريكية التي تدعم إسرائيل أكثر مما تدعم إسرائيل ذاتها، وأكثر مما تدعم الشعب الأمريكي.

- أَم هي في الأُردن الذي لم يدخل معركة قط؟
- أَم هي في لبنان الذي لم يفرغ من تضميد جراحه بعد؟
- أَم هي في سوريا المحاصرة حتى من بعض العرب من أَجل التَّوقيع والاستسلام؟!

هذا هو حال دول الطَّوق، أَمَّا دول الأَساور فأَساورها قُيود أَو قَعود.

إذن: إسرائيل تفاوض لا من موقع الأَقوى وحسب بل من إدراكها أَنَّها في أَفضل ظروف قوتها وأَسعد حظوظها، وتدرك تماماً أَنَّ ما هو مُهيَّأٌ لها الآن قد لا يكون بعد حين، فعليها أَن تستغلَّ هذه الظُّروف أَفضل استغلال وتحقِّق ما تستطيع تحقيقه باستثمار عوامل قوَّتها والقوى الواقفة ورائها. ولأَنَّ القوى الواقفة وراءها هي صاحبة القرار في العالم كلِّه فإنَّها تريد أَن تفرض شروطها كيفما تشاء وتكسب أَكثر ما في الإمكان « وكلُّ ساعة لها فرج ورحمة ».

قد يعترض معترض بأن التفاوض يقوم على الوثائق، أو العقود، أو الاتفاقيات، أو القوانين، أو الحقوق، وربما يقوم أيضاً على المنفعة، أو التكتيك، أو الاستراتيجيا... ولا يمكن أن يتنكر لها، أو لبعضها.

الحقُّ أننا لا ننكر ذلك كله أبداً، بل نقر به تماماً كما يتحدث عنه منظرو فن التفاوض(٥)، أو رُبَّما علم التفاوض(٦)، ولكن هذا الإقرار لا يعني أبداً أي

(٥) . انظر مثلا: جيرارد نيرنبرغ: **فن التفاوض** . ترجمة ماجد الشهابي . الشركة العربية لحقوق النشر . قبرص . د.ت.

تناقض مع سابق كلامنا، لأنَّ هذه المعطيات كلها لا قيمة لها ولا معنى إذا لم تكن مستندة إلى قوة حقيقية قادرة على إثباتها، وتحصيلها، وحمايتها، والدفاع عنها.

الحقُّ يظلُّ حقًّا حتَّى ولو تتالت عليه أكوام من التزوير والتزييف، ومن ثمَّ فإن العهود، والمواثيق، والحقوق، والقوانين، وكل ما جرى في هذا السياق، أمور لا يمكن أن تموت، وتظل سارية المفعول. ولكِنَّها في الوقت ذاته تظلُّ معطلة عن الفعل طالما أنَّ صاحبها معطل عن الفعل، وعاجز عن الحركة. وبهذا المعنى تماماً، ورُبَّما فَقَطْ، يمكننا أن نفهم مقولة: إن التاريخ يعيد ذاته. وكذلك المقولة المقابلة لها تماماً، والتي تقول: إنَّ التاريخ لا يعيد ذاته إلاَّ على الأغبياء(٧).

لَقَد فتح **الإسكندر المقدوني** نصف العالم، وعاد هو وجنده وبقيت الديار لأهلها. وفتح العرب أكثر من نصف العالم، وظلوا في البلدان التي فتحوها مئات السنين، ثمَّ عادوا، وبقيت تلك البلدان لأهلها. وظل الصليبيون أكثر من مئتي عام في البلاد العربية، وذهبوا مهزومين، وبقيت الأرض لأهلها. وكذلك فعلت الدول الاستعمارية؛ إنجلترة وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا... وذهبوا مطرودين، وبقيت البلدان لأهلها. وفي كل الحالات كان التفاوض، أيًّا كان نوعه، محكوماً بعنصر القوة.

---

(٦) . انظر مثلا: الدكتور حسن محمد وجيه: **مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي** . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ سلسلة عالم المعرفة . الكويت . العدد١٩٠ . ١٩٩٤م. وفي ذيل الكتاب أيضاً قائمة طويلة بالمراجع التي يمكن الرجوع إليها.

(٧) . يبدو من ظاهر القول أن العبارتين متناقضتان، ولكنهما ليستا كذلك في حقيقة الأمر، لأنَّها تؤديان المعنى ذاته، فالعبارة الثانية تعني أن الغبي هو الذي لم يستفد من الدرس الأول.

إضافة إلى ذلك كله يجب أن نميز الواجب والواقع، أو بين ما يجب أن يكون، وما هو كائن فعلاً. إن ما يجب أن يكون هو أن يكون البشر بشراً، بما يقوم به البشر من قيم: إنسانية ودينية وأخلاقية واجتماعية وجمالية، ولكن ما هو كائن فعلاً هو غرائز ومصالح وصراعات جرَّدت القيم من مضامينها النبيلة وألبستها ما يتناسب معها. وهذا ما تتساوى فيه الأمم كلها، اللهم إلاَّ في أنَّ لكلِّ أمة خصائصها التي تقود ممارساتها، فإما أن تضبطها أو تدفعها إلى الجنون. وليتفق المنصفون، بعد ذلك، أيًّا كانت الأمم والأزمان التي أنبتتهم على القول مثلاً: «ما عرف التَّاريخ فاتحاً أرحم من العرب». وعلى القول مع **آلان جريش**: «لو كان على الولايات المتحدة أن تعترف بالأخطاء التي اقترفتها على امتداد القرن المنصرم، لأمضت الألفية الثَّالثة على الأقلِّ وهي على كرسي الاعتراف»[٨].

• • •

(٨). نبيه البرجي: **ما وراء كرسي الاعتراف**. ضمن جريدة **العهد**. بيروت. العدد ٨٤٢. الجمعة ١٨ ذو الحجة ١٤٢٠هـ/ ٢٤ آذار ٢٠٠٠م.

الفصل الثاني

الابتزاز

هو لغة الحوار الصهيونية

الابتزاز اليهودي ليس بالأمر الطارئ ولا الجديد على العقلية اليهودية، وإنَّما هو جزءٌ صميميٌّ منها، قائمٌ في جِبِلَّتِهَا، وجد معها منذ ما قبل أن ترسل الرسل إليهم، وليس أدلَّ على ذلك من سيرتهم مع رسلهم وأنبيائهم، وتعاملهم مع الله من خلال أنبيائهم، ومع كلام الله وأوامره في حضور أنبيائهم ورسلهم.

«أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثمَّ يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون».

قرآن كريم

قد يكون هناك ما يسوِّغ للدَّولة؛ أيِّ دولة، أن تمارسَ الابتزازَ لتحقيقِ مصالحها، أو للضَّغط في أمرٍ يقدِّمُ لها بعض المنافع، أو ينصرها على عدوِّها، ولَعَلَّ معظم الأمم لجأت إلى الابتزاز مرَّةً أو مرَّات. وعلى الرُّغم من أنَّ أحداً لا يقرُّ بجواز الابتزاز في التَّعاملات بين الأمم والشُّعوب، إلاَّ أنَّه أمر قَدْ تستوجبه ضرورةٌ ما، وقد تبيح الدَّولة لنفسها ذلك مرَّةً أو مرَّات. ولكن أن تقوم دولة على نحوٍ كاملٍ كلِّيٍّ على الابتزاز، وأن تستمدَّ كلَّ مقوِّمات وجودها من الابتزاز، وأن تقوم كلُّ ممارساتها على الابتزاز... فهذا ما لم يشهد التَّاريخ له مثيلاً أبداً إلاَّ مع الكيان الصِّهيوني والحركة الصهيونية فَقَطْ.

والمصيبة الأكبر الَّتي لا يمكن أن يغفرها التَّاريخ، ولا الشُّعوب على مدار التَّاريخ، هي أنَّ الحركة الصِّهيونية والكيان الصهيوني، فوق كلِّ ذلك، قد زادت عليه بأنَّ هذا الابتزاز يتمُّ بطريقة مكشوفةٍ مفضوحةٍ، وعلى الرُّغم من أنوف الشُّعوب، والدُّول، كأَنَّهُم لا يحسبون للتاريخ أيَّ حساب، ولا يحسبون لنقمة الشعوب أيَّ حساب... ويتساءلون بعد ذلك، وقبله: لماذا تحقد كلُّ الأمم على

اليهود، ولماذا تحتقرهم كل الشُّعوب؟؟ مفارقة يبدو من المتعذَّر استساغتها مهما كانت العقيدة أو المبادئ الَّتي يؤمنون بها.

تأصل الابتزاز في العقلية الصهيونية

يظنُّ الأوربيون خصوصاً، والعالم عموماً، أنَّ أسطورة المحرقة النازية لليهود هي مفتاح الابتزاز اليهودي، وهي وسيلتهم الوحيدة للابتزاز، وهذا محض خطأ، لأنَّ الابتزاز اليهودي ظاهرة تاريخية ترجع إلى بداية نشأة اليهودية تماماً، فتعاملهم مع الله بحد ذاته تفكير ابتزازي، عندما حرفوا التوراة وجعلوا نبيهم **يعقوب** يصرع هذا (الإله المزعوم) بأن يثبته من قرنيه، ويفرض عليه وضعاً خاصًّا لليهود، ومعظم أخبارهم مع كليم الله **موسى** التي ذكرها القرآن، والَّتي نقلتها الأحاديث النبوية، والمرويات الإسرائيلية، تنطوي تحت عباءة الابتزاز، ومعظمها أخبار معروفة يضيق المجال عن سردها، مثل قصة الطعام، والبقرة، وطلب رؤية الله.... ولذلك وصفهم العلي القدير في محكم تنزيله بقوله الذي يكشف لنا عن هذه الحقيقة، ويبين لنا مدى طغيانه: «**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثمَّ يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**»[٩].

المصيبة الَّتي ما بعدها مصيبة هي أنَّهم يقومون بالتَّحريف، وهم يعلمون أنَّهم يحرفون الحق الذي عقلوه وعلموه، على الرُّغم من أنَّهم الشعب الوحيد الذي أراه الله معجزاته وجعل في مكنة الجميع أن يكون على صلة مع معجزاته... فإذا كانوا قد قاموا بهذا التَّزوير والتَّحريف مع كلام الله ومعجزات الله، وهم يعلمون ما يفعلون، فما تراهم يفعلون مع البشر؟

(٩) . القرآن الكريم . البقرة . الآية ٧٥.

من يطلع على التوراة والتلمود يدرك أن المكيافيلية، والفاشية، والنَّازية، والعنصريَّة، والعرقيَّة... كلُّها مجتمعة لا تشكِّلُ نقطةً في محيطات حقد اليهود على البشر، واحتقارهم من عداهم من البشر، وكيف لا وفي صلب عقيدتهم، ومتن توراتهم يقول: «إنَّ الله خلق من عداهم من البشر وندم على أنَّه خلقهم». فإذا تعاملوا بانتهازية مع الله، وانتزعوا منه، على حد زعمهم، الاعتراف بهم شعباً مختاراً، وحقوقاً لا تحق لغيرهم... فكيف تراهم سيتعاملون مع من خلقهم هذا الرب وندم على خلقهم؟؟!!

وفي ظل هذه الغطرسة، والمبالغة التي لا يمكن أن يقرها منطق، لا بدُّ أن نجد من اليهود من يرفض ذلك أو يتبرأ منه، وثمة فعلاً من فعل ذلك، فقد أكد **ناحوم جولدمان** أن «ثمَّة هوية مشتركة بين النازية والعنصرية»، وقارن **ميشل راشلين** بين كتاب كفاحي لـ **هتلر** وأسفار اليهودية، ووصل إلى أنَّ جذور النازية مستمدة من أسفار التوراة. وقال **بيير جريبالي**: «قانوننا عرقي شئنا أن أبينا، بل إنَّه القانون الأنموذجي للعرقية، لأنَّه النص الأقدم، والأكثر عمقاً الذي يبشر بعرقية أيديولوجية حتَّى أقصى حدودها... صحيح أن البشر لم ينتظروا التوراة كي يقتتلوا، ولكن لا يوجد نصٌّ جعل المذابح فرضاً دينياً مثل التوراة»... وعلى الرُّغم من ذلك فإنَّ هذه الإقرارات اليهودية لا تعبر عن أصغر جزء من دموية التوراة، واحتقار البشرية، ووصاياها للتعامل مع غير اليهود (الأغيار).

وعلى الرُّغم أيضاً من أنَّ بعض الدول تجيز استخدام المرأة لتمرير مخطط أو مصلحة، فإنَّ ما يحفل به تاريخ اليهود من استخدام المرأة بالطرق الرخيصة في ابتزاز المشاعر، والأخلاق، والسمعة... لا يمكن أن تصل إليه أمم الأرض

مجتمعة، وبطلات هذه القصص عبر تاريخ اليهود من الشهرة بمكان يجعل ذكرهن لا يضيف جديداً إلى معرفة القارئ أو المتلقي، فهناك مثلاً: **سالومي** بين أحضان **هيرودوس** التي أخذت ثمن ذلك قطع رأس **يوحنا المعمدان**، و**بوبيا** الَّتي مهَّدت الطريق لقيام **نيرون بإحراق روما، وقتله أمه، وأستير** بين أحضان **أحشو بروش** التي استطاعت أن تتقاضى ثمناً لذلك إعطاء الحق لليهود بقتل نصف سكان المملكة، وهناك **روكسلانا** التي تحولت من محظية عند السلطان **سليم** إلى زوجة رسمت، واليهود، تاريخ الإمبراطوية العثمانية منذ ذلك الحين، وهناك **مونيكا لوينسكي** التي أعدت للإطاحة بـ **بل كلينتون** وتشكيل ورقة ضاغطة عليه لأنَّه حاول أن يفكر في إنقاذ عملية السلام، وهناك أيضاً **أستير وسارة وياعيل**... فأي أمَّة هي التي يمكن أن يحفل تاريخها بمثل هذا التاريخ؟ وإذا عددنا النساء اللواتي قمن بمثل هذه البطولات عبر التَّاريخ فهل يصلن إلى ربع بطلات اليهود؟

أي إنَّ الابتزاز اليهودي ليس بالأمر الطارئ ولا الجديد على العقلية اليهودية، وإنَّما هو جزءٌ صميميٌّ منها، قائمٌ في جِبِلَّتِهَا، وجد معها منذ ما قبل أن ترسل الرسل إليهم، وليس أدلَّ على ذلك من سيرتهم مع رسلهم وأنبيائهم، وتعاملهم مع الله من خلال أنبيائهم، ومع كلام الله وأوامره في حضور أنبيائهم ورسلهم. وما مضى من ممارسات هذه العقلية الابتزازية قد لا يقلُّ أبداً عن ممارساتهم اللاحقة على أسطورة المحرقة النازية، وفي هذا وحده ما يفسر لنا السمعة القذرة، والاحتقار الشديد الذي أحاط باليهود أينما كانوا أو حلوا أو ارتحلوا عبر التاريخ.

ولكن قرب العهد بما سمي المحرقة النازية، واشتهر الآن بأسطورة المحرقة، وضياع كثير من الممارسات الابتزازية الصهيونية السابقة في غياهب النسيان، إلى جانب وسائل الإعلام التي تسجل وتفضح كثيراً مما يدور في الخفايا، جعل الكثيرين يظنون أن الابتزاز الذي يمارسه الكيان الصهيوني والحركة الصهيونية هو أكبر ابتزاز في التاريخ، وهو كذلك فعلاً، ولكنَّهُ ليس أقل من الابتزازات الصهيونية السابقة على أيِّ حال. ولذلك يمكننا الجزم من غير غلو أنَّ الوحشية والهمجية التي مورست وتمارس على العرب عموماً، والفلسطينيين خصوصاً، لا تزيد في شيء عن الوحشية والهمجية التي مارستها وتمارسها الصهيونية بحقِّ الأوربيين والأمريكيين، فكلهم عند الصهيونية سواء، كلهم أغيار، أي غير يهود.

استغلال أسطورة المحرقة

لا تختلف أسطورة المحرقة في مبدئها عن أساليب اليهود السابقة في الابتزاز، ولكِنَّها تقدِّم لنا أنموذجاً واضحاً عن أرخص الأساليب التي عرفتها البشرية في الابتزاز، وأكثرها مفارقة وعجائبية، ويمكن عرض هذه الأسطورة على ضوء المعارف الجديدة، والوثائق التي انكشفت بجهود أنصار الحقيقة والعقل، وهم كثيرون، على النحو التالي:

زعمت الحركة الصهيونية أن **هتلر** أباد ستة ملايين يهودي في أفران الغاز، وفرضت على العالم أن يقبل هذه الزعم الأسطورة، وفرضت على أوربا والعالم الغربي أن يكفر عن ذنب النازية بدفع التعويضات، وتقديم العون لإسرائيل، ومحاباة اليهود، وتقديم التسهيلات لهم، ومعاملتهم على وكأنَّهم شعب الله المختار فعلاً. وقد تجلى ذلك بممارسات ابتزازية ممجوجة فاضحة لا يمكن أن

يقبلها عقل، ولا أن يقرها منطق، وعلى الرُّغم من ذلك يمنع على أي إنسان يناقش هذه المفارقات حتَّى ولو طقَّ عقله!!!

تجلى ذلك أول ما تجلى فيما سمي (**قانون فابيوس جايسو**) الذي لجم أوربا وأمريكا عن الكلام؛ أي كلام لا يصب في مصلحة الصهيونية وربيبتها إسرائيل، ويقول هذا القانون: «يعاقب بالعقوبات المنصوص عليها في قانون الصحافة بالسجن والغرامة كل من راجع جريمة بحقِّ الإنسانية كما نصت عليها نتائج (**محكمة نورنبرج**). ومن خلال هذا القانون استطاعت الحركة الصهيونية أن تهود كامل الثقافة الغربية، بما فيها الديانة المسيحية بحد ذاتها، حتَّى صرنا نسمع عن صهيونية مسيحية، وصار من صلب الاعتقاد المسيحي السعي إلى دعم اليهود، والسعي إلى تعزيز الكيان الصهيوني. حتَّى ضاقت الأوربيون والأمريكان ذرعاً بهذه الممارسات التي لا يمكن لعاقل أن يقبل بها، فالتعويضات التي أخذتها إسرائيل عن الضحايا من ألمانيا خاصة، ومن أوربا والولايات المتحدة يمكن أن يشترى بها نصف الأرض بمن عليها وهم أحياء لا أموات، ومازالت تطالب بالمزيد!!!

ولو توقف الأمر عند الأموال وما شابهها لأمكن، بصورة أو بأخرى، أن يسكت عن ذلك، ولكن وصل الأمر إلى حد الاحتقار المزري بالآخرين، مع عدم السماح لهم بالاعتراض، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى فعلاً، ومهما ذكرنا منها فإن ما لم يذكر أكثر، وأعظم. ومن ذلك على سبيل المثال[١٠]:

(١٠) . انظر بعض الأمثلة أيضاً في الفصل المعنون بـ: أي سلام يمكن أن يكون مع إسرائيل؟ في هذا الكتاب.

قامت مظاهرة فرنسية أمام قصر العدل، من أبناء ضحايا فرنسيين للنازية من غير اليهود، طالبوا فيها الحكومة الفرنسية أن تحدد لهم تعويضات أسوة بالضحايا اليهود، فتظاهر اليهود في اليوم التالي احتجاجاً على هذه المظاهرة والمطالب التي يطالبون بها، وشتموا القاضي في ظاهرة غير مسبوقة في فرنسا. وصرح اليهودي **سيرج كلارس فيليد**:

«أن الضحايا اليهود فصيلة تتمتع بالأولوية، ولا تجوز مساواتها مع غيرها من البشر». وبهذا المعنى تماماً كان الحكم الذي صدر على **روجيه جارودي**، فهو لم يحكم لتكذيبه المحرقة، وإنَّما كان لجملة واحدة ذكرها في بحثه، وهي قوله: «إنَّ قتل بريء واحد، سواء أكان يهوديًّا أم غير يهودي، هو جريمة في حقِّ الإنسانية». فقد كان رأي المحكمة أنَّ هذه المساواة بين اليهود وغيرهم تقزيمٌ للجريمة المرتكبة في حق اليهود. بما يعني أن القاضي، والمحكمة، والقانون الفرنسي، مقتنعون تماماً بأن اليهود من غير البشر، وأنَّهم شعب الله المختار!!!

وإذا كانت جرائم اليهود السابقة قد نسيت، أو خفيت عن الأذهان، فإنَّ جرائمها الآن، التي فاقت كل وحشية وهمجية، لم تعد خافية على أحد بفضل وسائل الإعلام المعاصرة، ولذلك وجد بعض الساسة والمثقفين الأوربيين أنفسهم في حرج شديد، ووخز ضمير إن هم صمتوا، ولكنَّهُم لا يجرؤون على الكلام، لأنَّ من سيتكلم سيكون معاديًّا للسامية، وسيحاكم ويغرَّم!!! ولذلك كتب **روبرت فيسك** في مقال طويل في جريدة (لوموند): «نحن جبنا، ورفضنا قول الحقيقة خوف أن نوصم بمعاداة السامية».

ولمثل ذلك لم يسمح للمفكر الفرنسي **روجيه جارودي** أن ينشر مقالاً في صحيفة لوموند يتناول خدعة المحرقة اليهودية وفضيحتها، ولم تجرؤ أي صحيفة فرنسية على نشر هذا المقال، الأمر الذي اضطره إلى نشره في باب الإعلانات وكلفه ذلك سبعين ألف فرنك فرنسي. ولكن الأمر لم يمض بسلام، فقد قامت قيامة اللوبي اليهودي في فرنسا، وشنت حملة مجنونة عالمية على **جارودي**...

وعندما قالت الرئيسة السويدية عبارتها اللطيفة الخالية من أي إدانة أو قسوة: «إنَّ ممارسة القتل تشكل عائقاً في طريق السلام». شنت إسرائيل والصهيونية العالمية حملة كبيرة عليها، ووجهت لها مؤسسة سيمون فوزنتال تهديداً، وتأنيباً، يضرب على أوتار المحرقة، وتفعيل عقدة الشعور بالذنب، جاء فيه: «إنَّ الرئيسة تشنُّ من جانب واحدٍ ضدَّ الناجين من المحرقة النازية».

وإلى جانب ذلك كله، تقوم المنظمات الصهيونية بمطاردة وملاحقة ومحاصرة ومحاربة كلِّ من يتحدث عن اليهود بما لا يرضيهم، وطرده من عمله. وتبتز الشركات والمؤسسات والمصانع والأفراد بملايين ومليارات الدولارات بمختلف الطرق الابتزازية الممكنة.

وتصل العقلية الابتزازية اليهودية إلى أوج الصفاقة في تعاملها مع العرب، فبعد عشرين عاماً من احتلال الجنوب اللبناني، واستنزاف خيراته، وإثارة الفتن، تطالب بتعويضات عن خروجها من الجنوب، ولا ندري ما الذي منعها من أن تطلب ذلك من لبنان، ولكِنَّها لم تبتعد كثيراً إذ زجت بدول الخليج العربي الموضوع وطالبتهم عن طريق الولايات المتحدة بدفع هذه التعويضات. وفي الإطار اللبناني ذاته أعرب **تيمور جوكسيل** الناطق باسم القوات الدولية في

الجنوب اللبناني في أوائل آذار عام ٢٠٠١م عن دهشته من أنَّ الكيان الصهيوني يسرق المياه ويشتكي.

وبصفاقة أكثر من متميزة أيضاً بدأ الكيان الصهيوني، بالتنسيق مع الجمعيات والجماعات اليهودية النافذة في العالم، في النصف الأخير من أيلول عام ٢٠٠١م، حملة على الصعيد الدولي، موضوعها اليهود العرب الذين هاجروا من البلاد العربية إلى الكيان الصهيوني منذ عام ١٩٤٨م، وتتضمن الحملة عرض لوائح مفصلة بأسماء هؤلاء اليهود وأعدادهم وأملاكهم في كل دولة عربية، والمطالبة بتعويضات لهم، وقد بلغت هذه التعويضات حسب تقدير الكيان الصهيوني نحو عشرة مليارات دولار. وهم يعلمون تمام العلم أن الذي يجب أن يدفع التعويضات هم اليهود أنفسهم الذي أبادوا عشرات بل مئات الآلاف من الفلسطينيين، وهجروا الملايين منهم.

خدعة المحرقة

المشكلة الأساسيَّة هنا هي أنَّ هذا الابتزاز كله، وبالحدود التي وصل إليها، مبني على خرافة لا على حقيقة، ولا حتَّى على شبه حقيقة، فالمحرقة كلها خدعة، وأكثر من خدعة، والأوربيون، ومعهم الأمريكيون يدركون هذه الحقيقة، وهذا ما دفع عدداً كبيراً من نخب المفكرين في العالم الغربي إلى مراجعة هذه الأسطورة، والكشف عن حقائقها. لأنَّ استمرار الابتزاز، ودفع التعويضات بات أمراً لا يطاق، وبهذا المعنى قال أحد المحللين السياسيين في جريدة (الحارديان): «إنَّ تكاليف دعم إسرائيل أصبحت ثقيلة على الأخلاقية الغربي»[١١].

(١١) . ورد ذلك في الحلقة المخصصة للقضية الفلسطينية من برنامج الاتجاه المعاكس، على محطة الجزيرة الفضائية، يوم الثلاثاء ٢٠٠١/٥/٢٢م.

والمراجعون هؤلاء كثيرون جدًّا لا أزعم أنَّه يضيق المجال عن تعدادهم، ولكنَّهُم كثيرون جدًّا على كلِّ حال، ومما يخطر في البال منهم على سبيل الذكر والمثال:

إرنست زاندال، وآرثر بيتز، وأستين جي. إن، وإميل أرتيز، وبوتز، وبول راسينيه، وبول مكلوسكي، وبيير ديون، وتييس كريستين، وجون بينيت، وجون تولاند، وجون ساك، وديفيد إيرفنج، وراؤول هيلبرج، وروبرت فوريسون، وروجيه جارودي، وريتشارد هارولد، وسيرج تيون، وسيسيل روت، وفريد لوشتر، وفيلهيلم ستاجانج، وكول دانيال، ولوجوفيتش، ومارك ويبر، وميشيل دوبوار، ونورمان فينكلشتين، وهاري إلمر بازنيز، وهنري روكييه، وولف ديتيار روتي، ...

وقد انقسم هؤلاء في تناولهم المحرقة إلى قسمين؛ قسم يشكك في عدد اليهود الذين قتلوا في معسكرات الاعتقال النازية، ويخفضون العدد من ستة ملايين إلى مليونين، أو أقل. والقسم الثاني ينفي وجود غرف الغاز نفياً قطعيًّا، بناء على الوثائق التي توافرت، وعلى البحث العلمي والمنطقي، ولكنهم لم ينكروا أن هناك ضحايا يهود للنازية. واتفق الفريقان عموماً على مناقشة أربع نقاط هي:

١ ـ تكذيب العدد الذي تطرحه المنظمة الصهيونية.

٢ ـ مدى مصداقية غرف الغاز.

٣ ـ خصوصية موت اليهود.

٤ ـ الاستغلال المادي والسياسي والثقافي للأسطورة.

ونضيف نحن نقطة خامسة هي أنَّ المنظمة الصهيونية واليهود أنفسهم هم الذي أبادوا من أبادوا من اليهود من أجل خدمة مصالحهم، وعقاباً لهم.

وأيًّا كان أمر المراجعين، فإنَّنا، بالاستفادة مما أبانوه وكشفوا عنه، سنبين خدعة المحرقة من خلال النقاط التالية:

أوَّلاً: إن كان هناك من محرقة فعلاً فهي غير موجَّهة ضدَّ اليهود وحدهم، وإن كان ضحايا النازية من اليهود ستة ملايين كما يزعمون، فإنَّ ضحايا النازية أكثر من مئة وخمسين مليون على امتداد الساحة الأوربيَّة، فبأي منطق قبل الأوربيون، أو اقتنعوا أنَّ هؤلاء الملايين الستة من اليهود أكثر أهمية، وأغلى من المئة وخمسين مليون؟ وكيف استساغوا، هم واليهود معاً، أنَّ الجريمة المرتكبة بحق الضحايا اليهود أفظع من الجريمة التي ارتكبت بحق الأوربيين الآخرين؟

ثانياً: مما يؤكد أنَّ المحرقة، حتَّى وإن كانت موجودة، لم تكن موجهة ضد اليهود أبداً، هو وجود تعاون وثيق بين الصهيونية والنَّازيَّة، وقد كشفت الوثائق عن تاريخيَّة هذا التَّعاون، ومن ذلك على سبيل المثال أنَّه انعقد بتاريخ ٢٥ آذار ١٩٣٣م اجتماع في مكتب **جورنج** وزير الدَّاخليَّة الألماني، ورئيس الرانخستاج، مع القيادة العليا للمنظمة الصهيونية بهدف وضع تفاصيل المخطط المتفق عليه بشأن ترحيل اليهود.

وفي ٧ أيار ١٩٣٣م انعقد اجتماع آخر لإقرار خطة الترحيل المتعلقة بتهجير اليهود ونقلهم إلى فلسطين، وحمل الاتفاق توقيعات قيادة المنظمة الصهيونية، وعن الجانب الألماني: وزارة الداخلية، وزارة الاقتصاد، وزارة المال، وزارة الإرشاد والدعاية، المصرف المركزي. وبموجب هذا الاتفاق تتولى المنظمة

الصهيونية دعم الاقتصاد الألماني بما لديها من نفوذ وتكتلات في الدول مقابل ترحيل اليهود بكلِّ الوسائل إلى فلسطين.

وفي عام ١٩٣٥م كان **روزنبرج**، أحد أعلام النازية ومنظريها، قد أعلن، في ليكون بفرنسا، تأييده للصهيونية، وأنَّهُ معجب بها لتماثلها مع النازية. وفي السنة ذاتها أعلن صحافيو النازية: أنَّ الحكومة تجد نفسها على اتفاق تام مع الصهيونية لرفضها الاندماج، ولذلك سنتخذ التدابير اللازمة التي تؤدي إلى حل المسألة اليهودية.

وقد كانت هناك رحلة للاستخبارات الألمانية مع أعضاء من الحركة الصهيونية إلى فلسطين لدراسة الوضع وكيفية الترحيل، وفتح خط نقل لليهود من ألمانيا إلى فلسطين، استمر حتَّى ما بعد قيام الكيان الصهيوني. وهذا يعني إلى حدٍّ كبير تعذر قيام الحكومة الألمانية بقتل اليهود أو التآمر عليهم.

ثالثاً: والذي يؤكد هذا الاستنتاج، الذي هو بمنزلة النتيجة المنطقية الضرورية للمقدمات السابقة له، هو أنَّ **هتلر** حسبما كشفت الوثائق التي خلفتها جمهورية الرايخ لم يصل يوماً في أفكاره أو مخططاته بشأن اليهود أبعد من ترحليهم إلى خارج ألمانيا بغض النظر عن المكان، تحسباً من غدرهم الذي أدى إلى انهيار ألمانيا في الحرب العالمية الأولى. ويؤكد **ديفيد إيرفنج** في كتابه (**حرب هتلر**) أنَّ الفوهرر لم يكن يعلم شيئاً عن سياسة إبادة اليهود حتَّى تشرين الأول عام ١٩٤٣م.

بل الأكثر من ذلك هو أنَّ **هتلر** طلب من الرأسماليين اليهود مغادرة ألمانيا عندما اشتدَّت الحركة المضادة لهم، وأعطاهم مبلغ مئتي مليون دولار على شكل

بضائع ألمانية صدرت إلى فلسطين تعويضاً لهم عن ممتلكاتهم في ألمانيا بموجب اتفاقية الـ (هافار) أو الرحيل.

كل هذا يؤكد أنَّ فكرة إبادة اليهود، أو قتلهم لم تكن أبداً جزءاً من العقيدة النازية، ولا من ممارستها، بل الأكثر من ذلك أن الحقائق تؤكد حتَّى الآن أنَّ الحركتان النازية والصهيونية كانتا على أتمِّ التعاون والتكامل؛ عقيدة، وممارسة، وطريقة تفكير. وهذا ما سيتأكد أكثر فيما يلي.

رابعاً: لقد استغلت الحركة الصهيونية نزوع النازية العنصري لتقحم اليهود، بمنتهى البرود، في أتون هذه المعمعة، من أجل تنفيذ مخططاتها المتمثلة في إشعار اليهود بأنهم مضطهدون، ودفعهم من ثمَّ إلى الهجرة، والحيلولة دون اندماجهم مع المجتمعات التي يعيشون فيها. فقاموا لذلك بترتيب قتل اليهود بأنفسهم، وبالتعاون مع الحركة النازية، والتخطيط معها، وقد كشفت الوثائق أنَّ **هتلر** وأعوانه كانوا على صلة دائمة، وتنسيق وثيق مع المنظمة اليهودية من أجل:

١ ـ ترحيل شباب اليهود، بعد تدريبهم، إلى فلسطين، وقد أكد أو ذكر **إيخمان**، في محاكمته، أنَّه هو ذاته قد أسس معسكرات لتدريب يهود ألمانيا، ومساعدتهم على الهجرة إلى فلسطين. وقد تمت بعض الخطوات على أرض الواقع دراسة وممارسة.

٢ ـ الاتفاق، إلى جانب ذلك، على استهلاك العجزة والمسنين والمشوهين اليهود في أعمال السخرة، والمصانع الألمانية، وحَتَّى فيما (سمي بالمحارق وأفران الغاز) كي لا يكونوا عبئاً على المخطط العام لتشكيل الدولة اليهودية المستقبلية من جهة، وكي يستغلوا ذلك في إثارة مشاعر الشفقة، واستدرار العواطف.

وللمنظمة اليهودية بوادر وتجارب كثيرة من هذا النوع، منها مثلاً: تفجير الباخرة باتريا التي تقل نحو ألفي يهودي، والباخرة ستروما التي تقل نحو ثمانمئة يهودي، ونسف العديد من المباني اليهودية في بغداد لإرغام اليهود العراقيين على الهجرة... وغير ذلك الكثير مما اعترف به قادة اليهود بعد أعوام، وليعلقوا ببرود غير المكترث على هذه المجازر اليهودية بحق اليهود قائلين:

. «من الضروري التضحية بالجزء من أجل إنقاذ المجموع».

وبهذا المعنى تماماً قال **هرتزل** لقيصر روسيا: ساعدنا.

وعندما سأله القيصر: وكيف أساعدكم؟

قال **هرتزل**: «**اركلنا في المؤخرة كي نهاجر**».

ومما يؤكد هذه الحقيقة أكثر هو أنَّ قادة اليهود معظمهم أعلنوا أن من ماتوا في المحرقة المزعومة إنَّما ماتوا لأنَّهُم يستحقون ذلك، وقد استحقوا ذلك لأنَّهم قبلوا بالاندماج مع المجتمعات التي يعيشون فيها، أي إنَّ المنظمة الصهيونية ذاتها هي من عاقب هؤلاء اليهود، لخروجهم عن التعاليم اليهودية، على الرُّغم من أنَّ أقطاب المنظمة الصهيونية ذاتهم لم يكونوا ملتزمين دينياً أبداً. وفي مثل هذا السياق قال **شمعون بيريز** في كتابه (حوار طويل):

. «إنَّ يهود المعتقل الذين قبلوا الاندماج يستحقون المحرقة».

ومثل هذا ما قاله **ديفيد بنجوريون**، **وعفواديا يوسف** الذي قال:

. «الذين أحرقوا يستحقون ذلك لأنَّهُم خانوا الله باندماجهم».

وبهذا المعنى أيضاً قال **سولفرد لاند**: «لَقَد قدَّمت النازية فرصة تاريخية لتأكيد الهوية اليهودية، واستعادت الاحترام الذي فقدناه بالاندماج... إننا مدينون **لهتلر** والنازية».

وكان **ناحوم جولدمان** من أكثرهم وضوحاً عندما بين السبب الرئيس الذي دعا الحركة الصهيونية إلى تضخيم أسطورة المحرقة إذ قال: «لم أكن أتصور قيام إسرائيل لولا التعويضات».

هذه هي اللغة التي تحاور بها الصهيونية الآخرين، منذ وجد اليهود، وحَتَّى الآن، ولن يغيروا هذه اللغة أبداً، سيان أكانوا أقوياء أم ضعفاء، ولا فرق عندهم بين مسلم ومسيحي، ولا بين شرقي وغربي، فكل الأمم والشعوب عندهم سواء، لأنَّ كل من سواهم يندرجون عندهم تحت فئة الأغيار، والأغيار كلهم، حسب عقيدتهم، مسخرون لخدمتهم، لأَنَّ الله خلقهم وندم على خلقهم. وفي عقيدتهم التوراتية أكثر من ذلك بالكثير الكثير(١٢).

ولأن أسطورة المحرقة هي الورقة الرابحة التي يلعبون بها الآن، أمكن القول مع **روبرت فوريسون**: «الأخطر بالنسبة للصهيونية هو مراجعة التاريخ». إلى درجة أنَّه خاطب العرب قائلاً: «إذا أردتم تحرير فلسطين فإنَّكم لن تستطيعوا فعل ذلك بالبنادق والسلاح، كل ما هو مطلوب منكم أن تقولوا الحقيقة، وتبينوا الخديعة الكبرى المسماة بالمحرقة... يجب عليكم أن تقاتلوا جيداً في هذا المضمار»(١٣).

ولكن الذي ينبغي ألاَّ يغيب عن **فوريسون** وغيره من المراجعين أنَّ الروح الابتزازية اليهودية ليست وليدة المحرقة، ولن تنتهي بانتهاء أسطورة المحرقة. لأنَّها جزء صميميٌّ من العقلية اليهودية، والعقيدة اليهودية، واليهود يدركون ذلك،

(١٢) . انظر الفصل المعنون بـ: العقيدة اليهودية وإمكانية السلام معها من هذا الكتاب.

(١٣) . قال ذلك في مهاتفة أجرتها معه محطة **الجزيرة الفضائية** يوم الثلاثاء ٢٠٠١/٥/١٥م، في برنامج الاتجاه المعاكس.

ويدركون أنَّهُم مصرون على ألاَّ يحافظوا على صداقة أو ودٍّ أبداً، ولذلك ليس العالم مسؤولاً عن حماقات الصهيونية، واستعدائها كل الشعوب والأمم والأديان، وإنَّما هي مسؤولية اليهود أنفسهم، ووحدهم، فهل يمكن أن يعيدوا صياغة عقيدتهم، وعقليتهم؟؟!

الفصل الثالث

القوة

هي الحوار الوحيد الممكن مع إسرائيل

إنَّ الذي يعرف أنَّه يحتل بيت غيره وأرضه لن يشعر بالأمان أبداً، وستكون حياته كلها قلق يلفه قلق... ومن يعرف أنَّه يحتل بيت غيره أو أرضـه... لن يكون لديه أي استعداد للدفاع عنه إذا كان سيكلفه هذا الدفاع جرحاً أو قطرة دم، فكيف لو شعر أنَّ حياته ستكون الثمن؟؟!!

إنَّ الحقيقة الَّتي ننطلق منها هي أنَّنا ندافع عن أرضنا وعِرْضِنا وكرامتنا، وليس يجوز أن يسمى هذا حقًّا لأنَّه لو كان حقًّا لجاز التَّنازل عنه، ولا يجوز التَّنازل عن ذلك، إنَّ هذا الدِّفاع عن حقوقنا واجبٌ لا يقلُّ عن أشدِّ الواجبات إلزاماً.

سنةٌ واحدةٌ قد انقضت على أبرز انتصار حقَّقه العالم العربي على العدو الصهيوني، بفضل المقاومة الإسلاميَّة اللبنانيَّة.

ولكن لماذا كان هذا الانتصار؟

وما التَّداعيات التي يثيرها؟

وما الدَّرس الذي يمكن أن نتعلَّمه من هذا الانتصار؟

ثلاثٌ وخمسون سنةً قد انقضت على ضياع فلسطين بالمأساة المهزلة المسماة بالنَّكبة. وأربعٌ وثلاثونُ أُخْرَى قد انقضت من استكمال المأساة المهزلة، وهدر الكرامة العربيَّة بما سمي النَّكسة!! وعشرات الحروب والمعارك المبتذلة مع الكيان الصهيوني قد انتهت من دون أي نتيجة تستحقُّ أن تسجل في دفتر التَّاريخ باستثناء حرب تشرين التي شوهها **السادات** منذ ما قبل التخطيط لها، مروراً باشتراكه في التخطيط لها، وصولاً إلى خيانته الكبرى في حمأة المعركة التي أربكت الجيش السُّوري، والجبهة السُّوريَّة، وأذلَّت الجيش المصري ذاته، وأهانت

عظيم إنجازاته بانسحابات مهينة، ومعاهدة فصل القوَّات الَّتي وصفها كبار ضبَّاط الجيش المصري بأنَّها ذلٌّ وعار.

وبعد هذه السنين كلها، وهذه المعارك كلها، وبعد ملايين الصفعات واللطمات على الخد العربي، يأتي الانتصار السَّاحق للمقاومة الإسلامية على الكيان الصهيوني. ولكنَّ الفرح الذي عمَّ العالمين العربي والإسلامي بهذا الانتصار، لم يكن محض فرح، فقد ترافق مع زلزال هزَّ كيان العقل العربي وكاد يخرجه من سباته لولا أنَّ سباته شبه عصيٍّ على الصحو الآن. بل إنَّ الكيان الصهيوني ذاته ما زال، بعد مضي أكثر من عام على التحرير، مذهولاً، لا يصدق ما حدث، ولا يريد الاقتناع به، فقد جاء في جريدة (هآريتس) تحت عنوان: ضرب لبنا في غزة: «القول السائد الآن هو أنَّه لأول مرة في التاريخ العربي تطرد قوة عربية إسرائيل من أرض احتلتها من دون اتفاق ومن دون تفاهم رسمي ومن دون تنازل عربي لإسرائيل»(١٤).

والسؤال الذي فرض ذاته على الجميع هو:

كيف استطاعت قلَّة من المجاهدين أو الفدائيين الذين قد لا يزيد عددهم عن عناصر كتيبة في أيِّ جيش عربي، أن ينتصروا على الكيان الصهيوني هذا الانتصار الساحق، الذي حطَّم الجبروت الصهيوني، وجعل جنود الصهاينة يندحرون بفرحة لم تعدلها فرحة العرب بهذا النصر، على الرُّغم من تمترس هذا العدو وتزوده بأحدث الأسلحة والتقنيات، في حين عجزت الجيوش العربية، في عشرات المعارك والحروب، عن تحقيق ما هو أقل من هذا النصر بكثير، على

(١٤) . **قضايا الساعة في الصحافة العبرية** . ضمن جريدة **المحرر العربي** . باريس . العدد ٢٩٧ . ١ حزيران ٢٠٠١م . ص١٣.

الرُّغم من أنَّ أسلحة الجيش الصهيوني وتقنياته لم تكن كما هي عليه إبان التحرير، وعلى الرُّغم أيضاً من أنَّ ثمَّة نوعاً من التكافؤ كان قائماً بين أسلحة الكيان الصهيوني وأسلحة الجيوش العربيَّة إبان تلك المعارك الخادعة، اللهم باستثناء المشاركة السورية في حرب تشرين، وإخلاص الجيش المصري جنداً وقادة من دون تدخل **السادات؟؟!!**

معادلة صعبة جدًّا، بل تبدو عصية على الحل، لأنَّ المنطق لا يمكن أن يهضم ذلك، ولا يمكن أن يتقبله... ولكن إن كان يسير على هدي المنطق...

إنَّ ما حدث قبل المقاومة الإسلامية اللبنانية لم يكن على شيء من المنطق أبداً، فقد كشفت الحقائق والوثائق، مع استثناء غير مؤثِّر بمعنى من المعاني، أنَّ الحكام العرب معظمهم يعملون على خدمة الصهيونية، والكيان الصهيوني إما بشكل غير مقصود من خلال الانخراط في اللعبة الأمريكية، أو بشكل مقصود تماماً، بمعنى أنَّهُم خدموا الصهيونية عن وعيٍ وعمدٍ وعلمٍ، لا عن جهل أبداً.

وهذا يعني أنَّ المعارك التي كانوا يخوضونها لم تكن إلاَّ لذرِّ الرَّماد في العيون، وخوفاً من الجماهير العربية، وليس بقصد المعركة أبداً، والحرب الوحيدة التي انتصر فيها العرب انتصاراً ما زال العرب يفخرون به، وهي حرب تشرين، كان **السادات** قد شوهها ودنسها، لا بمجرد اشتراكه فيها وحسب، بل بتآمره فيها، كما كشف الوثائق والحقائق، مع الولايات المتحدة وإسرائيل. فكيف بسواها من المعارك التي يعرف الجميع أنَّ معظمها كانت لتكريس الكيان الصهيوني؟؟!

هنا يتَّضحُ الفرق الجوهري بين ما فعلته المقاومة الإسلاميَّة وما فعلته الحكومات العربيَّة، ففي حين أن ما فعله الحكومات العربيَّة كان خداعاً وتضليلاً

فإنَّ المقاومة الإسلامية اللبنانية كانت تقاتل فعليًّا، تقاتل من أجل التحرير لا من أجل الخداع والتضليل، ولذلك كانت النتيجة الناجمة عن عمليات المقاومة أعظم بمئات المرات من نتائج كل الحروب والمعارك التي خاضتها الجيوش العربيَّة مجتمعة ومتفرقة، على الرُّغم من أنَّ حجمها أصغر بمئات المرات من أحجام الحروب المعارك التي كانت تخوضها الحكومات العربيَّة، وعلى الرُّغم أيضاً من أنَّ أسلحة المقاومة أقل قوة بمئات المرات من الأسلحة التي امتلكتها الجيوش العربيَّة وحاربت بها.

هذا الفارق الجوهري يقودنا إلى الدرس الأول والأكثر أهمية الذي يجب أن يتعلمه العرب والمسلمون وهو النية الصادقة في العمل، وقد قال الرسول ﷺ: {**إنَّما الأعمال بالنيات**}، وكلا الفريقين نجح في تحقيق نواياه؛ لَقَد كانت نية معظم الحكام العرب الدفاع عن الكيان الصهيوني وقد نجحوا في ذلك، وكانت نية المقاومة الإسلامية اللبنانية الجهاد من أجل التحرير وقد نجحت في ذلك.

طبعاً لسنا بحاجة إلى تبيان أنَّ النوايا وحدها لا تكفي، لأنَّ النية من غير عمل مجرد فكرة، ولا يمكن للفكرة أن تتحقق من غير العمل. والعمل هو فعل، ولا يمكن للفعل أن يكون ذا نتيجة ما لم يكن من طبيعة الفعل المقابل له، فالكيان الصهيوني احتل الأرض العربية بالقوة، ولا يمكن تحرير هذه الأرض إلا بالقوة. وقد أثبتت المقاومة الإسلامية، ومفاوضات (السلام) هذه الحقيقة بكل قوة.

لقد استعادت مصر أرضها بالمفاوضات، ولكِنَّها استعادتها من دون أن يكون لها سيادة عليها، فكانت هذه الخطوة انتقاصاً من كرامة الأمة كلها لا مصر وحدها، حتَّى إنَّ بقاء الاحتلال بالقوة أرحم من استلام تراب منقوص

السيادة. والأمر عينه حدث من الفلسطينيين، مع فارق كبير باتجاه الأسوأ، وهذا ما يريد أن يفعله الكيان الصهيوني مع سوريا ولبنان وكل العرب... وكلُّ ذلك يؤكِّد أنَّ المفاوضات لا تجدي أبداً في تحرير أرض احتلت بالحرب والقوة، ولا سيَّما مع اليهود الذين وصفهم الله عز وجل في القرآن الكريم بقوله: **{كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون}**[١٥].... بل التاريخ مليء بالأمثلة التي تؤكد هذه الحقيقة.

أمَّا المقاومة الإسلامية اللبنانية فقد أكدت هذه الحقيقة من جانبها الآخر، وهو الجانب الصحيح، أي إنَّها برهنت أن الأرض التي احتلت بالقوة لا يمكن أن تحرر إلاَّ بالقوة، وهذا ما فعلته. لتقدم لنا درساً آخر يجب أن نضعه نصب أعيننا. وهو أنَّ القوة هي لغة الحوار الوحيدة الممكنة مع الكيان الصهيوني.

ليس خافياً أن الكيان الصهيوني يعيش منذ سنوات ذروة الجبروت والعنجهية بسبب هيمنة اليهود على كواليس السياسة والإعلام على المستوى العالمي، ولا سيَّما في الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا وبعض الدول الآسيوية والأفريقية. ومن المعروف أيضاً أنَّ اليهود عبر التاريخ لا يمكن أن يفعلوا إلاَّ ما يحلو لهم إذا كانوا أقوياء، فكيف وهم لا يصدقون الآن أنَّهم يهيمنون الآن على العالم هذه الهيمنة؟؟

ولكن الكيان الصهيوني، على ما هو عليه من جبروت وعنجهية وقوة، لم يقدر على مواجهة بضع فدائيين مجاهدين. واستطاع هؤلاء المجاهدون على قلتهم أن يسحقوا الكيان الصهيوني ويفرضوا عليه إعلان استسلامه وانسحابه من الجنوب اللبناني وهو فرح بهذا الاستسلام والانسحاب لأنَّ هذا الاستسلام المذل أرحم

(١٥) . القرآن الكريم . سورة البقرة . الآية ١٠٠.

بكثير من بقائهم منتصرين في الجنوب اللبناني. وأثبتت المقاومة الإسلامية بذلك أن لغة القوة هي لغة الحوار الوحيدة الممكنة مع الكيان الصهيوني، شريطة أن ترتبط بنية صادقة ومخلصة.

لقد وضع الانتصار الذي حققته المقاومة اللبنانية العرب أمام كثير من التساؤلات وعلامات الاستفهام، وعلى رأسها التساؤل الذي صدرنا به هذا الفصل، وهو: لماذا انتصرت المقاومة اللبنانية على قلتها وتواضع أسلحتها، فيما أخفقت الجيوش العربية في ذلك؟

الحق أنَّ إلقاء اللوم على الحكومات العربية، والجيوش العربية، واتهامهم بالتقصير، أو الخيانة، ليس كافياً لتسويغ إخفاقهم ونجاح المقاومة فيما أخفقوا فيه. ذلك أن الظروف والمعطيات الدولية تلعب دوراً لا يمكن إغفاله في الضغط على الدول، وتحجيم الأدوار التي يمكن أن تقوم بها، والتدخل في أي معركة تدخلاً مباشراً أو غير مباشر، كما حدث في حرب تشرين، مثلاً، إذ اشتركت الولايات المتحدة في الحرب بصورة مباشرة في المعركة لدعم إسرائيل والحيلولة دون انهزامها، وامتنع الاتحاد السوفيتي عن تزويد سوريا بالسلاح وهي في حمأة المعركة. وغير ذلك الكثير مما تفرضه السياسة الدولية، هذه السياسة التي تصر حتَّى الآن على بقاء إسرائيل ودعمها، على الرُّغم من ثقل التكاليف التي تدفعها الولايات المتحدة والعالم الغربي من أجل بقاء هذا الكيان.

إن الممارسة السياسيَّة، والإيقاعات السياسيَّة الَّتي يفرضها العالم الغربي، والولايات المتحدة خصوصاً، على العالم، والعالم العربي خصوصاً، تحت مسمَّيات مختلفة من قبيل: التَّوازن الدُّولي، وتوازن المصالح، والاستقرار... وغير ذلك، تحول، إلى حدٍّ كبيرٍ من دون نشوب معارك أو حروب ضدَّ الكيان

الصهيوني، وأيُّ حرب ستنشب لن يسمح فيها بالحسم لصالح العرب إطلاقاً طالما هم على ما هم عليه من تفرق وتشرذم وعدم اتفاق أبداً. وهذه القناعة هي التي فرضت على بعض العرب، وسوريا خصوصاً، القبول بالأمر الواقع والدخول في المفاوضات، لأنَّها لو لم تقبل بذلك لصارت معزولة من العالم، والعالم العربي خصوصاً، وكانت في الأصل محاصرة من معظم الدول العربية لأنَّها كانت تصر على تحرير فلسطين قبل الجولان.

الخطأ بل الجريمة التي ارتكبها العرب هي أنَّهُم أسقطوا خيار الحرب، وأصروا على خيار السلام، ولا شيء غير السلام، على الرُّغم من أن إسرائيل ترفع راية الحرب دائماً، ولم ترد السلام أبداً، وليس من غريب المفارقات أبداً أن **الحبيب بورقيبة** الذي كان أول من قبل بقرار التقسيم، وأول من سعى إلى السَّلام مع إسرائيل، قد أعلن في آخر لقاء صحافي له، قبل وفاته بزمن غير طويل مع جريدة لوموند الفرنسية، أن «إسرائيل لا تعرف إلاَّ القوة، ولا يمكن أن تقبل بالسلام مع العرب، حتَّى لو تنازل العرب عن حقوقهم»(١٦).

ولذلك، وللأسف، لم يبق إلاَّ دور أصحاب الأرض في تحرير أرضهم، ومن شديد الأسف أن نقول إنَّ الفلسطينيين هم وحدهم أصحاب الأرض، وهم وحدهم المسؤولون عن تحرير الأرض. ولكن في ظل هذا الانهيار العربي، لسنا أمام أي خيار آخر... الجيش الصهيوني يقتل الكبار والصغار، والنساء والرجال، وكلهم من الأبرياء، والمستوطنون يقيمون المجازر، ويدنسون المقدسات، ويدكون القرى والمدن بالصواريخ والمدافع والطائرات... وبعد ذلك

(١٦) . ورد ذلك في الحلقة الثالثة من برنامج **بين زمنين** الخاص بالحبيب بورقيبه . على **محطة أبو ظبي الفضائية** . الاثنين ٤/٦/٢٠٠١م.

كله يتعامل العالم مع إسرائيل على أنَّها سيدة الديمقراطية، والإنسانية، وأنَّها المضطهدة، والمظلومة، التي تعيش في غابة من الوحوش المفترسة، والهمجيين... ويتعامل العالم مع العرب على أنَّهُم إرهابيون، لا يحترمون حقوق الإنسان!!!

أمام ذلك كله ليس من خيار أمام الفلسطينيين إلاَّ اقتفاء خطى المقاومة الإسلامية اللبنانية، ولا حل بديل، لأنَّه أثبت أنَّه الدواء الناجع تماماً، والذي يؤكد هذه الحقيقة أكثر هو ما يحدث في فلسطين الآن، إذ ما إن بدأت الانتفاضة باستخدام القوة، وقتل الصهاينة بالعمليات الاستشهاديَّة، والمقاومة النَّاجمة عن ردِّ الفعل الطَّبيعي على الممارسة الهمجيَّة... حتَّى خرج الكيان الصهيوني عن طوره، وما زال يتصرَّف منذ أشهر وحَتَّى الآن بجنونٍ يتصاعد يوماً بعد يوم، وعلى الرُّغم من التَّعتيم الإعلامي العربي والعالمي على الجرائم البشعة الَّتي لم تعرف الإنسانيَّة لها مثيلاً عبر تاريخها فإنَّ ما يصل إلى العالم منها يعري الكيان الصهيوني ويفرض على دول العالم استنكاره بشدة.

إن العمليات الاستشهاديَّة الَّتي قام بها الفلسطينيون، ويجب أن يستمروا فيها، قد قلب كيان المجتمع، أو التجمعات اليهودية في فلسطين رأساً على عقب، فمشاعر الهلع والقلق والخوف هي التي تسيطر على جميع اليهود في فلسطين، «وقد أكد أحد المراسلين الغربيين العاملين في القدس إنَّ إسرائيل تبدو الآن وكَأَنَّها تعرضت لضربة صاعقة، وذلك في إشارة منه إلى القلق الذي يسيطر على الإسرائيليين في كل مكان ويدفعهم إلى التصرف بالكثير من العصبية، وردات الفعل العشوائية. ويضيف هذا المراسل في تقرير بعث به إلى إحدى

الجرائد الغربيَّة اليومية بأن الإسرائيلي بات يسير في الشارع بخطوات قلقة خوفاً من العمليات الاستشهادية»[١٧].

صحيح أنَّ الشَّرخ قائمٌ في طبيعة التَّجمعات اليهوديَّة في فلسطين بسبب طبيعة تجميعها، والممارسات الصهيونية ذاتها، وصحيح أن الشعور بعدم الأمان قائم أيضاً في طبيعة المجتمع اليهودي في فلسطين، إلاَّ أنَّ الانتفاضة والعمليات الاستشهادية أكدت هذا الشرخ وعمقته أكثر، وصعدت شعور عدم الأمان إلى أقصى ما يمكن من الحدود. ولذلك أخفقت وسائل الإعلام والدعاية الإسرائيلية تماماً «في إقناع الإسرائيليين بأنَّ ما يجري هو حالة مؤقتة، فقد أصبح الشارع الإسرائيلي لا يصدق التقارير الأمنية الصادرة عن الجهات الحكومية، والتي تحاول استعادة الثقة المفقودة لدى الرأي العام. وتعبر هذه الحالة عن انهيار النظريات التي طالما روجت لها إسرائيل. وتحول الداخل الصهيوني إلى دائرة مغلقة؛ فالجميع فقد الثقة في قدرة الحكومة على وضع حد للعمليات الاستشهادية. وأدت هذه التطورات إلى إحداث شرخ كبير في الكيان الصهيوني بين مختلف التيارات والحركات السياسية. وتعكس الاتصالات والرسائل التي يبعث بها الإسرائيليون إلى الخارج الوضع الذي يعيشونه، فقد كتب أحد المستوطنين بأن هناك موتاً بطيئاً في إسرائيل. وقال آخر: إن العيش في المستوطنات أصبح مغامرة ومجازفة. وتساءل ثالث: إلى أين تسير إسرائيل بعد ذلك؟»[١٨].

---

(١٧) . محمد ظروف: **الانتفاضة؛ خيار المقاومة والمأزق الصهيوني** . ضمن جريدة **البعث** . العدد ١١٥١٢ . يوم الثلاثاء ٢٠٠١/٦/٥م.

(١٨) . محمد ظروف: م. س . ذاته.

وتؤكد التقارير التي يرسل بها الإعلاميون إلى مؤسساتهم الإعلامية أنَّ الهجرة المعاكسة تتزايد الآن بشكل كبير جدًّا، حتَّى إن الطرق المؤدية إلى المطار شبه مغلقة في كثير من الأحيان بسبب شدة الازدحام. وقد سجلت قبرص وحدها في الأسابيع الأخيرة رقماً قياسيًّا في عدد السياح الإسرائيليين الهاربين من إسرائيل باسم السياحة، «ويقول مصدر مسؤول في العاصمة القبرصيَّة إن عدد هؤلاء السياح تجاوز سبعين ألف سائح غصَّت بهم الجزيرة، وهم يسيرون في مجموعات، ولا يخرجون فرادى خوفاً من عمليات تلاحقهم هناك. وقال المصدر إنَّ معلومات السفارات الغربية هنا تؤكد أن أكثر من مئتي ألف إسرائيلي غادروا إسرائيل حتَّى الآن باسم السياحة، وأنَّ هذه الأعداد تتزايد باستمرار الانتفاضة والقتل الإسرائيلي اليومي للفلسطينيين وما ينتج عن ذلك من ردود أفعال. وأكد المصدر أنَّ أعداداً كبيرة من هؤلاء استأجروا بيوتاً لمدة عام توقعاً منهم لطول إقامتهم في الخارج. وقال إسرائيلي لموظف الأمن القبرصي في المطار وهو يدخل إلى قبرص: إنَّه إذا طالت هذه الحرب شهوراً أُخْرَى فإنَّ نصف سكان إسرائيل سيخرجون للسياحة!!»[١٩].

لسنا بحاجة أبداً إلى تأكيد أننا لسنا هواة قتل، ولا تدمير، وليس ذلك من شيم العرب ولا من طبائعهم أصلاً، وينبغي ألاَّ يهمنا الانطباع الذي يحمله الغرب عنا لأنَّهُم هم الذين يصوغون انطباعاتهم، وهم الذين يروجونها، مهما كانت حقيقتنا، وليست بخافية تلك الاتهامات الموجهة إلى العرب بالإرهاب

(١٩) . **معلومات عن مئتي ألف غادروا إسرائيل** . ضمن جريدة **المحرر العربي** . باريس . العدد ٢٩٧ . ١ حزيران ٢٠٠١م . ص٧.

ومعاداة حقوق الإنسان، على الرُّغم من أن مجموع ما قاموا به في هذا الإطار لا يصل إلى عُشْرِ عُشْرِ ممارسات أي دولة غربية.

إن الحقيقة التي ننطلق منها هي أننا ندافع عن أرضنا وعرضنا وكرامتنا، وليس يجوز أن يسمى هذا حقًّا لأنَّه لو كان حقًّا لجاز التنازل عنه، ولا يجوز التنازل عن ذلك، إن هذا الدفاع عن حقوقنا واجب لا يقلُّ عن أشد الواجبات إلزاماً.

والذي يساعدنا في ذلك أن عدونا ضعيف هش، على الرُّغم من كل مظاهر القوة التي يتمظهر بها، وعلى الرُّغم من كل الدعم الذي يتلقاه من معظم دول العالم، وقد بينا غير مرة أن اليهود يدركون أنَّهُم يحتلون أرضاً لها أصحابها، وفي هذا وحده ما يكفي، لأنَّ الذي يعرف أنَّه يحتل بيت غيره وأرضه لن يشعر بالأمان أبداً، وستكون حياته كلها قلق يلفه قلق. كما أنَّ من يعرف أنَّه يحتل بيت غيره أو أرضه... لن يكون لديه أي استعداد للدفاع عنه إذا كلفه هذا الدفاع جرحاً أو قطرة دم، فكيف لو شعر أنَّ حياته ستكون الثمن؟؟!!

وإلى جانب ذلك كله فإنَّ اليهود من دون البشر هم أحرص الناس على الحياة، وأكثرهم تمسكاً بها، وقد وصفهم الله عز وجل بذلك في القرآن الكريم إذ قال: {**ولتجدنهم أحرص الناس على حياة**}[٢٠]. وهذا يعني عدم استعدادهم للمغامرة بحياتهم مهما كانت النتائج المعلقة على ذلك، ولذلك تحاول إسرائيل دائماً إقناع اليهود قبل غيرهم أن حياة يهودي واحد لا تعادلها حياة العشرات والمئات وربَّما الآلاف من غير اليهود.

(٢٠) . القرآن الكريم . سورة البقرة . الآية ٩٦.

هذا هو الدرس الذي يدركه العرب تماماً، ويفهمونه، وينادون به، ولكنَّ الحكومات العربية هي التي حالت دون ذلك منذ ما قبل تسليم فلسطين لليهود، وإلى الآن. والأسف الشديد هو أنَّ الدول الأجنبية لا تعترض على التَّظاهرات الاحتجاجية على الكيان الصهيوني، في حين أن الحكومات العربية تستخدم الغازات المسيلة للدُّموع، والهروات، ورُبَّما المدافع والصَّواريخ لتفريق تظاهرات العرب ضد ممارسات الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة.

■ ◆ ■

الفصل الرابع

استثنائيَّة المفاوضات العربيَّة الإسرائيليَّة

على الرُّغم من انقسام العالم، سحابة القرن المنصرم، إلى تكتُّلين رئيسين التفَّ حولهما العالم جلُّه، وعلى الرُّغم من خطورة ذلك الصِّراع وعظمته وأَهمِّيَّته العالميَّة فقد ظلَّت مشكلة الصِّراع العربي الإسرائيلي بؤرة التَّوتر الأَكثر بروزاً في العالم كلِّه.

لم يشهد التَّاريخ أَبداً أَنَّ أَصحاب دينٍ أَو طائفةٍ دينيَّةٍ تنادوا ... من أُممهم وقوميَّاتهم ليقيموا دولةً أَو أُمَّةً أَو قوميَّة ... خارج بلدانهم وأَوطانهم الأَصليَّة وعلى أَرض شعبٍ آخر له هويته وتراثه وتاريخه.

إن كنَّا قد نفينا في غير هذا الموضع افتراق مفاوضات السَّلام العربيَّة الإسرائيليَّة عن سواها من المفاوضات فإنَّما اتَّجه قصدنا من هذا النَّفي إلى مبدأ التَّفاوض بحدِّ ذاته. هذا المبدأ الذي يقوم على حقيقة أساسيَّةٍ واحدةٍ، هي أنَّ التَّفاوض باللسان لا يختلف عن التَّفاوض بالسِّلاح، وصاحب السِّلاح الأقوى هو الأقدر على فرض شروطه ومتطلَّباته ومصالحه في ساحة المعركة، وعلى طاولة المفاوضات في آنٍ واحدٍ، وبالقوَّة ذاتها.

قد تكون هناك بعض الاستثناءات أو الشُّذوذ عن هذه القاعدة، وهذا أمر ممكن، بل مؤكَّد، لأنَّ ضرورة وجود الاستثناء لا تقلُّ عن ضرورةِ وجودِ القاعدة، ولكن لا يعني أبداً أنَّ الاستثناء ينفي القاعدة، ولا أنه من الممكن أن ينفيها، فالاستثناء بحد ذاته تأكيد للقاعدة.

لا يستطيع أَحدٌ إنكار أَنَّ التَّفاوض أَيًّا كان نوعه، أو حقله، إنَّما هو مواجهة مباشرة بين فريقين؛ المبادرة والبتُّ فيها للأَقوى، **فكلَّما اتَّسعت الهُوى بين المتفاوضين كان الحسم فيها للأَقوى من غير منازع**، وكلَّما تقاربت كفَّتا ميزان تعقَّدت الأُمور أَكثر، وربَّما صَعُب إيجاد الحلِّ الوسط، أَو الحلِّ الذي

يمكن يُرضي الطَّرفين. وأيُّ تراض في ظلِّ عدم تحقيق العدالة الَّتي يراها أحد الطرفين عدالة، ليس إلاَّ هدنةً مؤقَّتةً، أو حرباً مع وقف التَّنفيذ.

هذا ما عنيناه من نفي افتراق المفاوضات العربيَّة الإسرائيليَّة عن غيرها من المفاوضات. ولكنَّ إمعان النَّظر أَكثر، والتَّدقيق في المفاوضات، وأَساسها، ودوافعها، وطبيعة الفرقين... تجلو لنا كثيراً من الخصائص الَّتي تجعل من هذه المفاوضات حالة استثنائيَّة، وربَّما تكون هي الوحيدة في التَّاريخ التي اتَّسمت بما اتَّسمت به من خصائص وظروف ومعطيات.

على الرُّغم من انقسام العالم سحابة معظم القرن المنصرم إلى تكتُّلين رئيسين متصارعين التفَّ حولهما العالم جلَّه، وعلى الرُّغم من خطورة ذلك الصِّراع، وعظمته، وأَهمِّيَّة العالميَّة[٢١]، فقد ظلَّت مشكلة الصِّراع العربي الإسرائيلي بؤرة التَّوتُّر الأَكثر بروزاً في العالم، متمثِّلة بما سمِّي المشكلة الشَّرق أَوسطيَّة، أَو مشكلة الشَّرق الأَوسط[٢٢]، الَّتي استقطبت ـ منذ نشأتها ـ الرَّأي العام العالمي، وربَّما أَكثر من الحرب الباردة.

وقد ظلَّت محوراً مركزيًّا من محاور الاهتمام العالمي؛ شرقيَّه وغربيَّه، وأَدلِّة ذلك أَكثر من أَن تعدَّ أو تحصى، وحسبنا أَنَّ غالبيَّة قرارات مجلس الأَمن الدُّولي

(٢١) ـ مما راج إثر انهيار الاتحاد السوفيتي، ولا سيَّما مع أواخر القرن المنصرم، أن الحرب الباردة كلها، بين قطبي العالم؛ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، والصراع، والقمم، وكل ما جرى في هذا السياق... لم تكن إلاَّ تمثيليات مرسومة. ولكن، وعلى الرُّغم من وجود بعض القرائن التي تؤكد هذا الظن، فإنَّ ذلك لا ينفي الخطورة والأهمية التي ترتبت على هذه التمثيلية.

(٢٢) ـ لعله من الضرورة بمكان أن نشير هنا إلى تسمية (الشرق الأوسط)، تسمية ملغومة، أريد بها إسقاط صفة العروبة عن هذه البقة الجغرافية من أجل إدراج الكيان الصهيوني فيها وَكَأَنَّهُ دولة بين هذه دول المنطقة. ومن المؤسف أن الإعلام العربي لهث وراء هذا التعبير وكرسه تحقيقاً للرغبة الغربي.

وأكثر من ثلث استخدامات حقِّ النَّقض (الفيتو) كانت تصبُّ في معين هذه المشكلة، ومن أجل حماية إسرائيل أو عدم إدانتها تحديداً. وإلى جانب ذلك احتلال هذه المشكلة مساحة مهمَّة ـ إن لم تكن صداريَّة ـ من اهتمامات وسائل الإعلام العالميَّة المختلفة طيلة ما يقارب النَّصف قرن. هذا من دون غضِّ النَّظر عن المساعي والاهتمامات الرَّئيسة لجلِّ دول العالم؛ الفاعلة والمنفعلة في النِّظام السِّياسي العالمي لممارسة دورها في هذه المشكلة.

الحقُّ أنَّه لا يمكننا نكران أَهمِّيَّة الوقوف على هذه الأَسباب، وهي في معظمها في غنًى عن التَّعريف أَو التَّذكير بها، يدركها أَقلُّ النَّاس فقهاً في السِّياسة، ولكن قبل محاولة التَّلميح أَو التَّصريح بشيء من ذلك يجدر بنا الانطلاق من هذه النُّقطة لجلو أَوَّل معالم افتراق المفاوضات العربيَّة الإسرائيليَّة وأكثرها أهميَّة عن سواها من المفاوضات.

إنَّ هذا **الاهتمام العالمي هو بحدِّ ذاته أَبرز معالم افتراق المفاوضات العربيَّة الإسرائيليَّة عن غيرها من المفاوضات.** صحيح أَنَّ مساعي الوسطاء؛ جواراً وأَصدقاء ... بين المتحاربين أَو المتخالفين هي نوع من الاهتمام، وببعض المبالغة هي ضَربٌ من الضَّغط، إلا أَنَّ التَّاريخ لم يشهد ضغوطاً وتدخُّلات بين المتنازعين كتلك التي شهدتها المشكلة الفلسطينية، أو الصراع العربي الإسرائيلي المسمى بمشكلة (الشَّرق الأَوسط)، وعصرنا الرَّاهن المنتبج ببؤر التَّوتر والنِّزاع والصِّراع في مختلف الميادين خير شاهد ودليل على ذلك. **ودون أَيِّ تساؤل لن نجد محاولات لفرض السَّلام أَو الاستقرار أَو الصُّلح كما حدث في مشكلتنا.**

والمشكلة العظمى في ذلك هي أنَّ إرادات التَّدخُّل والضَّغط هذه سلبيَّة الفعل؛ إنَّها تريد السَّلام والاستقرار فعلاً كما يبدو أَو تحاول أَن تُبدي، ولكنَّها لا تريد التَّدخُّل لإحقاق الحق، وأَقلُّه في تطبيق قرارات الشَّرعيَّة الدُّوليَّة، **كلُّ ما تريده هو أَن تعيش إسرائيل** . وجيرانها على حدِّ تعبيرهم . **بأَمان واستقرار،** ولكن كيف؟ هذا ما لم يكن واضحاً ولم يُرد له الوضوح. الكلُّ يتحدَّث عن حلِّ النِّزاع العربي الإسرائيلي **ولكن كيف؟** هذا أَيضاً ما لم تتدخَّل الإرادات الدُّوليَّة الفاعلة لإرسائه على النَّحو الأَفضل.

لقد تُرك كلُّ شيء لمنطق التَّفاوض التَّاريخي ومبدأه؛ الذي يتيح للأَقوى فرض إرادته، وهذا ما نحن مغلبون فيه الآن شئنا أَم أَبينا في ظروفنا الحالية التي نعيشها، لأَنَّنا على هامش القوَّة وعلى هامش الفعل التَّاريخي؛ نعتزُّ بتراثنا وأَسلافنا وإنجازاتهم المذهلة ... ولكن **ما الذي يسوِّغ لنا اليوم أَن نعتزَّ بحاضرنا** ونحن على هامش الهامش ؟! نعم نحن أَصحاب الحق، ولكن **لأَنَّنا على الهامش فإنَّ حقوقنا على هامش أَولويَّات الأَقوياء.**

أَمَّا الافتراق الجوهري في هذه المفاوضات فهو ماثلٌ في طبيعة المتفاوضين؛ المفاوضات كلُّها . عبر التَّاريخ . كانت من طبائع متماثلة من حيث المبدأ، بمعنى أَنَّ الأَطراف دائماً ذوو كيانات متمِّيزة ومتمايزة، فهي إمَّا بين غازٍ ومغزوٍّ، أَو بين غاصب ومغصوب. بين قويٍّ وضعيف، بين طامع ومطموع فيه .... ولكن أَيًّا من الطَّرفين كان ذا كيان تاريخي؛ السُّومريون، البابليون، الفراعنة، الهكسوس، الهنود، الفرس، الإغريق، الخلافة الإسلاميَّة ...ولكن لم يحدث أَبداً أَن أُمَّةً أَو قوميَّةً قامت على النَّمط الذي قامت عليه لإسرائيل.

صحيح أَنَّ هناك أَكثر من أُمَّةٍ انطوت تحت لواء الدِّين أَو حملت صبغة دينيَّة؛ كالدَّولة الإسلاميَّة والإمبراطوريَّة الجرمانيَّة المقدَّسة ... إلاَّ أَنَّ مقوِّمات هذه الدُّول أَو الأُمم كانت شعوباً لها شخصيَّاتها وأَراضيها وتراثها وتاريخها ... ولم يحدث أَبداً أَنَّ مسلمين أَو طائفة إسلاميَّة، ولا مسيحيين أَو طائفة مسيحيَّة، ولا بوذيين ولا كنفوشيوسيين تنادوا من أُممهم وقوميَّاتهم ليقيموا دولةً أَو أُمَّةً أَو قوميَّةً خارج بلدانهم وأَوطانهم الأَصليَّة وعلى أَرض شعبٍ آخر له هويَّته وتاريخه، بل الأَرض والشَّعب ـ هنا ـ جزء من أَرض واحدة، وشعب أُمَّةٍ كبيرة لها تاريخها وتراثها ودورها الحضاري.

بل دعونا نتساءل: ما الذي يمكن أن يحدث لو أنَّ كلَّ دولة راحت تطالب بجمع كل الذين يدينون بدينها من كل دول العالم، وسعت إلى ذلك، أو فرضت عليهم الالتزام به، أو الالتزام بخدمتها والإخلاص لها كما طالبت الحركة الصهيونية وتطالب؟ لا شكَّ في أنَّ العالم سيكونُ أمامَ مشكلةٍ، ولكِنَّها مشكلةٌ سهلةٌ إلى حدٍّ ما لأنَّ ثمَّة دولاً لها كياناتها التاريخية تقوم بهذه المطالبة والممارسة. ولكن ماذا لو أنَّ أهل كلِّ دين تنادوا بالعودة إلى المهد الذي نشأ فيه دينهم، بغض النظر عن وجود أصحاب لهذه الأرض أم لا؟ ما الذي يمكن أن يحدث؟!! سيكون العالم أمام مشكلة كبيرة، لأنَّ العالم كله سيعيش في نحو أربع أو خمس دول، وستكون فلسطين ذاتها ووحدها مجمعاً لمسيحي الأرض ويهودها!!! أي إنَّ فلسطين هذه التي بالكاد تتسع للملايين القليلة ستكون مسكنا أو موطناً لأكثر من ربع سكان الأرض!!! كيف سيعيشون؟ وكيف يمكن لذلك أن يكون؟

إنَّ في هذا وحده ما يكفي لتأكيد تهافت الدعوة الصهيونية في إقامة الوطن القومي لليهود، لأنَّها لا تستند أبداً إلى أيٍّ مما يمكن أن يقبله أي منطق.

قد يتنطَّع متشدِّق فيقول: أَليس مثل هذا ما حدث في أَمريكا، إذ هاجر إليها أناس من مختلف الأمم والأديان؟

لن نكون متسرِّعين إذا ما بادرنا بالنَّفي، لأَنَّ الفرق شاسع بينهما، بل لا مجال للمقارنة، لأَنَّ القارَّة الأَمريكيَّة بشقَّيها كانت شبه خالية . قبل اكتشافها . من الحضارة والتَّاريخ، وحتَّى من الشَّعب بمعنى من المعاني، وكذلك من مقوِّمات الأُمَّة والدَّولة ... ويضاف إلى ذلك أَنَّها في البداية احتُلَّت من دول كبرى ومع تتالي الهجرات أَصبحت خليطاً من مختلف الشُّعوب والأَديان، ولا ينكر الأَمريكيون أَبداً أَنَّهم شعبٌ خليط هجين، من الممكن أَن ينجح فيهم أَيُّ واحدٍ مهما كان أَصله. وهم يشعرون بذلك، ويعلنون أَنَّهُم شعب بلا تاريخ، بل أكثر من ذلك إنَّهُم حتَّى الآن لا يقرون بأنهم أمة، وكثير من الباحثين والمفكرين لا يجيزون أن يطلق على الشُّعوب التي تعيش في أمريكا لفظ أمة.

بل إنَّ الافتراق الأكثر خطورةً هو المفارقة الصارخة في طبيعة هذا الكيان المسمى إسرائيل، وفي أصل نشأته، وفي مدى اعتراف اليهود أنفسهم بهذا الكيان.

إنَّ تتبع سيرورة التمهيد لهذا الكيان، وكيفيات تهجير اليهود إلى فلسطين، وممارسات المنظمات الصهيونية وإسرائيل، ومواقف الشخصيات اليهودية الواعية من هذا الكيان بحد ذاته بوصفه ممثلاً لليهود كما يزعمون، ومن الحركة الصهيونية التي تقف وراء هذا الكيان... وغير ذلك مما يندرج في سياقه، يبين لنا أن الكيان الصهيوني المسمى إسرائيل لا علاقة له باليهود بما هم أناس متدينون أو غير

متدينين، وغالبية كبرى من اليهود أنفسهم لا يعترفون بهذا الكيان ويرفضون أن يكون ممثلاً لليهود، ويرفضون أن تكون الصهيونية ممثلاً لليهود أو معبراً عنهم.

إن أفضل ما يفضح حقيقة هذا الكيان هو أول قانون أصدرته إسرائيل، الذي صدر في عام ١٩٥٠م تحت اسم قانون العودة. إن مناقشة هذا القانون بمواده، وفق أي مستوى من مستويات المناقشة، وضمن أي إطار مرجعي، تكشف عن أنَّ هذا الكيان لا يمكن أن يكون دولة، وإنَّما هو مجرد (عصابة)، ينتمي إليها كلُّ من يرغب في ذلك لا كل من تتحقق فيه شروط الانتماء. فهو يعطي لأيِّ يهودي في العالم الحقَّ في المجيء إلى إسرائيل، والحصول على الجنسية. ولذلك كان من الطبيعي «أن يذهب الباحثون إلى أنَّ تعريف اليهودي في نظر قانون العودة هو تعريف ذو صبغة دينية، ولكن يعترض على مثل هذا التعريف، فيما يقرر بعض الباحثين الصهيونيين أنفسهم، بأن غالبية الصهيونيين عم من الملحدين، وهم مع ذلك يعدون من اليهود. والواقع أنَّه يعدُّ يهوديًّا، طبقاً لهذا القانون، كلُّ من يعدُّ نفسه في عداد اليهود. فتعريف اليهودي هو إذن تعريف شخصي، وذلك هو ما اعترف به النائب العام الإسرائيلي غداة الموافقة على هذا القانون: (إنَّهُ لا يوجد ـ كما قال ـ تعريف قانوني لكلمة يهودي، وإننا سنعدُّ من اليهود كل من يعدُّ نفسه يهوديًّا)»[٢٣]. فأي دولة أو كيان هو الذي يمكن أن يقوم على مثل هذا الأساس؟؟!

يبدو جيداً هنا أن الأساس الديني ذاته الذي تقوم عليه إسرائيل كما تزعم الحركة إنَّما هو أساس واه إن جاز أن يكون أساساً. فليست الغاية من هذا

(٢٣) ـ مصطفى عبد العزيز: **إسرائيل ويهود العالم؛ دراسة سياسية وقانونية** ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت ـ ١٩٦٩م ـ ص ٧٣.

الكيان دينية أبداً، وإنَّما جعلت الدين ستاراً لجملة من الأغراض والأطماع والمصالح، التي إن كان لليهود نصيب فيها فإنَّهُم ليسوا هم الغاية الحقيقية من إنشاء هذا الكيان، وليست مصالحهم هي المأخوذة بعين النظر من تأسيس هذا الكيان.

ولا عجب لذلك أن نجد كثيراً، وكثيراً جدًّا من اليهود أنفسهم، في مختلف بقاع العالم، يرفضون هذا الكيان ويتبرؤون منه، «ويعارضون الأساليب التي تلجأ إليها إسرائيل والمنظمات الصهيونية لعزلهم عن مجتمعاتهم وأوطانهم. ومن ذلك مثلاً أنَّه عندما قام **بنجوريون** بزيارة الدنمرك عام ١٩٦٢م، وحث يهود الدول الاسكندنافية على الهجرة إلى إسرائيل، ردَّ عليه **أوتو ليفيس** رئيس الجالية اليهودية في كوبنهاجن، بقوله: إننا نحن اليهود الدنمركيين لا نريد مكاناً أسعد لنعيش فيه أكثر من الدنمرك، فليس لدينا عقدة نقص، بل على العكس نشعر أننا جزء أصيل من الشعب الدنمركي، فنحن دنمركيون أولاً، ثمَّ يهود، ولم يدخلنا ذلك في أي صراع»[٢٤]. ولم يكن موقف **فيل ماركوس** رئيس حاخمي الدنمرك أقل استنكاراً، ولا ألين شكيمة، فقد «طالب **بنجوريون** بأن يكون حذراً في تصريحاته، وأعلن: إنَّ أيَّ فرد مهما علا مركزه ومن أيِّ مكان جاء، ليس له الحقُّ أو السلطة ليغير ولو مثقال ذرَّة من الوضع الذي ظلَّ عليه اليهود الدنمركيون

(٢٤) . مصطفى عبد العزيز: **إسرائيل ويهود العالم**. ص ١٠٠. ١٠١. وثمة أقوال مماثلة وتصريحات أُخرَى في:

- Lessing J. Rosenwald: Nationalism Vs. Assimilation. American Councial for Judaism. Chicago Chapter. Chicago. Illinois. October 16, 1962.

لسنين عديدة، والذي عاشوا فيه سعداء جنباً إلى جنب مع باقي إخوانهم الدنمركيين»[٢٥].

ولم يختلف الأمر كثيراً في إنجلترة، فقد كتب **بازيل هنريك** قائلاً: «لم أشعر أنني أكثر من رجل إنجليزي، وكلُّ ولائي السياسي الذي افتخر به بقوة هو للأرض التي ولدت عليها، فأنا لم اشعر بأنَّ الاختلاف عميق بين ديني ودين زملائي من المواطنين، وهو على أي حال ليس أكبر من الاختلاف القائم بين المواطنين الإنجليز من طائفة الروم الكاثوليك والمنهجيين... ولا يوجد تناقض بين أن أكون إنجليزيًّا كاملاً ويهوديًّا كاملاً في الوقت ذاته، فالاختلاف الوحيد بين المواطن الإنجليزي اليهودي وزميله المسيحي هو أن الأول يتعبد في كنيس والثاني يتعبد في كنيسة. واليهودي الإنجليزي وغيره ممن يعيشون في أيِّ بلد آخر، ليس بحاجة لأَنَّ يشرك إسرائيل في ولائه، فالبلد الذي ينتمي إليه يجب أن يعطيه، من دون سواه، كل ولائه ومحبته، ومصلحة هذا البلد يجب أن تأتي في المقدمة»[٢٦].

أما اليهود الأمريكيون، فلعلهم الأكثر احتجاجاً واستنكاراً، على الأقل مع مطالع تأسيس الدولة اليهودية، فقد «علق **لسينج روزنوالد**، رئيس المجلس الأمريكي لليهودية، على تصريحات **بنجوروين** بقوله: إنَّ من يستمعون إلى نصيحة **بنجوروين** بالهجرة إلى إسرائيل سيصبح لديهم فرصة أكبر لفقدان يهوديتهم في (القومية الإسرائيليَّة) أكثر مما لو ظلوا في أمريكا وتعرضوا للذوبان[٢٧].

---

(25). مصطفى عبد العزيز: **إسرائيل ويهود العالم**. ص ١٠١.

(26). م. س. ص١٥٦.

(٢٧). - Lessing J. Rosenwald: Ibid. P. 2.

كما فنَّد **إلمر برجر** الحاخام الأمريكي مخاطر الاندماج التي تزعم إسرائيل والصهيونية أنَّها تتهدد الكيان اليهودي في العالم بقوله: يخشى بعضهم من أننا لن نستطيع أن نكون أمريكيين إذا احتفظنا بنزعتنا اليهودية، ينتاب بعضهم الآخر الخوف من أننا سنفقد هذه النزعة إذا كنا أمريكيين مئة بالمئة، والواقع أنَّه ليس هناك أيُّ أساس يستند إليه أيٌّ من هذين الاعتقادين، فالذين يعتقدون ذلك أخفقوا في تذكر أن الطبيعة اليهودية بوصفها ديانة ذات صفة عالميَّة مناسبة للزمان والمكان. وليس الخطر هو أننا سنفقد نزعتنا اليهوديَّة، وإنَّما الخطر يكمن في أننا سنفقد الطابع الأمريكي، بالأخذ بهذا النوع من المذاهب الانفصالية اللادينية التي انبثقت من نظريات تتعلق بالجنس اليهودي أو القومية اليهوديَّة، أو الطائفة الدنيويَّة»[٢٨].

صحيحٌ أن موقف **إلمر برجر** هذا أكثر المواقف السابقة تعبيراً عن حقيقة الكيان الصهيوني المسمى إسرائيل، من حيث أنَّه حركة لا دينية، تعبر عن مصالح ومطامع لا علاقة لها باليهود، ولا بالدين اليهودي، إلاَّ أن المواقف كلها تنطوي على هذه الحقيقة، وتعبر عنها بسويات مختلفة، ومن أفصحها تعبيراً عن ذلك ما أعلنه **ليلينتال** للصحفيين بسبب تجريده من يهوديته: «يمكن تجريدي من الصهيونية، وكلِّي أمل أنِّي أستحقُّ ذلك، لٰكنَّ ليس هناك غير الرَّبِّ يستطيع تجريدي من الدين، فالصهيونية ليست اليهودية، واليهودية ليست الصهيونيَّة، ولأجل أن يكون المرء يهوديًّا

(28) . مصطفى عبد العزيز: **إسرائيل ويهود العالم**. ص١٠٢. نقلا عن:
- Elmer Berger: Judaism or Jewish Nationalism. P. 93.

جيداً لا يحتاج في أيِّ حال من الأحوال للركوع لهيكل إسرائيل أو الصهيونيَّة»[٢٩].

وقد لخص لخصَّ **وليام زوكرمان**، اليهودي الأمريكي، موقف اليهود الأمريكيين من الحقيقة، وكشف عن حقيقة جديدة تبين كيف أنَّهُم لم يكونوا ينظروا إلى (إسرائيل) إلاَّ على أنَّها لعبة، أو تسلية، فقال: «إنَّ إسرائيل كانت بالنسبة لليهود الأمريكيين في البداية موضوع فخر، أو شيئاً للزينة، وكانوا يدفعون الأموال لها بسخاء، ولكنَّهُم لم يقبلوا أن تكون إسرائيل وطنهم الخاص، ولا حتَّى وطن أطفالهم»[٣٠].

ومن ذلك نجد أَنَّ **افتراق المفاوضات العربيَّة الإسرائيليَّة عن غيرها** من المفاوضات . من حيث هذا العنصر . **يَمْثُل في عدَّة نقاط:**

أَوَّلاً: الاعتراف بوجود قوميَّةٍ جديدة هي القوميَّة اليهوديَّة متمثِّلة بإسرائيل. على الرُّغم من أنَّ كل العناصر التي تقوم عليها لا أساس لها من الصِّحة أبداً، وتتناقض مع كلِّ القوانين والوثائق والشرائع، وفوق كلِّ ذلك تتناقض مع ذاتها، ولا تحظى بإجماع اليهود ذاتهم في هذه الفكرة، بل إنَّ عدداً كبيراً جدًّا من اليهود يرفضون هذه القومية وهذا الكيان الذي يدَّعي تمثيلها، ويعدون أنفسهم أبرياء منه ومن ممارساته وأفكاره، حتَّى وإن لم يصرحوا بذلك كما صرح الكثيرون، وأكبر دليل على ذلك هو أنَّ أكثر من ثلثي اليهود يعيشون خارج هذا الكيان، ويرفضون العيش فيه، أو حتَّى مجرد المجيء

(29) . سيرغي سيدوف: **الصهيونية ونهج الإرهاب** . ص٣١.

(30) . مصطفى عبد العزيز: **إسرائيل ويهود العالم** . ص١٢٧.

إليه، وهذا يعني أنَّ الأغلبية الساحقة من اليهود ضدَّ هذا الكيان وضدَّ هذه القوميَّة.

قد يعترض بعضهم هنا بأنَّ عدم مجيء اليهود إلى إسرائيل لا يعني أنَّهُم ضدَّ هذا الكيان.

قد يكون هذا صحيحاً. ولكن كون هؤلاء اليهود ليسوا ضدَّ إسرائيل لا يعني أنَّهُم معها، وحَتَّى وإن ناصروها فإن ذلك لا يعني أنَّهُم مقتنعون بها، وعدم القناعة هذا وحده يكفي لإسقاط الشرعية عن فكرة القومية هذه إن افترضنا أنَّها نجت من عشرات التناقضات الأُخْرَى. والذي يؤكد عدم اقتناع هؤلاء اليهود بفكرة القومية اليهودية، والكيان الصهيوني، هو الممارسات الإرهابية الصهيونية ضدَّ اليهود أنفسهم، ومحاصرتهم، وملاحقتهم، وإكراههم على تأييد إسرائيل ماديًّا ومعنويًّا[٣١].

ثانياً: الإقرار بأَنَّ فلسطين هي أَرض هذه القوميَّة. وهذه مفارقة وتناقض جديد يضاف إلى كلِّ التناقضات والمفارقات السابقة، والمشكلة هنا ليست في إضافة تناقض جديد ومفارقة جديدة وحسب، بل في جعل هذا التناقض حجة ومخرجاً للتناقضات السابقة؛ أي محاولة لإثبات الباطل بالباطل. وعلى الرُّغم من كل ذلك فإن المطلوب من العرب أن يقروا بأن فلسطين هي أرض هذا الكيان، وأن يتفاوضوا مع الكيان الصهيوني كي يتنازلوا عن فلسطين.

ثالثاً: إنَّ هذا الاعتراف والإقرار هو من العرب الذين هم أَصحاب هذه الأَرض وأَهل الشَّعب الذي عليه أَيضا التَّنازل عن أَرضه ونسيان أَنَّها كانت له

(٣١) . ذكرنا في هذا الكتاب بعض نماذج لهذه الممارسات، وَثَمَّة الكثير من الكتب التي تكشف عن هذه الحقيقة، حتَّى ليكاد أيُّ كتاب يتحدث عن الصهيونية لا يخلو من بعض النماذج.

يوماً، والمقابل هو السَّلام؛ سلام الكيان الصهيوني لا سلام العرب الذين عليهم التنازل عن الأرض. وعلى الرُّغم من ذلك فإن على العرب أن يفاوضوا إسرائيل لضمان سلامتها.

رابعاً: وبعد ذلك كله يجب على العرب هضم هذا الكيان جغرافيَّاً والتَّعامل معه على أنَّه جزء من المنطقة لا يفترق عن غيره.

قد يبدو ذلك ضرباً من الخيال أَو شبه المحال ولكنَّه الواقع؛ أَي الذي وقع، ولم نخطئ إذ استخدمنا الفعل الماضي لما لم يتمَّ بعد لأَنَّ المؤشرات الموضوعيَّة والقرائن المرافقة تقودنا إلى ذلك بصورة مباشرة، فالاعتراف قد وقع من جلِّ العرب، والتَّنازل تمَّ، والإقرار بينهما، ومساعي التَّطبيع تسير على قدمٍ وساق.

وأَخيراً ربَّما لا يكون افتراقاً استثنائيَّاً أَنَّ هذه المفاوضات يُراد لها أَن تكون شاملة لجميع المناحي والميادين: العسكريَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والثَّقافيَّة ... ليس مع الفلسطينيين فَقَطْ، ولا مع دول الطوق وحسب، بل مع دول الوطن العربي كلِّها، **فهل يتمُّ ذلك ويكتمل؟** هذا هو السُّؤال الأَهمُّ والأَخطر.

إنَّ عدم وجود ما يلزم أي دولة عربية بإقامة علاقات مع أي دولة في العالم، وكذلك عدم وجود ما يلزم إسرائيل بذلك، يعني أنَّ اشتراط إسرائيل ومساعيها لإقامة هذه العلاقات مع الدول العربية ليس في حدِّ ذاته إلاَّ اعترافاً صريحاً بأنَّ مشكلة الصهاينة في فلسطين ليست مع الفلسطينيين وحسب، وإنَّما هي مع الشعب العربي كله، وهذا في الوقت ذاته اعتراف بوحدة المصير العربي.

ومما يعنيه هذا أيضاً هو أن إسرائيل تدرك أن مفاوضاتها مع دول الطوق لا تحل مشكلتها، وأن السلام الذي فرض عليها وعلى العرب إنَّما هو سلام استثنائي، لا يمكن أن يطول عمره ما لم تنتزع اعترافاً من كل العرب بأحقيتها في الوجود على الأرض العربية. بل إن إسرائيل قد قامت على أساس انتزاع تنازل العرب عن هذه الأرض. وهذا ما أعلنه **ديفيد بنجوريون** عندما قال: «يجب أن تسعى إسرائيل بكل الوسائل الممكنة، بما فيها العنف والإرهاب والخداع لكي تجعل الطرف الآخر يتنازل عن مطلبه بهذه الأرض».

الفصل الخامس

ماذا تريد إسرائيل من السلام؟

لن أَكون متسرِّعاً إذا قلت إنَّ السُّوق (الشَّرق أَوسطيَّة) التي تكافح إسرائيل وتنافح من أَجلها ليست هي الغاية الأَكثر أهميَّة، ولا تحتل من سلَّم أَولويَّاتها إلا درجة هامشيَّة.

تدركُ إسرائيلُ أَنَّها كيانٌ غريبٌ عن المنطقة ومصطنعٌ فيها، وهي تدرك تماماً أَيضاً أَنَّها . إلى جانب ما دفعته لقاء ذلك. ستظلُّ تدفع وتدفع، وأَبهظ ما تدفعه هو القلق والرُّعب الدَّائمين طالما أَنَّ حالةَ اللاحرب واللاسلم هي القائمة.

ما أَكثر ما قيل في الآونة الأَخيرة عن السُّوق الشَّرق أَوسطيَّة والنِّظام الشَّرق أَوسطي والتَّعاون الاقتصادي بين العرب وإسرائيل. والذي قيل متناقض لأَنَّ القائلين فريقان؛ فريقٌ يناصر هذه الطُّروحات ويهلِّل لها وفريقٌ يعارضها.

المؤيِّدون . حكماً . هم إسرائيل ومن وراءها؛ من الغرب الدَّاعمون ومن الشَّرق السَّائرون والسَّائرون في ركابها. ومن غرائب الدَّهر، ورُبَّما الدُّهور، أن يكون الملك **الحسن الثاني** رئيس لجنة القدس، هو أوَّل من يطرح شعار: تكامل العقل اليهودي والمال العربي، هذا الشِّعار الذي يزدري العرب ويحتقرهم بما لم يكن مثله في التَّاريخ قط، بل إنَّ الصهاينة أنفسهم لم يجرؤوا قبل ذلك أبداً على طرح مثل هذا الشعار لشدة ما فيه من احتقار وازدراء، فقد كانت شعارتهم، أو شعارت بعضهم تدعو إلى تكامل العقل العربي والمال اليهودي، وبعد ذلك تكامل العقلين العربي واليهودي مع المال العربي واليهودي. وبمأثرة **الحسن الثاني** هذه حكم على العرب بأنَّهُم مُجَرَّدونَ من الإنسانيَّة، وعوملوا معاملة قرود تلهو بالدَّراهم، أو بهائم تأكل الورد بدل أن تشمه.

يتذرَّع أنصار هذا الفريق، وأنصاره من العرب لا يتعدون الشذوذ الذي يؤكد القاعدة، بأَنَّ السَّلام آتٍ، وهذه السُّوق تعبير عن النَّوايا الحسنة، وترسيخ لمسيرة السَّلام.

أَمَّا فريق المعارضة؛ معارضة الشَّرق أوسطيَّة، وهو من العالمين العربي والإسلامي، فيحتجُّ بأَنَّ إسرائيل تنوي الهيمنة على الاقتصاد العربي، والتَّحكُّم بأَرزاق العرب وأَقواتهم. وتريد أَن تكون وصيًّا على المنطقة، متفرِّدةً في التَّحكُّم فيها، وغير ذلك مما يندرج في السياق من الأفكار.

فهل السُّوق الشَّرق أَوسطيَّة أَو النِّظام الشَّرق أَوسطي هو غاية إسرائيل من السَّلام؟

ومن ثمَّ هل تريد إسرائيل فعلاً تجويع العرب؟!

لن أَكون متسرِّعاً إذا قلت إنَّ السُّوق الشَّرق أَوسطيَّة هذه التي تكافح إسرائيل وتنافح من أَجلها ليست هي الغاية الأكثر أهميَّة أبداً، ورُبَّما لا تحتلُّ من سلَّم أَولويَّاتها إلا درجة هامشيَّة.

قد يستغرب الكثيرون هذا الكلام، أَو الطَّرح، ولكنَّه الواقع فعلاً، فماذا تريد إسرائيل من السَّلام إذن؟!

واقع المفاوضات؛ ما جرى ويجري، يبدي أَنَّ إسرائيل متمسِّكة بالأَرض، وكأَنَّها مصرَّة على شعارها اللاحق على تأَسيسها «حدود إسرائيل من الفرات إلى النِّيل» وهذا ما يذكِّرنا بقول **تيودور هرتزل** عندما **سُئل** ـ قبل تأَسيس إسرائيل ـ

عن الحدود التي يريدها أَو يتوقَّعها فقال: لا أَعرف، ولكن أَظنُّها حدوداً طبيعيَّة. والأَمر ذاته أَيضاً أُعلن على لسان **موشي ديَّان** . ولكن بحدِّيَّة أَشد عندما قال: **حدود إسرائيل حيث يقف آخر جندي إسرائيلي.** فهل هذا ما تريده إسرائيل فعلاً ؟

يبدو هذا البديل أَكثر إقناعاً إذا ما ربطناه بالسُّلوكات الإسرائيليَّة والمعطيات المعلنة من المفاوضات. ولكنَّنا ـ في الظُّروف الرَّاهنة ـ لا نقتنع بذلك كثيراً، ولا نعتقد أَنَّه غرض إسرائيل الآن، وعلى الأَقل إذا ما أَخذنا مفهوم الدَّولة بعين النظر والحسبان. بل أَقول: إنَّ إسرائيل على أَتمِّ الاستعداد لإخلاء الأَراضي المتفاوض عليها فوراً.

ولكن أَلم نقل إنَّ مبدأ التَّفاوض هو أَنَّ الحسم بالكلام يكون بمقدار الحسم في ساحة المعركة؟! فهل يعقل أَن تتنازل إسرائيل عن أَراضٍ تحتلُّها بهذه السُّهولة وهذا اليسر، لتقدِّمها هديَّةً على طبق من ذهب للعرب؟

قطعاً لا، **إنَّها تريد الثَّمن الذي لا يقلُّ عن هذه الأَرض البتة،** ولا نشكُّ في أَنه يفوقها بكثير، فما هو هذا الثَّمن ؟

تدرك إسرائيل، وقد بيَّنا ذلك وأثبتناه في أكثر من موقع في هذا الكتاب، أَنَّها كيانٌ غريبٌ عن المنطقة ومصطنع فيها اصطناعاً فاقع المفارقة والتناقض مع كل منطق، على الرُّغم من محاولات التسويغ التَّوراتيَّة والتِّلموديَّة والتَّاريخيَّة كلِّها، لأَنَّها كلُّها تستند إلى حجج واهية وادعاءات لا أصل لها ولا طائل، إلى جانب

تناقض هذه الحجج تناقضاً صارخاً مع ذاتها ومع الحقائق والوقائع التاريخيَّة. وقد قدَّمت الحركة الصِّهيونيَّة الغالي قبل الرَّخيص لتحقيق هذا الكيان، وهي تدرك تماماً أَيضاً أَنَّها ستظلُّ تدفع وتدفع لاستمرار هذا الكيان، وأَبهظ ما تدفعه هو القلق، والرُّعب، وفقدان الاطمئنان الدَّائم، حتَّى ولو لم تقم الحروب، وحتَّى لو أَعرب العرب أَنفسهم عن إفلاسهم العسكري؛ طالما أَنَّ حالة اللاحرب واللاسلم هي القائمة فإنَّ الخطر قائم، والرُّعب قادم، والعمليات الانتحاريَّة شبحٌ لا يموت ... وهذا هو مفتاح غاية إسرائيل من السَّلام.

يتناقل اليهود (ما يسمَّى في عُرف المؤمنين نبوءة دينيَّة وفي تقليد غيرهم أُسطورة) تقول: « **إنَّ قيام دولة اليهود هو بداية نهايتهم لأَنَّ هذه الدَّولة لن تدوم سوى ستَّةً وسبعين سنةً ينتهون بنهايتها** ». وهذا الاعتقاد موجودٌ عند المسلمين أَيضاً . لكن من دون ورود ذكرٍ للسِّنين . وتأسيساً على هذا الاعتقاد أُفتي اثنان أو ثلاثة من الشِّيوخ بالصُّلح مع إسرائيل، وهلَّل بعضهم لتجميع اليهود في فلسطين[٣٢]، ولقد سُئل **إسحاق رابين** ذاته . في إذاعة مونت كارلو .

(٣٢) . إن الإفتاء بجواز الصلح مع إسرائيل باطل بكل المعايير الدينية قبل غيرها، والأسباب الموجبة لبطلان هذه الفتوى كثيرة جدًّا، كل واحد منها تقريباً يمكن أن يكون سبباً كافياً لبطلان الفتوى. فمن الناحية الأولى، إذا صحَّت نبوءة أن اليهود سيجتمعون في فلسطين، وأن المسلمين مع عودة المسيح سيقضون عليهم، فإن صحَّة النبوءة ليست مسوغاً للصلح معهم على الإطلاق، بل هي موجب لعدم الصلح. وإن احتج أحدهم بأن الرسول ﷺ قد عقد صلحاً مع اليهود فإنَّ هذه الحجة باطلة أيضاً لأنَّ الرسول ﷺ عقد صلحاً مع يهود عرب يقيمون في مدينتهم لا مع محتلين غاصبين. ومن ناحية ثالثة إن جاز الصلح مع اليهود تحقيقاً

بعد تسلُّمه رئاسة الحكومة بأَيَّام عن هذا فقال: « نعم، ولكن ليس على أَيدي هؤلاء العرب ».

مهما يكن من أَمر هذا الاعتقاد فإنَّه ماثل في أَذهان اليهود، إن لم يكونوا كلَّهم فمعظمهم، والثَّمن الذي يريدونه مقابل ذلك جدٌّ يسير لدى التَّعبير عنه بالكلام: إنَّهم يريدون أَن يعيشوا ما تبقَّى لهم على هذه الأَرض في أَمان ورغد وطمأنينة وراحة بال، سيَّان صدقت هذه النُّبوءة أَم كذبت؛ فإن صدقت كسبوا ما تبقَّى لهم، وإن كذبت غَنِموا أَيضاً استمرارهم على أَحسن حال .

وحتَّى تنتهي الخلافات الدَّمويَّة ويتحقَّق لإسرائيل / اليهود ما تصبو إليه لا تجد حيلولة من دون التَّعايش، التَّشابك، التَّداخل، التَّبايع، التَّشاري ... وباختصار: من دون التَّطبيع الكامل، لأَنَّ التَّطبيع وحده الذي يكفل لها ـ على حدِّ اعتقادها ـ تقبُّل الشَّارع العربي للتعامل مع الإسرائيلي دون ضغائن، من دون ذكريات الماضي، الذي لم يمض بعد، وهو غارق في المآسي إلى أُذنيه.

وهذه هي مشكلة إسرائيل الحقيقيَّة الآن. لقد وقَّعت اتفاقيَّة السَّلام والتَّطبيع مع مصر منذ نحو عشرين عاماً؛ السَّلام تمَّ أَو يشبه أن يكون قد تمَّ، أَمَّا التَّطبيع فلم يعرفوا منه إلا ذكره، وهذا قولهم. ولذلك لا تريد إسرائيل أَن تقع في الخطأ نفسه مرَّتين؛ إنَّها تمشي نحو السَّلام بخطوات المراوحة، تقدِّم رجلاً وتؤخِّر

للنبوءة لوجب أن نعلم أن هذا التجمع هو الذي سيؤدي إلى تحقيقها، وهذا ما لا يعلمه إلاَّ الله، ومن ادعى ذلك فقد تجاوز ادعاء النبوة إلى ادعاء علم الغيب وفي كليهما شطط ليس أقل من أن يكون كفراً.

أُخرى، وكأَنَّها تريد العنب وقتل (النَّاطور) في آن معاً. إنَّها تريد السَّلام ولكنَّها لا تريد التَّسليم بما يتطلَّبه السَّلام؛ إنَّها تريد أَن تظلَّ المبادرة في يدها لا في أَيِّ يدٍ أُخرى. وهذه هي المعادلة الصَّعبة التي تشبه النُّكتة، إنَّها . بغضِّ النَّظر عن أَلاعيبها السِّياسيَّة . تقرُّ بحقوق الفلسطينيين ولكن يجب أَن يظلُّوا وأَرضهم تحت أُمرتها وسيطرتها؛ برًّا وبحراً وجوًّا، وفي نفوسهم وأفكارهم. وتقرُّ بأَنَّ الجولان لسوريا ومستعدَّة لإعادته ولكن يجب أَن تبقى قواتها فيها ولا يجوز لسوريا إدخال قواتها إلى الجولان، وعندما قبلت بالخروج منها اشترطت وضع نقاط مراقبة لأيِّ تحرك سوري، ولم تجز لأحد أن يراقبها، وكلما تخلت عن شرط اختلقت شرطاً أو عقبة جديدة... أَليس ذلك أَمراً مضحكاً ؟!

بلى، ولكن هذا هو التَّفكير الإسرائيلي، وهذا الأَمر عينه هو ما يقودنا إلى تساؤلنا الأَوَّلي وهو:

هل تريدُ إسرائيل تجويع العرب ؟

حتَّى نعرف إن كانت تريد إسرائيل تجويع العرب أم يجب أن نعرف ما الذي تريده إسرائيل فعلاً. وهل تريد السلام أم لا.

لن نُعوِّل على النزوع والأَهواء ولا على حُسن النَّوايا ولا على سوئها فالمنطق يغنينا عن ذلك. إنَّ السُّؤال الأَساسي الذي تطرحه إسرائيل على نفسها هو: ما الذي يضمن لها أَنَّ العرب بعد أَن يأخذوا الأَرض التي فاوضوا عليها أَلاَّ يتراجعوا عن كلامهم . الموقِّعون ذاتهم أَم من يخلفهم بالدُّستور أَو غيره . ويعودوا

إلى لغة النِّضال والكفاح لاستعادة ما تبقَّى من أَرضهم ؟ وهذا ما عبر عنه **آرئيل شارون** إثر تسلمه رئاسة الحكومة الإسرائيليَّة في نيسان عام ٢٠٠١م، عندما قال:

«إذا انسحبت من نابلس وسمحت للفلسطينيين برفع علمهم فوقها، فما الذي يضمن لي ألا تلحقني سكاكينهم إلى حيفا؟».

صحيحٌ أَنَّ الدَّفعة الأُولى التي قبضتها إسرائيل من الحساب هي الاعتراف بها كياناً قائماً ودولة رسمِّيَّة، وهذا ما كان يسعى إليه مؤسسو الكيان الصهيوني وعلى رأسهم **ديفيد بنجوريون** كما أشرنا في فصل سابق، إلاَّ أَنَّ ذلك غير كافٍ لطمأنينتها وراحة بالها. ولذلك نجدنا غير متَّفقين مع ما قاله أحد أنصار التطبيع وأعداء العروبة «بأَنَّ التَّاجر الشَّامي يضع التَّاجر اليهودي في جيبه، ولا يقلُّ التَّاجر الحلبي حِنكةً عن أَكبر تاجر يهودي»[٣٣]، بل لا تجوز مثل هذه المقارنة أصلاً لأنَّ المشكلة العربية الصهيونية لا تقف عند هذا الحدِّ، ولا يجوز تقزيمها لتغدو مشكلة (شطارة في التجارة)، ولا ربح في الأسواق أو خسارة، فالمشكلة أكبر من ذلك بكثير وأخطر. إنَّها صراع وجود لا صراع حدود، كما سميت فعلاً في أصل نشأتها. لأنَّ إسرائيل لا يمكن أن تقبل السلام، وهي لا تريده. وإن أرادت السلام فهي إنَّما تريده بأوصاف معينه، ولا تريد أي سلام.

(٣٣) . هذا ما كتبه حازم صاغية في جريدة **الحياة** الصادرة في لندن، في الأشهر الأولى من عام ١٩٩٥م. ومن سوء الحظ أني لا أتذكر العدد تماماً.

فإذا افترضنا أنَّها تريد السلام فهي تريد سلامها وحدها، وسلامها الإرهابي لا السلام المنطوي على الأمان والاطمئنان، أي سلام الرُّعب الذي تزرعه في نفوس العرب ودول الجوار كلها، سلام عدم توازن القوى، سلام الردع النووي، والرهاب الفكري... ولذلك سعت وتسعى لتجريد الجوار العربي وغير العربي من أي سلاح، حتَّى من السلاح الأبيض إن أمكن. ولا تسمح بوجود أي إمكانية أو احتمال لامتلاك هذا الجوار القدرة على إنتاج الأسلحة فدمرت لذلك معامل الأدوية في السودان وليبيا. وقضت على شعب العراق. وكلما حاولت سوريا أن تشتري أي نوع من السلاح تقيم الدنيا ولا تقعدها، وتستنفر البوارج الأمريكية في البحار لقرصنة أي باخرة يشتبه في أنَّها تحمل شيئاً إلى سوريا أو مصر أو لبنان...!!!

وفي الوقت ذاته تمتلك هي ترسانة نوويَّة، وتتزوَّد دائماً بأحدث الأسلحة والتقنيات قبل أن يستخدما، أو رُبَّما يعرفها الجيش الأمريكي، وتعدها الولايات المتحدة بالتفوق الاستراتيجي الكبير على العرب...

على أساس هذه المعطيات يمكن فهم المقصود بالسلام الذي تريده إسرائيل، إنَّه السلام الذي يجعلها وصية على العالم العربي، تأمر وتنهى، وتمارس عهرها وفجورها من دون رادع أو معترض.

وبهذا المعنى فَقَطْ يمكن أن تقبل إسرائيل بالسلام، إن هي قبلت به، فأنا اشك في أن تقبل في هذا السلام أيضاً، لأنَّ وجوده على ما فيه فجور

سيعرض إسرائيل للخطر، خطر السكينة، والطمأنينة، ورغد العيش، والاندماج مع العرب... وهذا ما لا تريده الحركة الصهيونية، لأنَّها لا تريد أن يحصل في النتيجة ما رفضته في المقدمة، إنَّها ترفض أي فكرة تعايش مع الآخر، لا مع العرب وحسب، بل مع الآخر أيًّا كان، لأنَّ الآخرين كلَّهم أغيار، والأغيار هم من خلقوا ليكونوا خدماً وعبيداً لليهود، فالله قد خلقهم وندم علىٰ خلقهم.

ولذلك فإنَّ الحركة الصِّهيونيَّة بمختلف تنظيماتها وتشكيلاتها[٣٤]، رفضت منذ البداية توجهات بعض اليهود للتَّعايش السِّلمي مع العرب من أجل السَّماح لهم بالعيش في فلسطين تحت ظلِّ الدَّولة العربيَّة الواحدة، وقلبت مساعي كلِّ هؤلاء رأساً على عقب، وتلاشوا هم وطروحاتهم، ومن هؤلاء مثلاً الحاخام **يعقوب دي خآن** الذي قُتِلَ في ظروفٍ غامضة في عام ١٩٢٤م، وهو من قادة اليهود المتطرفين، مثقف واسع الأفق، سياسي محنك، تدرج في وظائف الحكومة الهولنديَّة، «عدَّته الصهيونية عدوًّا خطراً لأنَّه حاول تحقيق وفاق بين السكان المسلمين واليهود والمسيحيين في فلسطين من أجل وضع حدٍّ للعداء العربي اليهودي الذي أججه الصهاينة، وكان ينوي **خآن** بعد إجراءه مباحثات مع بعض الشخصيات العربيَّة السفر إلى إنجلترة التي كانت فلسطين تحت انتدابها، لإخبار الحكومة البريطانيَّة عن إمكانيَّة تحقيق الوفاق بين

(34) . لا بأس هنا من التشديد على الحركة الصهيونية لأنَّ بعض اليهود يرفضون ذلك.

الفئات الدينيَّة الثلاث، وقبيل سفره تمَّ اغتياله على أيدي (عصابة الهاغانا)»[٣٥].

إنَّ المؤشر الحقيقي والأساسي لذلك هو الحركة الصهيونية ممثلة بإسرائيل، أو العكس وهو صحيح أيضاً، لا تريد السلام بأي شكل من الأشكال، ولن تقبل به «حتَّى لو تنازل العرب عن أرضهم مقابل هذا السلام» كما قال **الحبيب بورقيبة**، فإسرائيل كما صرَّح أعلامها لا تعرف إلاَّ لغة القوَّة، ولن تفهم إلاَّ بها، وفي هذا وحده ما يسوغ ويفسر رفض الحركة الصهيونيَّة اندماج اليهود مع مجتمعاتهم، وتعايشهم مع هذه المجتمعات بسلام، منذ ما قبل إنشاء الكيان الصهيوني في فلسطين وحتَّى الآن. وقد بيَّنا بعضاً من ممارسات الحركة الصهيونيَّة من أجل الحيلولة دون اندماج اليهود مع مجتمعاتهم عن طريق الإرهاب، ومن أبرزها المحرقة التي أقامها اليهود باسم النازية وتحت رايتها من أجل إرهاب اليهود وإكراههم على الهجرة إلى فلسطين، وفي إطار هذه العملية قام اليهودي **رودلف كاستنر** بتسليم اليهودي **إيخمان** (٤٧٦٠٠٠) يهوديًّا لاستغلالهم في معسكرات الموت النازية مقابل السماح بهجرة (١٦٨٤) يهودي من نشطاء الصهيونية.

إنَّ تضحية الصِّهيونية بمئات الألوف من اليهود مقابل ألف يهودي تكشف عن حقيقة الحركة الصهيونيَّة، وتفضحها: إنَّها مؤسَّسة لتحقيق مخطَّطٍ

(35) . سيرغي سيدوف: **الصهيونية ونهج الإرهاب** . ص٣٠.

محدَّدٍ لا صلة له باليهود إلاَّ من بوصفهم أداة لتنفيذ هذا المخطَّط، ولذلك لم تجد الحركة الصِّهيونية حرجاً أبداً في التَّضحية بمئات الألوف منهم من أجل تنفيذ هذا المخطط كما حدث فيما سُمِّي بالمحرقة النازية، وغيرها الكثير مما أشرنا إليه في أماكن مختلفة من هذا الكتاب، ولم تجد بدًّا أيضاً من السَّعي الدَّائم لإشعار اليهود بأنهم في خطر دائم، وأنَّ أكثر الأماكن أماناً لهم هي إسرائيل. ولكن لماذا إسرائيل؟

إنَّ تهجير اليهود إلى فلسطين كما أوضحنا، وأكدنا، ليس من أجل اليهود، وإنَّما من أجل استغلالهم وقوداً لتسيير مخططهم المرسوم والمحدد. وقد رأينا كيف أنَّ غالبية اليهود يرفضون الكيان الصهيوني ولا يعترفون به، ومما يزيد هذه الحقيقة تأكيداً هو أن أقل من مليون ونصف يهودي فَقَطْ ينتمون إلى المنظمة الصهيونية من أصل نحو أربعة عشر مليون يهودي في العالم[٣٦].

وعندما يَصِلُوْنَ إلى أكثر الأماكن أماناً لهم يكون بانتظارهم الاستنفار الدائم، والتوتر الدائم، كي تكون الجاهزية دائمة، وكي لا يكون هناك أي إمكانية للسكينة، أو الاسترخاء، أو الاطمئنان للعرب بأي صورة من الصور، وبهذا المعنى عندما «بدأت تصدر من تل أبيب أصوات الاستغاثة من الخطر الماحق من جانب العرب، أخبر رئيس الأركان حينذاك **موشي دايان** رئيس

(٣٦) . كان هذا الإحصاء من معطيات المؤتمر الثلاثين للمنظمة الصهيونية العالمية المنعقد في كانون الأول عام ١٩٨٢م. نقلاً عن سيرغي سيدوف: **الصهيونية ونهج الإرهاب**. ص٣٠.

الوزراء بعد وجود مثل هذا الخطر، وأن العرب عاجزون عن تحقيق أيِّ تفوق خلال ٨ إلى ١٠ سنوات قادمة. وعلى الرُّغم من ذلك كله طلب **دايان** إعطاء الضوء الأخضر للجيش الإسرائيلي للقيام بأعمال تنكيل ضد البلدان المجاورة، فهذه الأعمال كما قال: ستساعدنا في الإبقاء على شعور التوتر عند مواطنينا وداخل صفوف الجيش، ومن دون ذلك لا نستطيع خلق شعب مقاتل، وعندها سنفقد قضيتنا»[٣٧]. وأكَّد **دايان ذلك** مرَّة أُخْرَى قائلاً: «من الضروري إقناع شبابنا بوجود خطر يتهددنا»[٣٨].

وقد علَّق **موشي شاريت** في مذكراته على فلسفة **موشي دايان** بقوله: «الاستنتاج الذي يمكن الخروج به من كلمات **دايان** واضح كلَّ الوضوح، ليس لدولتنا أيُّ التزامات دولية، ولا مشكلات اقتصاديَّة، ولا وجود للمسألة الخاصَّة بالسلام عندنا. وعلى دولتنا أن تعدَّ خطواتها بضيق أفق، وتعيش بحكم السيف، وعليها أن ترى في السيف الآلة الرئيسة والوحيدة للحفاظ على مستوى أخلاقي غاية في السُّموِّ. وتحقيقاً لهذا الهدف تستطيع، بل يجب عليها اختلاق أخطار لا وجود لها، ولأجل ذلك عليها استخدام أسلوب الاستفزاز والتنكيل، وقبل كلِّ شيء يجب علينا الاعتماد على حرب جديدة مع البلدان العربيَّة»[٣٩].

---

(37) . م. س. ص٢٤ . ٢٥. نقلاً عن مجلة **دراسات فلسطينية**. ربيع ١٩٨٠م. ص٥١.

(38) . م. س ت ذاته.

(39) . م. س. ذاته.

ولم تتغيَّر هذه السِّياسة أو الفلسفة الإسرائيليَّة أبداً، فعلى الرُّغم من معاهدات السَّلام الَّتي وُقِّعَت مع الفلسطينيين، فقد استمرت في ممارستها الاستفزازيَّة، ودفع الأمور إلى الهاوية تهرباً من عملية السَّلام، وقد أكد قادتها، ومنظِّروها مئات المرَّات أنَّهُم لا يريدون السَّلام.

وعلى الرُّغم من أنَّ بعضاً من العرب راح يعلن أنَّ العرب يريدون السَّلام مهما فعلت إسرائيل، وأنَّ الخيار الاستراتيجي والتكتيكي للعرب هو السَّلام، وعلى الرُّغم من أنَّ معظم الدُّول العربيَّة قد أسقطت تماماً خيار الحرب ضدَّ إسرائيل فَقَطْ من حساباتها، وعلى الرُّغم من تأكيدهم ذلك، بمختلف وسائل الإعلام، وبكل أنواع التأكيد الممكنة... فإن إسرائيل ظلت تكرر، على الملأ، ومن دون حرج أو حياء أو خجل، أنَّها لا تريد السَّلام. وكلُّ ممارساتها تؤكد هذه الحقيقة تأكيداً قاطعاً. وكلما طالب العرب بتفعيل العمليَّة السِّلميَّة اختلقت مشكلة أو صراعاً يعرق هذه العملية، وإن اتفق وسارت الظُّروف بما يجعل تفعيل مفاوضات السَّلام أمراً لازماً افتعلت أزمة في الحكومة وأجرت انتخاباتٌ مبكرةٌ، وتتغيَّرُ الحكومة في كلِّ مرَّةٍ، وكلُّ حكومةٍ جديدةٍ ترفض ما كان قبلها...!!!

هذه هي الحقيقة الَّتي قالتها إسرائيل كما هي تماماً... إنَّها لا تريد السَّلام، لأَنَّ السَّلام يعني نهاية إسرائيل ودورها ومخطَّطاتها المرسومة، الَّتي لا تخصُّ الحركة الصِّهيونية وحدها وإنَّما تخصُّ العالم الغربيَّ ممثَّلاً بأقطابه، ولا سيَّما الولايات المتحدة الآن وإنجلترة وفرنسا. بوصف الولايات المتحدة الأمريكيَّة هي

الوريث المباشر للحقبة الاستعماريَّة الَّتي تمَّ التخطيط فيها لزرع الكيان الصهيوني في المنطقة العربيَّة من قبل إنجلترة خاصَّة وألمانيا وفرنسا لتحقيق المصالح الاستعماريَّة بشموليَّة المعنى المنبثق عن هذه الكلمة، ولترث الولايات المتحدة، من ثَمَّ، هذه المصالح الاستراتيجيَّة في المنطقة العربيَّة خاصَّة، وفي العالم عامَّة.

واستناداً إلى ذلك كله، يمكن القول من دون أي شطط أو مبالغة، أو حتَّى بعد عن الحقيقة:

إنَّ ما تريده إسرائيل من السَّلام هو أن لا يكون السَّلام.

الفصل السادس

التطبيع ضرورة أم خيار؟

إن استطاع العرب الحصول على ضمانٍ يقينيٍّ بأَنَّ إسرائيل لن تعرقل الوحدة العربيَّة ولن تكبح التَّطور والتَّقدُّم ... فلا مانع البتَّة من التطبيع الكامل.

إنَّ ما لا يغيبُ عن بالِ يهودِ إسرائيلَ ولا يمكنُ أَن يغربَ عن أَذهانهم هو أَنَّهم ينتمونَ إلى أُممٍ وقوميَّاتٍ مختلفةٍ، وأَنَّهم أَقاموا دولتهم على أَرض دولةٍ أُخرى شعبها الأَصليُّ حيٌّ وأَهلُ هذا الشَّعب يحيطون بإسرائيل من كلِّ جانب، ولذلك لن يشعروا بالأَمان ما لم يتغلغلوا في أُطر الشَّعب العربي بأَيِّ صورةٍ من الصُّور.

تجعل إسرائيل التَّطبيعَ مِحكًّا لا لإثبات حسن النَّوايا العربيَّة تجاه السَّلام وحسب بل شرطاً لإتمام العمليَّة السِّلميَّة. أَمَّا العرب ـ شعباً دون الحكومات، وقلَّة من الحكومات ـ فيفصلون فصلاً قطعيًّاً، ربَّما لا مجال للنِّقاش فيه، بين السَّلام والتَّطبيع، والحجَّة منطقيَّة هي؛ هناكَ كثيرٌ من الدُّول لا يوجد أَيُّ احتمالٍ للحرب بينها وهي مسالمةٌ ومتسالمةٌ، ولكنَّها غير متبادلةِ التَّمثيل السِّياسي والاقتصادي والاجتماعي ...

فلماذا تصرُّ إسرائيل على مثل هذه النَّافلة، والنَّافلة ـ والله أَعلم ـ يمكن الاستغناء عنها ولا وزر؛ نحن نريد السَّلام وندين الحرب ولكنَّنا لا نريد التَّطبيع.

الحقُّ أَنَّ هذا الكلام حجَّة لا غبار عليها وهي منبثقةٌ من صلب المنطق الذي لا يمكن نكرانه. ولكن ليس في مثل السَّلام العربي الإسرائيلي، لأَنَّ العلاقة أَصلاً بين العرب وإسرائيل علاقة استثنائيَّة منقطعة النَّظير في التَّاريخ .... إنَّ ما بين العرب وإسرائيل شلاَّلات دماء وأَعداد لا تحصى من القتلى والشُّهداء، وقيام

السَّلام . من وجهة نظر الإسرائيليين . دون تطبيع العلاقات، الذي يكفل وحده . حسب نظرهم أَيضاً . إزالة آثار الدِّماء ؛ ما جفَّ منها وما لم يجف بعد، لن يكون إلاَّ بمثابة هدنة لا يكسب الإسرائيليون منها إلاَّ صفعةً على صحن الخدِّ ترنُّ مدى الحياة في آذانهم من حيث استرداد العرب . باسم السَّلام . بعضاً غير قليل من أَراضيهم في الوقت الذي لا يمكنهم ذلك على أَرض المعركة. وعلى هذا الأَساس؛ عندما تطالب إسرائيل بالتَّطبيع فإنَّها منطقيَّةٌ أَيضاً بطلبها ومنطقيَّةٌ بحججها، فكيف سيقتنع الإسرائيليون بأَنَّ العرب جادُّون في السَّلام وهم لا يريدون تطبيع العلاقات وفتح أَبواب التَّبادلات: الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة والاجتماعيَّة والسِّياحيَّة ... ؟!

إذا أَردنا أَن تكون عقولنا متوافقة مع ذواتها ينبغي علينا الإقرار بأَنَّ إسرائيل محقَّة في دعواها هذه، ولكن بشرط أَوَّلي لا غنى عنه، وهو أَن تكون إسرائيل دولة فعلاً. ولقد انتزعت اعترافاً بذلك من الدُّول العربيَّة بمجرَّد الدُّخول في المفاوضات. فهل انتهت المشكلة بذلك ؟

لو توقَّف الأَمر عند هذا الحدِّ فقط؛ أَعني لو أَنَّ إسرائيل تريد إزالة آثار مستنقعات الدِّماء المستنزفة في الصِّراع العربي الإسرائيلي وحسب للوصول إلى تعايش سلمي خالٍ من الضَّغائن والأَحقاد، لقلنا: إنَّ إسرائيل مُحقَّةٌ في إصرارها على التَّطبيع، وربَّما لُمنا مناهضي التَّطبيع، ولكن المشكلة أَعمق من ذلك وأَبعد غوراً.

يعلم أَنصاف المثقَّفين العرب، ولا أُبالغ إذا قلت إنَّ الأُمِّيِّين يعرفون أَيضاً أَنَّ غرس إسرائيل في قلب الوطن العربي لم يكن من تفكير اليهود بقدر ما كان تخطيط الدُّول الاستعماريَّة الكبرى التي كانت تضع مشاريعها للسَّيطرة على

الوطن العربي، وفي المدى البعيد لإبقاء هذا الوطن متخبِّطاً في ضعفه مُنتَهَكاً مُختَرَقاً مجزَّءاً. وكانت المخطَّطات كثيرة والمؤتمرات والمقترحات أَكثر، وأَهمُّ ما في مقرَّرات هذه المشاريع وأَخطرها على الإطلاق هو زرع كيان في قلب هذا الوطن؛ يستنزف طاقاته وإمكاناته ويحول دون وحدته، لأَنَّ وحدته تعني بالنِّسبة لهم . على أَقلِّ تقدير . قطع طريق هيمنتهم وتفرُّدهم بقطع أَنهر الخير المتدفِّقة عليهم، فيما خلا عوامل أُخرى كثيرة تظلُّ مأخوذة بعين النظر.

هذا الكلام كلُّه كان من ضمن المخطَّطات بعيدة المدى للانقضاض على الرَّجل المريض (الإمبراطوريَّة العثمانيَّة) وتركته. والحيلولة دون قيام أيِّ دولة عربية موحدة بأي صورة من الصور، لما تحمله الأمة العربية من إمكانات قوة على مختلف المستويات.

هذا الكلام ليس للاتجار ولا للاستعراض، وإنَّما هو حقيقة الأمر تماماً، وهذا هو بالتحديد ما كانت تفكر فيه الدول الاستعمارية الناشئة. وقد أقر الصهيوني **لويس جولدنج** «أنَّ الحركة الصهيونية كانت منذ البدء حركة إنجليزيَّة»(٤٠).

إنَّ الخصائص والإمكانات التي تتمتع بها الأمة العربية على الصعيد الفكري والثقافي والهوية تجعلها قادرة على النهوض بوتائر متسارعة، والسيطرة من ثمَّ على طرق التجارة، وحرمان الدول الاستعمارية من أسواق كبيرة، وفوائض دخول، بما يعني تحجيم قدراتها على التقدم، من خلال تحجيم الفرص المتاحة

(٤٠) . بديعة أمين: **المشكلة اليهوديَّة والحركة الصهيونيَّة** . ص١٤٥. نقلاً عن الدكتور بدر الدين عبد المحسن الحسن: **الإمبريالية والصهيونية** . جامعة دمشق . دمشق .١٩٨٨م . ص ٢١٩.

أمامها. ولذلك كان التفكير معظمه منصباً على كيفية منع هذه الأمة من النهوض بأي وسيلة ممكنة.

بدأت هذه المشكلة تحديداً في الظهور، ولفت الانتباه، عندما تحطمت جحافل **نابليون** على أسوار عكا، وهذا ما عنى لفرنسا أن مصالحها، وطموحاتها، ومخططاتها الاستعمارية، ستكون مهددة أمام أمة لها هذا العمق الجغرافي والاستراتيجي، فما كان **نابليون بونابرت** إلاَّ أن أطلق نداءه الشهير وهو على أسوار عكا في الرابع من نيسان ١٧٩٩م، ودعا فيه يهود آسيا وإفريقيا إلى أن يهرعوا إلى رايته ليدخلوا أورشليم(٤١). وقد نشر هذا النداء حينها في جريدة (غازيت ناسيونال) الرسمية الفرنسية.

وبعد فترة أشهر فَقَطْ من هذا النداء وجَّه **هارون ليفي** الحاخام الأكبر للقدس نداءً «إلى اليهود لإعادة بناء أسوار المدينة اليتيمة؛ القدس، وبناء معبد الربِّ. وحثَّ اليهود على القدوم إلى فلسطين قائلاً: ليجتمع كل رجال الشعب اليهودي القادرين على حمل السلاح، وليأتوا إلى فلسطين»(٤٢). وبعد فترة قصيرة

---

(٤١) . قال نابليون في هذا النداء: «إنَّ العناية الإلهية التي أرسلتني على رأس هذا الجيش، إلى هنا،، قد جعلت رائدي، وكلفتني بالظفر، وجعلت من القدس مقري العام. وهي التي ستجعله بعد قليل في دمشق التي لا يضير جوراها بلد داود... يا ورثة فلسطين الشرعيين، إنَّ الأمَّة العظيمة التي لا تتجر بالرجال، كما فعل أولئك الذين باعوا أجدادكم للشعوب تناديكم الآن، لا للعمل على إعادة احتلال وطنكم فحسب، وليس بغية استرجاع ما فقد منكم، بل من أجل ضمان هذه الأمة ومؤازرتها، لتحفظوها مصونة من جميع الطامعين بكم، كي تصبحوا أسياد بلادكم الحقيقيين... انهضوا وبرهنوا أن القوة الساحقة التي كانت لأولئك الذين اضطهدوكم لم تفعل شيئاً في سبيل تثبيط همَّة أبناء الأبطال الذين كانت محالفة إخوانهم تشرِّف إسبارطة وروما». انظر هذا النص عند: الدكتور بدر الدين عبد المحسن الحسن: **الإمبريالية والصهيونية** . ص ٢٢٦.

(٤٢) . الدكتور بدر الدين عبد المحسن الحسن: **الإمبريالية والصهيونية** . ص ٢٢٦.

أيضاً قامت فرنسا بترتيب دعوة لليهود كي يجتمعوا في باريس، وكان الإيحاء لهم بالعودة إلى وطنهم الذي لم يحدد جغرافياً إلاَّ بأنه المنطقة التي تفصل عرب آسيا عن عرب إفريقيا.

ومع حملتي **محمد علي باشا** بقيادة ابنه **إبراهيم** على الشام ١٨٣٣م و١٨٣٨م، واحتلال سوريا في الثانية، أصبحت فكرة إقامة كيان غريب في هذه المنطقة أكثر إلحاحاً للدول الاستعمارية، وعلى الرغم من أنَّ الإنجليز كانوا الأسبق من الجميع في التفكير والتخطيط لما بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، إذ بدأ تغلغلهم في الإمبراطورية منذ أوائل القرن الثامن عشر، إلاَّ أنَّ استخدامهم اليهود لتحقيق مآربهم ومخططاتهم كان لاحقاً على فرنسا، وقد جاء ذلك أيضاً من باب المنافسة بين الدولتين.

وقد بدأت الاهتمامات الإنجليزية بتهجير اليهود إلى فلسطين منذ نطالع النصف الأول من القرن التاسع عشر، أي قبل ولادة **تيودور هرتزل** مؤسس المنظمة الصهيونية بنحو نصف القرن. وقد سعت الحكومة البريطانية لدى السلطان **عبد الحميد** من أجل السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، وفي هذا الشأن «كتب وزير الخارجية الإنجليزي **بلمرستون** إلى سفير بلاده في الأستانة قائلاً:

> ويكون من مصلحة السلطان الواضحة أن يشجع اليهود على العودة إلىٰ فلسطين، والإقامة فيها، لأنَّ ما سيحملونه معهم إلى البلاد من الثروة يزيد من موارد دولته، وأن الشعب اليهودي بعودته إلى البلاد بإذن السلطان وحمايته، وبدعوة منه، يكون **ذلك حجر عثرة في**

سبيل أيِّ أهداف تخطر ببال محمد علي أو من يخلفه... ضع هذه الاعتبارات أمام أعين السلطة العثمانية بصفة سرية وابذل ما في وسعك بأن تقدم كل تشجيع ليهود أوربا لأَنَّ يعودوا إلى فلسطين»(٤٣).

من المؤكد أن حجر العثرة هذا ليس من أجل مصلحة السلطان العثماني أبداً، لأنَّ بريطانيا كانت الضالع الأكبر في التخطيط لانهيار هذه الإمبراطورية والانقضاض عليها، والرسالة الوثيقة هذه واضحة بما يكفي لتأكيد أنَّ الحركة الاستعمارية هي التي أوجدت إسرائيل من أجل غرض محدد كان متبلوراً منذ مخطط **لويس التاسع** الذي «وضع أهدافاً محددة أمام الغزو الصليبي لوطن العربي، وهي: تفريق العرب وتشتيتهم، وإثارة الخلاف السياسي فيما بينهم، والانتقاص من تراثهم وتشويهه وتحريفه، والغض من لغتهم، وازدراء تاريخهم، وتدمير مرتكزاتهم النفسية والفكريَّة والروحيَّة، وإضعاف طاقاتهم الاجتماعيَّة والاقتصادية والروحيَّة بالتغلغل الدعائي والثَّقافي والتَّوجيه والإيحاء التبشيري لتسهيل السَّيطرة السِّياسيَّة عليهم، وربطهم باتِّفاقات ومعاهدات تنتقص من سيادتهم، وتحدُّ من استقلالهم، وتتيح التَّدخل المباشر في شؤونهم، وتسمح بالتَّسلط الفعلي عليهم، وتستغل المنافسات فيما بينهم للحصول امتيازات سياسيَّة، دينيَّة، اقتصاديَّة، ثقافيَّة، تحقق تجزئة العرب، وتفكك وحدتهم، وتشتت دولتهم، وتضعف تماسكهم السياسي وترابطهم الاجتماعي الروحي، وتواصلهم الثقافي والفكري، واندماجهم الاقتصادي والعسكري»(٤٤).

---

(٤٣) . م. س . ص٢١٩. نقلاً عن: محمد عمارة: **إسرائيل هل هي سامية** . ص١٤.١٥.

(٤٤) . محمد علي الفتيت: **الصراع بين الشرق والغرب** . القاهرة . ص ٦٤. نقلاً عن : الدكتور ماجد شدود: **الاستراتيجية** . جامعة دمشق . دمشق . ١٩٨٧م . ص ٣٣٦.

ومما يؤكِّدُ أنَّ إسرائيل إنَّما هي صنيعة الدول الاستعمارية أكثر مما هي صنيعة اليهود أنفسهم، أو حتَّى المنظمة الصهيونيَّة، على الرُّغم من أنَّ الأرض المقدسة فلسطين قد راودت أذهان كثير من اليهود بوصفها أرضاً مقدسة لا بوصفها وطنا قومياً، هو أنَّ «المنظمة الصهيونية العالمية لم تستقر على مكان محدد لإقامة (الوطن القومي) حتَّى المؤتمر الحادي عشر الذي انعقد في فيينا عام ١٩١٣م»(٤٥). ففي المؤتمر الصهيوني الخامس «كانت المناقشة مخصوصة لدراسة إمكانية إقامة الدولة اليهودية في أوغندا، وسمي المؤتمر بمؤتمر أوغندا»(٤٦). ومما خرج به المؤتمر السابع المنعقد في بال عام ١٩٠٥م: «تبني فكرة تنمية استيطان اليهود في أيِّ جزء ملائم من العالم»(٤٧).

أي إنَّ **هرتزل** مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية مات ولم يصل إلى قرار بأن تكون فلسطين هي أرض الدولة اليهودية، وقد أقر أنَّه يناضل من أجل اعتراف أوربا بدولة من دون تحديد مكان. ولو أن ثمَّة إجماع أو مجرد شبه إجماع، أو حتَّى أكثرية، على أن تكون فلسطين هي الوطن القومي لليهود لما كان ثمَّة جدال لإحدى عشر مؤتمراً للمنظمة الصهيونية العالميَّة على هذا المكان(٤٨).

واستقر توافق المصالح الاستعمارية مع الحركة الصهيونية التي صنعتها الدول الاستعمارية؛ فرنسا، وألمانيا، وخصوصاً إنجلترة، من خلال مؤتمر **كامبل بينرمان**

(٤٥) . الدكتورة سمر بهلوان: **القضية الفلسطينية** . جامعة دمشق . دمشق . ص ١١٦.

(٤٦) . م. س . ص ١١١.

(٤٧) . م. س . ص١١٢.

(٤٨) . الحقَّ أن الأمثلة والشواهد التي تؤكد هذه الفكرة كثيرة جدًّا، وقد أثبتنا بعض في فصول متعددة من هذا الكتاب.

الذي انعقد في لندن ما بين ١٩٠٥م و١٩٠٧م لدراسة وضع الوطن العربي وآفاقه المستقبليَّة وكيفية التعامل معه. وبعد سنتين من الدراسة المفصلة، والمناقشات التي شارك فيها كبار أعلام الفكر الأوربي وعلماؤه في مختلف الميادين، والمسؤولون السياسيون والاقتصاديون، خرج المؤتمرون بقائمة طويلة تبين:

«كيفية تمزيق الوطن العربي جغرافيًّا، وإضعافه اقتصاديًّا، وعلميا وثقافيًّ، وتمزيق وحدته بشريًّا، لأنَّها رأت في وحدته وقوته نفياً لوجود الإمبراطوريات الاستعماريَّة. وقد حدد المؤتمر مجموعة من الوسائل والأساليب المختلفة التي يجب اتباعها والعمل على تنفيذها من قبل الدول الاستعمارية مجتمعة، وهي إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط أوربا بالعالم القديم، ويربطها معاً بالبحر الأبيض المتوسط، يجب أن تقوم في هذه المنطقة، وعلى مقربة من قناة السويس قوة عدوة لشعب المنطقة وصديقة للدول الأوربيَّة»(٤٩).

وليس من الغريب أبداً أن يقع الاختيار على اليهود للقيام بهذه المهمة، وليس من الغريب أيضاً أن تتفق الدول الاستعمارية على أن اليهود هم أصلح من يقوم بمهمة الجسم الغريب في الوطن العربي، فمن المتعذر العثور على شعب يقبل أن يقتلع من جذوره اقتلاعاً كليًّا ويقبل التخلي عن الأرض التي يعيش فيها غير اليهود، إضافة إلى أنَّ اليهود منبوذون في كل المجتمعات التي يعيشون فيها، بسبب أخلاقياتهم وسلوكياتهم وانعزاليتهم المريبة.

(٤٩) . الدكتور ماجد شدود: **الاستراتيجية**. ص٣٤٢.

وجاء وعد **بلفور** في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩٢٧م، ليحسم الجدل كله في الموضوع، **إذ نظر في (تركة أَبيه له) وأَقطع اليهود منها إقطاعيَّةً،** وغدت دولة اليهود المنتظرة هي الحلم الذي يفكِّر فيه الاستعمار؛ البريطاني والفرنسي خصوصاً، وتوجَّهت أَنظارهم وفق هذه المعطيات.

وبإنشاء إسرائيل ضرب الغرب عصفورين بحجر واحد، فلم تعد المسألة مسألة المحافظة على مصالح الغرب وحده بتفتيت الوطن العربي وشرذمته وإنَّما أَصبح هذا ما تُغرض إليه إسرائيل ذاتها، حتَّى وإن تخلَّى الغرب عمَّا كان يخطِّط له ويرجوه من إسرائيل، ولذلك سنتحامق إلى أَبعد حدود التَّحامق ونصدِّق أَوربا وأَمريكا وإسرائيل ونقول: نعم ليس من مصلحة الغرب ضعف الوطن العربي، ولا يعنيه تجزُّأه ولا وحدته، ولم يعد يهمُّه ذلك الآن بعد التَّطوُّر التِّقاني الهائل الذي وصل الغرب إليه، وسنُكذِّب على أَنفسنا ونغمض أَعيننا عن سلاسل الحصار الفولاذيَّة المفروضة على العرب خصوصاً والعالم الإسلامي عموماً من النَّاحية العلميَّة والتِّقانيَّة، والحساسيَّة المفرطة تجاه أَيِّ توجُّه لدينا من هذا النَّوع، هذا مع غضِّ النَّظر أَيضاً عن مشكلة التَّسلح النَّووي، فهل تتخلَّى إسرائيل عن دورها هذا وتجنح إلى السِّلم الحقيقي مع العرب، ولا تحول دون وحدته، ولا تعارض تطوُّره وتقدُّمه ؟

مرَّة أُخرى أَقول: **إن استطاع العرب الحصول على ضمانٍ يقينيٍّ بأَنَّ إسرائيل لن تعرقل الوحدة العربيَّة، ولن تكبح التَّطور والتَّقدُّم ... فلا مانع البتَّة من التطبيع الكامل.** على الرُّغم من أَنَّ الكراسي المجلَّلة بالحرير الوثير تكفل وحدها لإسرائيل ببتر التَّفكير بالوحدة وقطع دابر النهوض من تحت ركام

التَّخلُّف والجهل وأَنقاضهما، إلاَّ أَنَّ هذا لا يقنع إسرائيل ولا يحول دون مضيِّها في مشروعها الأَمني.

نعم نحن لا نعلم ماذا يحدث في المفاوضات تماماً، ولا نزعم ذلك، ولكن ليس يعجزنا التَّكهن به، واستقراءه من خلال المعطيات المعلنة، وما سنعلنه إن لم يكن مصرَّحاً به فعلاً فإنَّه المقصود بذاته من دون أَدنى شك.

إنَّ ما ترفضه إسرائيل أَمراً واحداً لا غير وتقبل ما دونه، إنَّها ترفض الوحدة فَقَطْ، ولينعم كلُّ ملك وكلُّ رئيس بدولته، وليفعل ما يشاء ! أَليس يُسْعِدُ الحكَّام العرب ورعاياهم أَن يهنئوا ببعضهم بعضاً ؟! أَليس من مصلحة أَعراب الدُّول أَن يكون لكلٍّ منهم كيانهم المستقل ودولتهم التَّاريخيَّة التي سبقت الأَوَّلين والأَخيرين؟ وهل يهرب الإنسان من هذا الفخر ؟! هذا ما تريده إسرائيل فلماذا يقيم بعض العرب الدُّنيا ولا يقعدونها عندما يسمعون مثل هذا الطَّرح ؟

لا تقبل إسرائيل أَن تقوم وحدة شاملة مهما كلَّفها ذلك من ثمن، وتريد أَن تكون صاحب القرار والوصي على أَيَّ وحدة أَو شبه وحدة جزئيَّة؛ تقبلها أَو ترفضها، وكَأَنَّهُ لا شأن لأَحد في ذلك سواهاً أبداً... إنَّها تريد أن تكون الوصي، وتتعامل على هذا الأساس.

هذا ما تصرُّ عليه إسرائيل وهذا ما نرفضه بشدَّة، والتَّطبيع في حقيقة الأَمر لا يريد غير ذلك أَبداً؛ إنَّ ما لا يغيب عن بال يهود إسرائيل ولا يمكن أَن يغرب عن أَذهانهم أبداً أَنَّهم أربعة ملايين جاؤوا من أكثر من مئة دولة، من مختلف القارات، ويتكلمون نحو مئة لغة ولهجة؛ أَنَّهم بريطانيون وفرنسيون وأَلمان وبولونيون وروس وأمريكان وأَفارقة وآسيون ...

ويدرك مستوطنو فلسطين من اليهود تمام الإدراك أنَّهُم «لا يشكلون شعباً بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة، فهم إلى الغالبية العظمى من القوميات، ولا توجد بينهم أيُّ علاقة مشتركة سوى الدين، ولو أحصينا عدد القوميات التي ينتسب إليها اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين، لوجدنا أنَّهُم يكادون ينتسبون إلى جميع قوميات الجنس البشري ... ولَقَد عبر **ميخائيل سلزر**، وهو يهودي سفردي، عن هذا الوضع في كتاب له عمن أسماهم (منبوذي إسرائيل) بقوله:

إنَّهُ على الرُّغم من أنَّ كلَّ يهودي مهاجر إلى إسرائيل يجذبه عاملٌ مركزي وهو اليهوديَّة، فإنَّه توجد قوَّة طاردة داخلها تدفعه إلى الخارج، على صعيد حضاري واجتماعي وجنسي (عرقي)، فاليهود المهاجرون إلى إسرائيل يفكرون، ويتصرفون، وغالباً ما يتحدثون مثل اليمنيين أو البولنديين أو الألمان أو الأمريكيين...إلخ؛ كلٌّ بحسب البلد الذي هاجر منه إلى إسرائيل، وهم يرددون قولاً شائعاً وهو: حين كنت في المجر (أو في أي مكان آخر)، كنت دائماً أعدُّ نفسي يهوديًّا، والآن وأنا في إسرائيل أشعر بأني مجري (أو أي شيء آخر)[٥٠]»[٥١].

وهذا المعنى تماماً علق **ليسنج روزنوالد**، رئيس المجلس الأمريكي لليهودية، على تصريحات **بنجوريون** الداعية إلى عدم الاندماج والمحرضة على الهجرة، بقوله:

---

(50) . Michael Selzer: **The Aryanization of the Jewish State**. New York. A Black Star Book. 1967.

(٥١) . مصطفى عبد العزيز: **إسرائيل ويهود العالم؛ دراسة تاريخية وقانونية**. ص٥١ . ٥٢.

«إنَّ من يستمعون إلى نصيحة **بنجوريون** بالهجرة إلى إسرائيل سيصبح لديهم فرصة أكبر لفقدان يهوديتهم في (القومية الإسرائيلية) أكثر مما لو ظلوا في أمريكا وتعرضوا للذوبان»(٥٢).

ويدرك اليهود تماماً أيضاً أَنَّهم أَقاموا دولةً على أَرض دولة أُخرى؛ شعبها الأَصلي أَكثر منهم، وهذا الشَّعب الأَصلي حيٌّ لم يفن كما فني الهنود الحمر، وهو موجود على أَرضه، وأَرض هذه الدَّولة جزءٌ من أَرض أُمَّةٍ تحيط بإسرائيل من كلِّ جانب. وهذا ما ينعكس تماماً في بنية المجتمع الإسرائيلي، وتركيبه، وتوزيع السكان، والعلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ضمن الكيان الصهيوني. وإذا كان **ميخائيل سلزر** قد قال ما قاله في عام ١٩٦٧م، فإنَّ وضع إسرائيل بعد أكثر من ثلاثين سنة ليس أحسن أبداً، بل إنَّهُ أسوأ بكثير جداً عما كان عليه بسبب توع القوميات والعقليات والثقافات التي جاء منها اليهود.

تعاني التجمعات اليهودية في فلسطين اليوم من انقسامات حادة على مختلف الأصعدة والمستويات، فكل قومية تعيش على طريقة وهواها، وكثير من اليهود يرفضون لا التكلم بالعبرية وحسب، بل مجرد تعلمها. ولا توجد أي علاقات اجتماعية بين اليهود السفرديم واليهود الأشكناز واليهود الفلاشا، ولا سيَّما فيما يخص الزواج، حتَّى إن بعض الباحثين يؤكد أنَّه لا توجد حالة زواج

---

(٥٢) . مصطفى عبد العزيز: م.س. ص١٠٣. نقلاً عن:

- Lessing J. Rosenwald: **Nationalism Vs. Assimilation**. American Council for Judaism. Chicago Chapter. Chicago. Illinois. October 16. 1962.

واحدة بين هذه الطوائف اليهودية[٥٣]، ناهيك عن انشقاق اليهود ما بين علمانيين ومتدينين ومتطرفين، ووضع اليهود العرب على الجبهات المحيطة بإسرائيل ليكونوا كبش الفداء عند أي قصف أو معركة مع أي دولة مجاورة، وهذا ما يثير كثيراً من مشاعر الاستياء والحقد والتَّذمر تجاه اليهود الآخرين، وإن لم يقلل أبداً من حقد الجميع على العرب؛ هذا الحقد التكتيكي الرامي إلى عدم الركون إلى الأمان أبداً من جاه العرب.

وبهذا المعنى أعلن **موشيه منوحين**، اليهودي الأمريكي، منذ نحو ثلث القرن، عن رفضه فكرة الشَّعب اليهودي، والقوميَّة اليهوديَّة، فكلاهما تزوير وتدليس، وقد كان ذلك في مقدمة أحد كتبه إذ قال: «إنَّهُ اختار لهذا الكتاب عنواناً هو: (انحلال اليهودية في عصرنا)، ولكنَّهُ كان يفضِّل أكثر أن يطلق عليه عنواناً آخر هو: (القومية اليهودية: جريمة وحشية وتاريخية ولعنة)، ثمَّ يتوجَّه إلى القارئ بقوله: أرجو أن تختار بينهما فكلا العنوانين سواء بالنسبة لي»[٥٤].

ومثل هذا الانطباع أو الشعور منتشر في الأوساط الغربية التي صدرت اليهود إلى فلسطين، وقد بدأ التعبير عنه مؤخراً في الأوساط والإعلامية، ولا سيَّما في ظل الانتفاضة الثانية، وبهذا المعنى ذكرت جريدة الجارديان البريطانية في

---

(٥٣) . ناجي جرجي زيدان من أبرز المختصين في الشؤون الإسرائيلية، وأهمهم، وقد ذكر ذلك في لقاء أجرته معه محطة المنار الفضائية يوم السبت ٢٠٠١/٦/٢م. وذكر كذلك الكثير من الحقائق المشابهة التي تؤكد تفكك المجتمع اليهودي.

(٥٤) . مصطفي عبد العزيز: **إسرائيل ويهود العالم**. ص ٥٢. نقلاً عن:

- Moshe Menuhin: The Decadence of Judaism in Our Times. Op. Cit. P.5.

عدد الخميس ٢٠٠١/٥/١٧م، «أنَّ إسرائيل دولة عنصرية، وشبهتها بما كان سائداً في جنوب إفريقيا إبان الحكم العنصري، وقالت:

إنَّ المهاجرين إلى جنوب إفريقيا من البيض، قدموا إلى البلاد من أنحاء شتَّى من أرجاء المعمورة، لا تربط بينهم أي صلة، واليوم في إسرائيل هناك المستوطنون الإسرائيليون القادمون من شتَّى أنحاء العالم.

وتابعت الجريدة تقول: إنَّ قانون الهجرة الإسرائيلي يقبل بقدوم أي يهودي بغضِّ النَّظر عن انتماءاته العرقية، ومواهبه، ومؤهلاته، فيأتي اليهودي الأمريكي من ولاية نيوجرسي على سبيل المثال ويتصرف في إسرائيل على أنَّه بطل حسب تعليمات التوراة، بينما كان يقف في بلاده على هامش الحياة...»(٥٥).

ولذلك لن تشعر إسرائيل بالأَمان أَبداً ما لم تكن هي وهي وحدها صاحبة القرار والمبادرة في المنطقة، وكل جهود التَّطبيع تتجه لتصبَّ في هذا المعين:

سيخسرون في البداية مادِّيًّا، ويخسرون الكثير، سيقدِّمون البضائع الجيدة بأَرخص الأَسعار مهما خسروا حتَّى يسيطروا على السُّوق ويحطِّموا المنافسين، ويتحكَّموا من ثمَّ كيفما شاؤوا، وعندما يتحكَّمون بلقمتنا ورغيف خبزنا سيكون التَّطبيع قد حقَّق نتائجه لأَنَّنا إذ ذاك . كما يتوهَّمون ويخطِّطون . سننظر إلى إسرائيل على أَنَّها وليُّ نعمتنا وأَمرنا، ونحن مخدَّرون نتوارى وراء نظَّارتنا السَّوداء؛ قلوبنا تلهث وراء الرَّغيف وثغورنا ترسم ابتسامات الغرور والتَّكبُّر، ونغدو إذ ذاك كفقراء اليهود: تعساء في الدُّنيا أَشقياء في الآخرة.

ولذلك نحن مقتنعون تماماً بأَنَّ التَّطبيع في حقيقته؛ أَوَّله ترصيع وأَوسطه تجويع وآخره تطويع. لأنَّ ما تريده إسرائيل ليس السلام أبداً، ولا التطبيع بالمعنى

(٥٥) . نقلا عن جريدة **الثورة** . دمشق . عدد الجمعة ٢٠٠١/٥/١٨م.

الذي يمكن أن يفهم منه أبداً أيضاً، وإنَّما الذي تريده هو تهويد العقل العربي كما استطاعت أن تفعل مع أوربا وأمريكا لأنَّها تمسكهما من اليد التي تؤلمهما، ومن الوثائق التي تدينهما معاً، ومن المصالح التي تحققها لهما معاً!!

والذي يعنيه تهويد العقلي العقل العربي لا يختلف أبداً عن تهويد العقل الغربي، ويتمثَّل بالهيمنة على العقل العربي بالطَّريقة الصهيونيَّة، أي الوصول بالمواطن العربيِّ إلى مرحلةٍ يراقبُ فيها المرء عقله عندما يتَّصل تفكيره باليهود، فلا يجرؤ على سبٍّ ولا على لعنٍ، ولا على شتيمةٍ. بل حتَّى عندما يتَّصلُ الأمر بالآيات القرآنية، يجب على المسلم ألا يقترب من الآيات الَّتي تلعن اليهود، أو تتحدَّث عنهم بمكروهٍ، وقد لا حظنا كيف أنَّ من شروط السَّلام مع مصر عدم إدراج الآيات القرآنية الَّتي تتحدَّث عن اليهود ضمن المناهج الدراسيَّة، وكذلك الأمر في الأردن، وها هي الولايات المتحدة تخرج علينا أخيراً بمطلبٍ فاضحٍ واضحٍ صريحٍ يقول:

على الدُّولِ العربيَّة

إلغاء تعليم الديانة الإسلاميَّة في المدارس

وإغلاق المعاهد الدينيَّة

لأنَّ الإسلام يحضُّ على الجهاد ومحاربة إسرائيل(٥٦).

(٥٦) . جاء هذا المطلب بناء على دراسة قام بها مركز الدراسات في وزارة الخارجية الأمريكية، وهذه النتيجة ليست بالجديدة على أي حال فقد سبقتها دراسات كثيرة، وبنيت عليها مقررات كثيرة، وسياسات كثيرة أيضاً. ورد خبر المنع هذا مع تحليل له في جريدة **المجد** . عمان . العدد ٣٦٤ . تاريخ ١١ حزيران ٢٠٠١م، وكذلك في جريدة **الأسبوع** . القاهرة . في الأسبوع ذاته.

الفَصْلُ السَّابع

لماذا نقاوم التطبيع؟

أسجِّل هنا أنَّ إسرائيل قد أفادت من انتشار الأفكار الإنسانية وحقوق الإنسان والتقنية في آن معاً فاضطرت في بعض الأحيان، لا دائماً، إلى استبدال السيف باليورانيوم المخفف والجراثيم والفيروسات التي تحقق لهم هذا الجبروت وهذه الدموية بأشكال عصرية من السَّادية..

لقد أثبتَ الواقعُ بما لا يقبل أدنى شكٍّ أنَّ الإسرائيليين أناسٌ لا يُؤْمَنُ جانبهم أبداً أبداً أبداً؛ لا يُؤْمَنُ جانبهم بمختلف المعاني لا بمعنى واحد. وفي فهم ذلك وحده ما يكفي لرفض أيِّ تطبيعٍ مع إسرائيل.

على الرَّغْمِ من أنَّ اصطلاح (التَّطبيع) حديث النَّشأة والتَّداول في الأوساط السياسيَّة العالميَّة، وعلى الرُّغم من أنَّ إسرائيل هي الَّتي أوجدت هذا الاصطلاح في مفاوضات (السَّلام) المصريَّة الإسرائيليَّة، فإنَّنا سنتعامل مع هذا الاصطلاح انطلاقاً من انتشاره الكبير الآن على الصَّعيد العالميِّ، ومن هذا الباب يمكننا القول بداية:

من البداهة بمكان أنَّنا لا نقاوم التَّطبيع بحدِّ ذاته المطلق من أيِّ قيد أو مضاف إليه، وإنَّما المقصود بكلامنا هو التطبيع مع الكيان الصهيوني، والتَّساؤل عن سبب أو أسباب مقاومة التَّطبيع تساؤل مشروعٌ من النَّاحيتين؛ المنطقية والواقعية، بل أكثر من ذلك إنَّه يفرض ذاته بقوَّة على الواقع بحدِّ ذاته:

لماذا نقاوم التَّطبيع مع الكيان الصهيوني أو إسرائيل؟

- ألأنَّهم يهود وحسب؟
- أم لأنَّهم يحتلون أرضنا؛ وأرض الوطن، أي وطن، مقدسة حتَّى ولو لم يكن فيها مقدسات؟
- أم أنَّ الأمر أمر صراع ديني؟
- أم لخوفنا من امتداد نفوذهم وهيمنتهم الاقتصادية والثقافية...؟

أسمح لنفسي منذ البداية أن أكون استفزازياً بتقريري ما ليس من حَقِّي وما لا يجوز تقريره أصلاً، أو تفريطي بما لا يجوز التَّفريط فيه. لأقول:

لو توقَّف الأمر عند بعض هذه الأسباب أو كلها مجتمعةً لوافقت على التَّطبيع (مع التَّحفظ على الاحتلال)، ولَمَا كان ما يوجب الخوف منه أبداً لأنَّه لا يوجد في كل هذه الأسباب ما يدعو إلى الخوف أو التَّحفُّظ على التَّطبيع. فاليهود بما هم أصحاب كتاب، وبغضِّ النَّظر عن سمعتهم غير العطرة أبداً بين كل الأمم والشعوب، فإنَّهم يعيشون بين أفراد أممهم ويتعايشون معهم بمختلف مستويات المعيشة، ومنهم من يعيش في المجتمعات العربية والمجتمعات الإسلامية؛ يتعلمون ويعملون ويتاجرون بأوصافهم من أبناء هذه المجتمعات، ولا يوجد من ينكر عليهم حق العيش والتعايش هذا، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة عن سعي كثير من اليهود إلى الاندماج في مجتمعاتهم وكيف حالت الصهيونية دون ذلك، كما ذكرنا أمثلة غير قليلة أيضاً عن رفض كثير من اليهود الهجرة إلى فلسطين، ورفض أن تكون إسرائيل ممثلة لليهود، وكذلك رفضهم أن تكون الصهيونية ممثلة لليهود.... وهذا ما هو أكثر من التطبيع!!

إذن، من حيث مطلقية المبدأ، وعلى الرَّغم من بعض التحفظات، فإنَّ المشكلة ليست مرتبطة بالكينونة الدينية لليهود، ومن ثمَّ، إلى حدٍّ ما، يمكن إقصاء مسألة الصراع الديني جانباً، على الأقل من ناحيتنا بوصفنا مسلمين، لأننا نقرُّ بأنَّهم أصحاب كتاب، وفي القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة ما يكفي من الشَّواهد التي تؤكد نبل الإسلام وتسامحه في التَّعامل مع أصحاب الكتاب.

إذا تجاوزنا الجانب أو البعد الدِّيني في مقاومة التَّطبيع، وجدنا أنفسنا أمام التَّساؤل الثَّاني وهو احتلال أرضنا: **فهل الاحتلال هو السَّبب الذي يدفعنا إلى مقاومة التطبيع؟**

نحن هنا أمام مسألة لا يمكن التنازل عنها ولا بأيِّ صورة من الصُّور، وعلى الرُّغم من أن قناعتي، كقناعة أيِّ مواطنٍ عربيٍّ، وكقناعة أيِّ مسلم في العالم، وهي قناعة مخالفة لما رضخت له الحكومات الَّتي سامحت أو تساهلت بالأراضي المحتلَّة عام ١٩٤٨م، أقول، على الرُّغم من ذلك، لو كان محضُ الاحتلال هو السَّبب في مقاومة التَّطبيع لكان أيضاً سبباً قابلاً للتَّجاوز لأنَّ الاحتلال لا بدَّ زائل. وقد رأينا كيف أنَّ علاقاتٍ طيِّبة قد قامت بين بعض الدُّول الَّتي نالت استقلالها مع الدول الَّتي كانت تستعمرها، ووصلت بين بعض الدول إلى علاقات جدِّ حميمة!!

وكذلك أمرُ النُّفوذ الاقتصاديِّ والسِّياسيِّ والثَّقافيِّ وحَتَّى النفوذ العسكري... فهو وإن كان ذا شأن كبير، فإنَّه، كما يظن المطبلون والمزمِّرون للتَّطبيع، ليس بالشَّأن الكبير إذا ما أتاحت الحكومات العربيَّة والإسلاميَّة لشعوبها المخلصة حقَّ المنافسة والتَّعبير عن الذَّات... بل حتَّى ولو لم تتح لهذه الشعوب ما يكفي من حرية الممارسة في منافسة النفوذ الإسرائيلي، فإنَّ شدة النفوذ في هذه الميادين ليست هي الخطر بحدِّ ذاتها، ولا سيَّما أنَّ العالم العربي أصلاً هش، وضعيف، وعاجز عن منافسة الدول الأُخْرَى في معظم الميادين.

أي إنَّ النفوذ الإسرائيلي في هذه الميادين لن يقدم أو يؤخر كثيراً في مكان العرب على خارطة هذه الميادين مجتمعة أو متفرقة، وعلى نحو أكثر دقَّة: لن يكون هذا النفوذ هو القشة التي ستقسم ظهر البعير. ومن ثمَّ فإننا، على أقلِّ

تقدير، لا نقاوم التطَّبيع من أجل مقاومة هذا النفوذ في هذه الميادين، ولا لمجرد مقاومته.

فأين المشكلة إذن؟

إذا تجاوزنا كلَّ ذلك، وكله مما لا يجوز تجاوزه، فإنَّ ما لا يمكن تجاوزه أكثر من ذلك بكثير؛ أكثر عدداً، وأكثر خطورة. إلى درجة أنَّه من الإمكان والسهولة أن نبدأ العدَّ، ولكن قد لا يكون بإمكاننا التوقف عنه!!! ولذلك حسبي أن أتوقف عند نقطة واحدة:

لقد أثبت الواقع بما لا يقبل أدنى شكٍّ أنَّ الإسرائيليين أناس لا يؤمن جانبهم أبداً أبداً أبداً؛ لا يؤمن جانبهم بالمعنى القرآني إذ يقول تعالى:

{كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون}[٥٧]

وواقع تعاملهم مع دول الطوق منذ اللحظة الأولى للمفاوضات وحَتَّى هذه اللحظة يثبت ذلك ولا يخرج أبداً عن إطاره، ولذلك أستطيع الجزم بأنَّهم لن يغيروا في ذلك أبداً. وفي هذا بحدِّ ذاته إحدى أكبر المشكلات في العلاقة مع الصهاينة الذين يستندون إلى التوراة، التي صاغوها هواهم، دليل عمل. وفي التَّوراة وحدها ما يقدم مئات الأدلَّة على أنَّ من يعتقد بها لا يمكن أنْ يُؤْمَنَ جانبه.

وهم لا يؤمن جانبهم أيضاً لأنَّه لا يوجد ما يشير إلى وجود أدنى حدود الصِّدق عندهم أبداً مثلثة أيضاً. ولا يضمرون أيَّ نيَّةٍ حسنةٍ لغيرهم أبداً مثلثة أيضاً!!!

(57) . القرآن الكريم . سورة البقرة . الآية ١٠٠.

وهنا وحسب يتوافق النَّظر مع العمل عندهم، فجبلَّتهم هي إفساد الآخرين، وإلحاق الأذى والضَّرر بهم ... وماذا ترانا نعدُّ من الأمثلة الَّتي تؤكِّد هذه الحقيقة؟...

لا أبالغ إذا قلت إنَّ كلَّ ما يصدِّرونه، على نحوٍ مباشرٍ أو غيرِ مباشرٍ، إلى العالم الإسلامي، والعربي ضمناً، وإلى العالم عموماً؛ بدءاً من كلِّ ما يؤكل أو يشرب، وصولاً إلى كل ما يستخدم في أي ميدان من الميادين... كل ذلك مجرثم عمداً بالمسرطنات، والمعيقات، ومهيجات الجنس، ومثبطات الجنس، والمؤديات إلى العقم والتشوهات، والمميتات ...

هذا ما كان يف أغذية الأطفال، وعلب السجائر، والبذار، والأدوية... وليس في هذا أي مبالغة أبداً، ويكفينا من الأدلة على ذلك أن نتابع صحيفة مصرية واحدة ترصد هذه الممارسات في مصر، أو صحيفة أردنية تصف هذه الممارسات في الأردن، أو رُبَّما أي صحيفة عربيَّة... ناهيك عما لم يكشف النقاب عنه.

هذه كلها وقائع لا تقبل النقاش ولا الجدال، وهذا هو عين ما وصفهم به الله جلَّ وعلا شأنه في كتابه العزيز، ولننظر إلى البيان الإلهي كيف يصفهم، إلى جانب الآيات الكثيرة التي تصفهم، فقد وصفهم بأنَّهم:

{يسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين}(٥٨)

وآلية هذا الفساد أو الإفساد موضحة بقوله تعالى:

(58) . القرآن الكريم . سورة المائدة . الآية ٦٤.

{لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنَّهم قومٌ لا يعقلون}(٥٩)

أي إنَّهم هم من (**يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب**)، وهم الذين (يدسون السم في الدسم)... ويلتذون بالتمثيل بضحاياهم. وتاريخ إسرائيل مليء بالشواهد الصارخة على هذه الحقيقة، وتاريخ الدول اليهودية الأولى قبل ثلاثة آلاف عام فيه ما يقلُّ عن هذا التاريخ المعاصر.

والذي يزيد الطين بلة، والأمر تعقيداً، أنَّ هذه الممارسات جزء صميمي من العقيدة اليهودية المسطورة في التوراة بشكل خاص، وفي تعاليم زعماء اليهودية عبر التاريخ، حتى ليتعذر حصر الشواهد لمجرد الحصر من دون أي تحليل، في بحث واحد، ومما جاء في التوارة:

(**إنَّ الربَّ قال لإسرائيل: سأنزل إلى الأرض واضع في يدك السيف، وأذلل لك الرقاب**).

وفي التوراة أيضاً:

(**إنَّ هذه الشعوب المورثة إليك من مولاك الرب هي الوحيدة التي تدع مخلوقاً حيًّا يعيش عليها... اضرب أمامك، واحظر عليه كل ما يملك. لا تترك له شيئاً. اقتل كل الرجال والنساء والأطفال والرضع والأبقار والخراف والجمال والحمير... أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك**

(59) . القرآن الكريم . سورة الحشر . الآية ١٤.

الربَّ إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريماً[٦٠])[٦١].

وفي التوراة أيضاً:

(فاضرب سكان تلك المدينة بحدِّ السيف، وحرِّمها بكلِّ ما فيها، واضرب بحدِّ السيف حتَّى بهائمها، واحرق بالنار تلك المدينة، وغنيمتها، فتكون تلاً للأبد لا تبنى من بعد)[٦٢].

وأوصي **صموئيل شاول**، من الرَّب على حدِّ زعمهم، في حربه ضدَّ عماليق قائلاً:

(اضرب عماليق، وحرِّم[٦٣] **كلَّ ما لهم، ولا تبق عليه، بل أمت الرجال والنساء والأولاد وحتَّى الرضع والبقر والغنم والإبل والحمير)**[٦٤].

وكذلك جاء في التوراة:

(وحرموا كلَّ ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتَّى البقر والغنم والحمير بحدِّ السيف)[٦٥].

وجاء في سفر أشيعا:

(كل من صودف طعن، وكل من أخذ سقط بالسيف، وأطفالهم يسحقون برأى منهم، وبيوتهم تنهب، ونساؤهم تغتصب)[٦٦].

---

(60) . تحرمها تحريما: تقتلها تقتيلاً.

(61) . التوراة . سفر التثنية . ٢٠/١٦.

(62) . التوراة . سفر التثنية . ١٣/١٧.

(63) . وحرِّم : اقتل.

(64) . التوراة . صموئيل . ١٥/ ٣.

(65) . التوراة . سفر يوشع . ٦/ ٢٠.

ومما جاء في التلمود، وهو على شديد خطورته فإنَّه ليس الأكثر خطورة:

(إنَّ الناس من غير اليهود حمير، خلقهم الله على صورة البشر ليكونوا جديرين بخدمة بني إسرائيل) ...

إنَّ هذه الأقوال وعشرات بل مئات وآلاف غيرها، وآلاف الممارسات التي لا يجهلها عربي ملا مسلم في العالم، ولا يجهلها الغرب ذاته الذي يدافع عن إسرائيل وممارساتها، تفرض ذاتها على أنصاف العقول، لا العقول وحسب، من دون أي تحليل أو تعليق، بل إن أيَّ شرحٍ، مهما كان بليغاً، لن يعدو كونه تقليلاً من وحشيتها وهمجيتها التي لا يمكن بحال أن يقبلها عقل إنسان، ولا يمكن بحال من الأحوال أيضاً أن تكون صادرةً عن الله تبارك شأنه، فالله تعالى قد تبرأ منهم، ومن تزويرهم.

وإلى جانب ذلك فإنَّ هذه الأقوال، وهذه الممارسات تؤكد حقيقة أساسيَّة واحد على الأقل وهي عدم جواز الاطمئنان إلى هؤلاء الذين يؤمنون بها، لأنَّه لا يمكن أن يؤمن جانبهم أبداً.

وهنا أسجِّل أنَّ إسرائيل قَدْ أَفَادَتْ من انتشارِ الأفكار الإنسانيَّة وحقوقِ الإنسان والتَّقنية في آنٍ معاً فاضطرت في بعض الأحيان، لا دائماً، إلى استبدالِ السَّيْفِ باليورانيوم الْمُخَفَّفِ والجراثيم والفيروسات الَّتي تُحَقِّقُ لهم هذا الجبروت وهذه الدَّمويَّة بأشكال عصريَّة من السَّاديَّة.

فكيف بعد ذلك كله، أو حتَّى بعض بعضه، أأمن على نفسي، أو أمي ، أو أبي، أو ابني... أو وطني وأمتي من هؤلاء الذين يلبسون أثواب البشر؟؟!!

---

(66) . التوراة . سفر أشيعا . ١٣/ ١٥.١٦.

أعتقد أنَّ الأمر لا يتطلب أي فرصة للتفكير. وأعتقد كذلك أنَّنا لسنا أمام بدائل تقبل التخيير. لأنَّ هذا هو طبعهم، جبلتهم، عقيدتهم، طوال تاريخهم المليء بمثل هذه الممارسات، وهذا ما لن يتغير أبدا أبداً، لأنَّ جذوره لا تقبل التغير.

ولذلك أعتقد أيضاً أن هذا السبب وحده، ووحده فقط يكفي لمقاومة التطبيع بشراسة لا بشدة فقط، فكيف لو أضفنا إلى ذلك ما جازفنا بتجاوزه، بل كيف لو أضفنا ما يمكن تجاوزه من الأسباب الأكثر خطورة مما لم نذكره من مثل طبيعة وجود الكيان الصهيوني، والوظائف الموكلة إليه وهي بالأصل غاياته مثل: شرذمة الأمتين العربية والإسلامية بإبقائهما منقسمتين منقلبتين بعضها على بعض، وإضعاف هاتين الأمتين والحيلولة دون قيام أي قوة فيهما، والحيلولة دون أي لقاء أو انسجام في العالم الإسلامي، وإصرارها على الإمساك بكل خيوط تحريك المنطقة لتتحكَّم بها كيفما تشاء... فكيف وكيف بعد هذا نقبل أيَّ تطبيعٍ مع هذا الكيان ؟!

لتقل الحكومات ما شاءت وتشاء، ولتقرِّر ما شاءت وتشاء، فإنَّ الشَّعب دائماً هو المرجع وهو صاحب القرار. قد ينخدع بداية كما انخدع بعضهم، ولكن سرعان ما سينقلب على انخداعه.

على أنَّ هذا لا يعني انتظار وقوعه أسير المكر والخداع، يجب أن نقف جميعاً لإيضاح هذه الحقائق المؤكدة بمئات بل بآلاف الوثائق التي لا تقبل الشَّك ولا الطعن. والعاقل من اتعظ بغيره... ومن لم يتَّعظ بغيره وعظ اللهُ به.

• • •

الفَصْلُ الثَّامِن

أي سلام
يمكن أن يكون مع إسرائيل؟

باسمِ المَحَارِقِ النَّازيَّة الَّتي صاغتها الحركة الصِّهيونيَّة وأسهمت فيها كبيرَ الإسهام، تريدُ إسرائيلُ أن تلجم الألسن وتكمَّ الأفواه، وتُسَيِّرَ العالمَ بما يتوافق مع العقيدتين؛ الصِّهيونية والتواراتية!!!

قامت الحركةُ الصِّهيونيَّة بمجازرَ كثيرةٍ بحقِّ اليهود، وقد اعترف قادةُ إسرائيل بذلك اعتراف المفتخر بفعلته الشَّنعاء، وعلَّقوا ببرود غيرِ المكترثِ على هذه المجازر اليهوديَّة بحقِّ اليهود قائلين: «من الضَّروري التَّضحية بالبعض من أجل إنقاذ المجموع».

على الرُّغم من أنَّه من الخطأ الفادح ألاَّ نرجع في ذاكرتنا إلى الممارسات الصِّهيونيَّة الَّتي لا حصر لها في مجال ما يُسَمَّى «معاداة السَّامية»، بدءاً من فرضها على مختلف القوانين في الدُّول الأوربيَّة موادَّ تحظر شتم اليهوديَّة أو إعابتها بأيِّ طريقةٍ كانت، ومعاقبة كلِّ من ينزلق لسانه في مثل هذه الهاوية. مروراً بابتزاز النمسا وألمانيا على المجازر الهتلرية لليهود.

مروراً أيضاً بإثارة زوبعةٍ من الفراغ حول المستشار النمساوي **كورت فالدهايم** عند ترشحه لرئاسة النمسا في عام ١٩٨٦م، أي بعد نحو نصف قرن من أسطورة المحارق النَّازية ونصف قرن من المسؤليَّات المتعدِّدة الَّتي مارسها **فالدهايم** آخرها، في ذلك الحين، الأمانة العامة للأمم المتحدة!!.

مروراً أيضاً بالمحاكمة الشَّهيرة **لروجيه جارودي** ومن وقف معه، وسيقف معه، ومن يفكر مثله.

وصولاً إلى تهييج أوربا وحشد سبعة عشر رئيساً إلى جانب مندوبي ست وأربعين دولة في منتدى ستوكهولم وتأليبهم على النمسا إذا أشركت حزب الحرية

الذي يترأسه **يورج هايدر** في الحكومة، لأنَّ هذا الحزب موسومٌ بالنَّزعة النَّازية، على الرَّغْمِ من انقضاء أكثر من نصف القرن على هذه المجازر، وعلى الرَّغْمِ من تغيُّر الأحوال تغيراً جذرياً لصالح اليهود، وعلى الرَّغْمِ من يقين إسرائيل من عدم تأثرها أو اليهود من هذه المشاركة في الحكومة، وعلى الرَّغْمِ من أنَّ **هايدر** لم يتلفظ بكلمة واحدة ضدَّ اليهود أو تسيء لهم منذ انشقاقه بحزبه ...

وكذلك الحملة المسعورة الَّتي شَنَّتها الجرائد الصِّهيونية في كانون الثَّاني عام ٢٠٠٠م، على رئيس بلدية برلين **ابراهارد ديفجن** لأنَّه رفض حضور احتفال وضع الحجر الأساسيِّ لنصبٍ تَذكاريٍّ سيقام في برلين لتخليد ذكرى المحرقة.

كلُّ ذلك فَقَطْ من أجل جعل الذَّاكرة الشَّعبية الأوربيَّة تعاني عقدة الخوف من اليهود، وتكريس هذا الخوف من الاقتراب مما يسيء اليهود. وتجذير عقدة الذَّنب من المجازر الَّتي ارتكبها **هتلر** في حقِّ اليهود على الرُّغم من أنَّها لم تكن موجَّهة ضدَّ اليهود وحدهم كما أثبتت عشرات الدِّراسات.

على الرَّغْمِ من أهميَّة ذلك كلِّه، وخطورته، وصلته المباشرة بما يهمنا، فإنَّنا سنتجاوزه إلى صلب ما يهمنا ويتصل بنا. وسنبدأ من العاصفة الهوجاء الَّتي ثارت في إسرائيل بسبب مقالٍ كتبه رئيس تحرير جريدة تشرين السُّورية، كَشَفَ فيه بعض النِّقاب عن «ابتداع أسطورة المحرقة النَّازيَّة لليهود، وما اعتراها من زيادات ومبالغات ...»، فقد أعرب أحد وزراء إسرائيل عن اشمئزازه من هذا المقال، وزعم أنَّ من شأنه الإساءة إلى مفاوضات السَّلام السُّورية الإسرائيليَّة، وانتفض **مايكل مليكور** وزير شؤون يهود الشَّتات الإسرائيلي وذهب إلى أنَّه لا يمكن التَّحلي بضبط النَّفس بعد أقوال معيبة تنفي وقوع المحرقة، ودعا المسؤولين

السُّوريين إلى التَّملص من هذا المقال. وبما لا يقل عن هذا الانتفاض كان انتفاض الناطق باسم تكتُّل الليكود **داني نافيه** الذي دعا الحكومة الإسرائيليَّة إلى الانسحاب من المفاوضات إذا لم تتنصل سوريا من هذا المقال.

وبطبيعة الحال فإنَّ تصريحات **أفرايم زوروف** مدير مركز سيمون فوزنتال لملاحقة النازيين، ومقره القدس، لم تكن أقل اضطراباً وتوتراً وغضباً، وإن كانت أكثر دهاءً، فهو إلى جانب التَّصريحات المماثلة لما سبق، عقَّب قائلاً: «نحن نعدُّ هذا الأمر خيراً، لأنَّه يعكس عداءً دفيناً للسامية، ولا يمكن إقامة سلام مع دولة تنكر المحارق».

فلماذا كلُّ هذا الهيجان؟ وما معناه؟

ليس من حقِّنا في عرف الدولة الإسرائيلية أن نناقش أي ادعاء تدعيه هي أو الحركة الصهيونية برمتها، وربَّما ما يقوله أي يهودي، ومن ثمَّ يجب أن نقر ونعترف أن أكثر من ثلاثين مليون يهودي قد أحرقوا في أفران الغاز الهتلرية، حتَّى ولو لم يكن يوجد في كل المقاطعات الألمانيَّة يهودياً واحداً !!

وعلينا أن نصدِّق أنَّ اليهود هم المقصودون بهذه المحارق حتَّى ولو أدخلوها خطأً !! وبمثل هذا المعنى أعلن **ديفيد ليفي** وزير الخارجية الإسرائيلي غداة إشراك حزب **يوج هايدر** في الحكومة قائلاً متحدياً: «يجب على العالم ألا يقتنع إلا بما نقتنع به، ويجب أنَّ تظل حقيقة الأفران الهتلرية مفروضة على كلِّ الأذهان شاءت أم أبت..!!».

صحيحٌ أنَّنا لن نناقش حقيقة هذه المحارق وأبعادها، لأنَّ هذه الحقيقة والأبعاد باتت بحكم البداهات في ذاكرة التاريخ. إلا أنَّنا لا نستطيع أبداً أن نفقأ

عين المنطق لنجعله أعور، وحتى لو عورناه فإنَّه سيظل منطقاً لا يقبل بأن يكون الشيء غير ذاته، ولا أن يكون الشيء موجوداً وغير موجود في الآن ذاته... وأعني بذلك أنَّنا وإن سلمنا جدلاً بأنَّ أفران الغاز الهتلرية قد التهمت خمسين مليوناً من اليهود (بالمناسبة، لقد تغير هذا العدد الذي تضعه الصهيونية أكثر من مرة، فقد بدأ بنحو بأقل من مليون بعيد الحرب العالمية الثانية، ثمَّ وصل بعد فترة وجيزة إلى مليونين، واستقر إلى حدٍّ عند ستة ملايين، ولعله سيصل إلى ثلاثين أو خمسين مليون إذا تطلب الأمر ذلك)، أقول حتَّى لو صدقنا أن أفران الغاز قد التهمت خمسين مليوناً، على الرُّغم من أنَّه لم يكن في كلِّ المقاطعات الألمانية كلها أكثر من ثلاثة ملايين يهودي، إلا أنَّنا لا نستطيع أبداً أن نتجاهل مذكرات اليهود ذاتهم المنشورة، واعترافات اليهود ذاتهم المنشورة، التي بينت أنَّ اليهود ذاتهم، والحركة الصهيونية ذاتها، هم الذين لعبوا الدور الأكبر في هذه المحارق، وحتَّى لا نتهم بالتجديف والاختلاق نحيل إلى محاضر التحقيق في هذه المجازر، وأسماء المتهمين أو المجرمين، وما نشرته الصحف والمجلات منذ تلك الفترة عنها، ومنها مذكرات الدكتور **رودلف فربا**، أحد الفارين من معتقل آوشوتيز، التي صدرت في عام ١٩٦١م، ونشرت في جريدة لندن ديلي هيرالد، وإلى اعترافات **إيخمان** المنشورة في مجلة لايف في عدديها الصادرين في ٢٨تشرين الثاني و ٥ كانون الأول ١٩٦٠م... وغيرها كثير موجود في معظم الكتب والدراسات التي تتناول هذا الموضوع.

والذي لا يقره المنطق أيضاً أن تكون النازية موجهة ضدَّ اليهود وحدهم، فهي مشتهرة بمعاداتها للأجانب على العموم، لا لليهود وحسب، ولقد استغلت الحركة الصهيونية ذلك لتقحم اليهود، بمنتهى البرود، في هذه المعمعة، وهذا

الأتون، لتحقيق مكاسب أخرى. تماماً كما فعلت هي ذاتها والعصابات اليهودية عندما فجرت الباخرة باتريا التي تقل نحو ألفي يهودي مهاجر إلى فلسطين في الخامس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٤٠م.

وعندما فجرت الباخرة ستروما التي تقل نحو ثمانمئة يهودي مهاجر إلى فلسطين، قرب السواحل التركية في شباط من عام ١٩٤٢م.

وعندما نسفت العديد من المباني اليهودية في بغداد لإرغام اليهود العراقيين على الهجرة في عام ١٩٤٨م، فقد «قام الجواسيس الإسرائيليون في العراق بكشف وثائق مزورة تثبت معاداة اليهود العراقيين لوطنهم، وعمد هؤلاء الصهاينة إلى تعميم مثل هذه الوثائق على العالم العربي كله، ولهذا السبب نفسه قام الجواسيس الإسرائيليون بخزن الأسلحة في المعابد اليهودية على نحو أشعر أحست السلطات المحلية بها بسرعة...

كانت نتائج تلك الأعمال مفيدة للصهاينة، فالمعابد صارت تحت مراقبة السلطات، كما أشعل اليهود أنفسهم الحرائق في معابد اليهود، وفجروها بهدف نشر الرعب بين السكان اليهود... كان اسم هذه العملية: عملية علي بابا، وأدت إلى هجرة نحو مئة أربعين ألف يهودي إلى فلسطين»(٦٧).

وغير ذلك الكثير مما اعترف به قادة اليهود بعد أعوام، وليعلقوا ببرود غير المكترث على هذه المجازر اليهودية بحق اليهود قائلين: «من الضروري التضحية بالبعض من أجل إنقاذ المجموع».

(٦٧) . سيرغي سيدروف: **الصهيونية ونهج الإرهاب**. ص ٣٣.

وأعود هنا فأقول، على عدم اقتناعي: هذا شأنهم. ولكن أن يصل الأمر إلى درجة فرض قناعاتهم وأفكارهم ومتطلباتهم ... على عقولنا وصحفنا بهذه الطريقة الاستفزازية البشعة فهذا ما لا يمكن أن يقبل ولا يمكن أن يطاق، أيعقل أن تصل استهانتهم بنا إلى درجة فرض رقابتهم على عقولنا وصحافتنا وإعلامنا فلا نقول إلا ما يرضيهم، ولا نكتب إلا ما يسرهم، ولا نقرأ إلا ما يمتعهم، ولا نسمع إلا ما يمجدهم، ولا نرى إلا ما يجملهم؟؟!!

قد ينقلب الجلاد إلى ضحيَّة، والضَّحيَّة إلى جلاد، ولكن ليس أبداً على هذه الصُّورة الَّتي لا يمكن أن يقبلها عقل ولا منطق!! فأي سرٍّ يكمن في هذه النمردة الإسرائيلية؟ إنَّها كما يقتضي المنطق والعقل والأخلاق والآداب والتقاليد والأعراف ... يجب أن تكون في موقع مستجدي الرضا والسماح من العرب على احتلال أرضهم وانتهاك عرضهم والمجازر التي أقامتها لهم ومنها: دير ياسين، قبية، غزة، اللد، الرملة، نحالين، كفر قاسم، الفاكهاني، صبرا وشاتيلا، قانا، الجنوب اللبناني، الحرم القدسي، الخليل ... ولكِنَّها على العكس من ذلك تماماً، إنَّها تريد أن تفرض على العرب أن يكافؤها على كل ذلك كله بخلع أثواب إنسانيتهم، ووضع عقولهم في ثلاجات المطاعم، والتنازل أكثر وأكثر... وأكثر.

ولذلك أنا لم أعد أخشى من أن تحاول إسرائيل تحويل العرب إلى بقرة حلوب، أو دجاجة تبيض ذهباً، إضافة إلى ألمانيا أو عوضاً عنها، بدعوى الأضرار التي ألحقوها بها وبسمعتها عندما نجحوا في استصدار القرار رقم ٣٣٧٩ في ١٠/١١/١٩٧٥م الذي عدَّ الصهيونيَّة شكلاً من أشكال العنصريَّة. لأنَّ الأموال مهما كثرت أقل بكثير، بل أقل بما لا يقارن، من أن نتحوَّل إلى بوق للصهيونيَّة، من أن نصبح بقعاً خالية من المعنى. ولا عجب في ذلك، ألم تخضع

بعض الدُّول العربيَّة لمثل هذه المعادلة عندما عدَّلت المناهج التَّربويَّة والتَّعليميَّة بتحويلها من معاداة الصهيونيَّة إلى محاباتها، وحذفت الآيات القرآنيَّة الَّتي تتحدَّث عن اليهود من المناهج التَّربويَّة. ورُبَّما، والعياذ بالله، إصدار طبعات معدَّلة ومنقَّحة من القرآن الكريم، الأمر الذي تحاوله الصهيونيَّة منذ زمن بعيد!!!

صحيحٌ أنَّ إسرائيل، والحركة الصهيونية لم تبتز العرب حتَّى الآن ابتزازاً علنيًّا واضحاً كما تفعل مع أوربا، إلاَّ أنَّ الوثائق والحقائق تؤكد أنَّها تمارس هذا الابتزاز سريًّا، ويصلها بسببه: المساعدات المالية، والدعم المعنوي، والتضييق العربي على الدول التي تناهضها، ومحاربة الحركات التي تعاديها. وفوق ذلك كله استطاعت إسرائيل والحركة الصُّهيونيَّة، بدعم بعض العرب أيضاً، أن تحوِّل الصُّورة اليهوديَّة، المحاطة بالقذارة والاحتقار إلى صورة إنسانيَّة، نبيلة، ديمقراطيَّة، ووضعت العرب في مكان الاحتقار والقذارة والبشاعة والجشع واللاإنسانية الذي كان يشغله اليهود.

فأي سلام يمكن أن يكون مع أمثال هؤلاء؟؟؟

إذا كان العرب يريدون إلقاء اليهود في البحر، فإنَّ اليهود يريدون تجريد العرب من كرامتهم أولاً، ومن شرفهم ثانياً، ومن عقولهم ثالثاً ... حتى يرفض البحر استقبالهم. فأيهما أرحم أمام الله وأمام التاريخ وأمام الضمير الإنساني؟!

هذا هو العنوان الوحيد الذي يمكن أن ينطبق على الزوبعة العاتية، بل العاصفة الهوجاء من الغبار السياسي التي ثارت في إسرائيل، فأدت إلى انتفاخ الأوداج، وتوتر الأعصاب، وتعالي نبرات الاحتجاج والتهديد والوعيد، والتسابق في التصريحات... بسبب مقال كتبه رئيس تحرير جريدة تشرين السورية، يكشف فيه بعض النقاب عن «ابتداع أسطورة المحرقة النازية لليهود، وما اعتراها من

زيادات ومبالغات ...» وعلى الرُّغم من أنَّه لم يخترع جديداً، ولم يكشف عمَّا لم يسبق إليه، ولم يزد على ما هو مشتهر في العالم شيئاً، وكأن كاتب هذا المقال قد أدخل إصبعه في عش دبابير، والعياذ بالله.

وبعد ذلك كله، وعلى الرُّغم من أنَّ كلَّ ما فيه أوضح من الوضوح، ويصرخ بصوت يصمُّ آذان جاحدين والمنكرين، يتكالب بعض العرب على الارتماء في أحضان هذا الكيان، وتقديم فروض الولاء والطاعة له، في الوقت الذي تمارس فيه إسرائيل أبشع ممارساته العدوانيَّة، وفي الوقت الذي يحتجُّ فيه العالم كله على هذه الوحشية والهمجية، والأمثلة للأسف كثيرة، آخرها مؤتمر المراجعة التاريخية الذي كان من المقرر عقده في بيروت ما بين ٣١ آذار و٣ نيسان عام ٢٠٠١م، تحت عنوان: (المراجعة والصهيونية)... ولكن هذا المؤتمر ألغي.

والذي يدعو إلى الاستغراب هو دعوة بعض من يسمون بالمثقفين العرب إلى إلغاء هذا المؤتمر، من خلال البيان الذي سمي (بيان الأربعة عشر)، وعلى رأس هؤلاء **أدونيس** وزوجته **خالدة سعيد، ومحمود درويش، وإدوارد سعيد**[٦٨].

والذي يدعو إلى مزيد من الاستغراب، ووضع مزيد من علامات الاستفهام أمام هؤلاء الأعلام هو أنَّ بيانهم هذا كان متضافراً مع دعوات الصهيونية وأنصارها لإلغاء هذا المؤتمر، فقد بدأت الضغوط لمنع المؤتمر من خبرٍ

(٦٨) . أما الآخرون فهم غير معروفين، إلاَّ بعضهم، ولماماً، وهم: محمد حربي، وإلياس خوري، وجيرار خوري، وصلاح ستيتية، ومحمد برادة، وجمال الدين بن شيخ، ودومنيك إدَّة، وفايز ملص، وفاروق مردم بك، وإلياس صنبر.

نشرته وكالة رويتر مفاده أن اللورد رئيس المجلس اليهودي العالمي طلب من رئيس الحكومة السويسرية، بصفة بلاده رئيساً للمجموعة الأوربية، الضغط على الحكومة اللبنانية لمنع المؤتمر. وتتالت الضغوط من الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية، وتلتها التهديدات الإرهابية. ولذلك كان لا بدَّ من مكافأة هؤلاء المثقفين، فقد أصدر السَّفير الإسرائيلي في باريس بياناً يشكر هؤلاء المثقفين على بيانهم، ومُنِحَ **أدونيس** جائزة جونكور الفرنسية العالمية التي ظلَّ يحلم بها منذ عشرات السنين، وقدَّم من أجلها ومن أجل نوبل تنازلات لا حصر لها.

هذا البيان الاحتجاجي ممن سموا أنفسهم بالمثقفين العرب، على معاداة الصهيونية، وعلى محاولة الكشف عن تاريخها يضع هؤلاء (المثقفين العرب) أمام كثير من علامات الاستفهام والاستهجان، ولا سيَّما أنَّ الأخيرين؛ **محمود درويش وإدوار سعيد** على الأقل مشتهرين بأنَّهما من أبرز أنصار القضية الفلسطينية والمدافعين عنها، وهذا محض خطأ[٦٩]. ولذلك ليس من عجب أن يكون هؤلاء (المثقفون) موضع استنكار العرب كلهم[٧٠]، وليس من عجب أيضاً أن يكونوا موضع تهكم من غير العرب، ففي الرسالة المطولة التي وجهها **مارك ويبر** مدير معهد المراجعة التاريخية إلى هؤلاء (المثقفين) لتبيان قصورهم،

(٦٩) . زعم إدوارد سعيد، أنَّه وقَّع على الهاتف ولم يعرف على ماذا وقَّع، وهذا لا يعفيه من المسؤولية على أي حال، أمَّا محمود درويش فلم يعتذر ولم يوضح، ومن غريب الأقدار أنَّه مشتهر على أنَّه شاعر القضية الفلسطينية الأبرز، وليس في شعره عبارة واحدة تناصر القضية الفلسطينية صراحة، فيما عبر بوضوح عن الجندي الصهيوني الذي يحمل زنابق السلام!!!

(٧٠) . أن يوجد عشرات أو مئات شاذون عن الإجماع لا ينفي إمكانية التعميم، ولا يمنع من استخدام لفظ (كل).

ومغالطاتهم، لم يجد بدًّا من التهكم بهم، والسخرية في بعض الأحيان، ومن ذلك قوله:

«فهل ترون أنَّ من الواجب ألا يسمح لمثل هؤلاء الأشخاص بالكلام في أي مكان، أم إنَّ الأمر مقتصر على لبنان وحده؟

أم فَقَطْ في لقاء ينظمه معهد المراجعة التاريخية؟

وهل تقتصر دعوة المنع التي أطلقتموها على لبنان وحده، أم ننتظر منكم دعوات مماثلة لمنع لقاءات مماثلة في فرنسا وكندا والولايات المتحدة وبلدان أُخْرَى؟

وهل ننتظر منكم انسجاماً مع دعوتكم لمنع لقاء (المراجعة والصهيونية) أن تناصروا منع كتب المراجعة، ومجلاتها، وبرامجها الإذاعيَّة؟»[٧١].

إنَّ موقف هؤلاء (المثقفين العرب) يستحضر في أذهاننا ما كتبه **محمد جميل بيهم** في عام ١٩٤٦م، عندما تحدث عن أساليب اليهود في الابتزاز قائلاً:

«واليهود الذين يسيطرون على النَّاحية الماليَّة في العالم يعرفون كيف يدركون أمانيهم مهما كانت صعبة المنال. والتَّاريخ يحدثنا عن اغتنامهم الفرص لإخضاع الجماعات السياسيَّة والدول الكبيرة كما يخضعون الأفراد، وهؤلاء أنفسهم كانوا يأملون أن يلقوا الدُّول العربيَّة واحدة واحدة، فيسخِّرون كلاً منها لمصالحهم. ولا نزال نذكر من مناوراتهم يوم ساءهم إقدام رومانيا في أوائل القرن [العشرين] على سنِّ تشريع يحرم اليهود حقَّ المساواة ويضيق عليهم، فانتظروا

(٧١) . ترجم هذه الرسالة ثائر ديب، ونشرها في جريدة **الثورة**. دمشق. العدد ١١٤٨٩ . في ٢٠٠١/٥/٢٦م.

حتَّى احتاجت رومانيا سنة ١٩٠٤م إلى المال؛ وفاوضت إنجلترة وفرنسا وألمانيا كيما تستدين منها، فوقفوا حالاً دون إتمام أيِّ قرض لها لدى هذه الدول التي يسيطرون على ماليتها. فكان لا بدَّ لرومانيا من أن تذعن مضطرة لمطالبهم. وأن تحسن أحوال إخوانهم حتَّى يفسحوا لها في المجال لاقتراض عشرة ملايين من الجنيهات»[٧٢].

ويعقِّب **بيهم** على ذلك بتساؤل محض بريء، ولكنَّهُ على براءته خطير، فيقول:

«**وماذا يمنعهم إذا قامت دولتهم في فلسطين عن استعمال مثل هذه المناورات إزاء الدُّول العربيَّة في سبيل ترويضها وفقاً لمطامعها؟؟!!**»[٧٣].

سؤال طرح منذ ما قبل قيام إسرائيل، ومازلنا نبحث له عن جواب، لأننا حتَّى الآن لم نستطع تفسير خيانات بعض الحكام العرب، وسعيهم لخدمة مصالح إسرائيل على نحو لا ينطبق عليه أي تفسير، ولا يستسيغه أي منطق، ولا يمكن أبداً أبداً أبداً أن يغفره التاريخ!!!

■ ■ ■

(٧٢) . محمد جميل بيهم: **فلسطين أندلس الشرق**. نشر المؤلف. ١٩٤٦م. ص١٠٠. ١٠١.

(٧٣) . م. س. ص ١٠١.

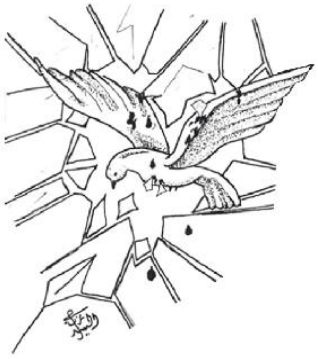

الفَصْلُ التَّاسع

العقلية اليهودية
وإمكانية السلام معها

إنَّ صورة مصرع الطفل محمد الدرة، وهو يحتمي بظهر أبيه، التي هزت العالم، وأبكت كلَّ من رآها دماً عوضاً عن الدمع، صورها الإعلام الصهيوني وسوقها للعالم على أن الطفل راح ضحية عنف متبادل**!!!**

على الرَّغم من حقيقة إسرائيل الفاقعة الَّتي تُظْهِرُ معاداتها لكلِّ سلامٍ، ولكلِّ إنسانيَّةٍ نجد بعض العرب يتهافتون على استعجال السَّلام مع إسرائيل، ويتدافعون لإقامة الصِّلات معها، معتقدين الاعتقاد اليقين بأن السَّلام مع إسرائيل هو النعيم الذي رُبَّما يفوق نعيم الجنَّة الذي وعدنا الله به.

لا شكَّ في أنَّ نشدان السَّلام مطلبٌ إنسانيٌّ نبيلٌ، ولا شكَّ في أنَّ السَّلام بحدِّ ذاته أملٌ يملئ قلب كلِّ إنسان. ولكنَّ هذا الأمل النبيل، للأسف الشَّديد يصدم بصراع رغبات الأقوياء والضعفاء فيحيله إلى سراب، ولن نتحدث عما يستحق أن يسمى بجدارة أسطورة السلام لأنَّ السَّلام بوصفه أسطورة، وبوصفه خرافة، أكثر واقعيَّة، وأقرب إلى القبول بأضعاف مضاعفة من المشكلة التي يصطدم بها المنطق والعقل حتَّى يفقد كل ما يمتلكه من اتِّساق وانسجام وتماسك.

من السهل علينا تماماً، وإن خالف ذلك المنطق والعقل، أن نفهم أو نقبل أنَّ المعتدي الجبَّار القوي يدعي بأنَّه اعتدى على الضعيف المنتهك من أجل يحمي مصالحه، أو خوفاً من اعتداء الضعيف عليه، أو لأنَّ الضَّعيف كان يفكِّر أو سيفكِّر في الاعتداء على هذا القوي الجبار... أو غير ذلك مما لا يستسيغه منطق ولا عقل.. وعلى الرُّغم من ذلك فإنَّنا نجد ما يدعو إلى الرضوخ له، وقبوله على كره ومضض...

ولكنَّ الذي لا يمكن أن يقبله عقله، ولا يستسيغه ميزان، ولا يهضمه منطق، بل ما يضرب بالحقيقة والتَّاريخ والعقل والمعقوليَّة والمنطق عرض الحائط، إلى الدَّرجة التي تضع العقل في الكفِّ كما يقولون... هو آليَّة تعامل العقلية اليهوديَّة مع كل المجتمعات البشرية في العالم، ومع العرب، خصوصاً، على مختلف مستويات التَّعامل؛ مع الحكومات، مع الناس، مع التاريخ، مع التراث، مع الثقافة، مع كلِّ ما يخصُّ العرب... والذي يستحق الحديث عنه في هذا الإطار أكثر من الكثير بكثير!!!

سننطلق من آخر الأحداث(٧٤) وهو المجزرة اليهوديَّة التي أقامها جند الاحتلال للفلسطينيين في الحرم القدسي الشَّريف التي طالت الأطفال قبل الرجال، وبصورة وحشيَّة لا أظنُّ أنَّ التَّاريخ شهد لها مثالاً أو شبيهاً؛ ففيما يحتجُّ الفلسطينيون على احتلال أرضهم، من قبل الصهاينة، بالحجارة والهتاف يقابلهم جند الاحتلال بالرصاص الحقيقي، والمدافع، ويهاجمونهم بالطائرات الحربية والمروحيَّات والصواريخ... بل ويستخدمون اليورانيوم الذي يبيد كلَّ حياة لمليارات السنين!!!

وعلى الرُّغم من ذلك تصدَّر الصورة إلى العالم على أنَّ هناك مواجهات من العنف بين الفلسطينيين واليهود، وكأنَّ الفريقين في معركة حقيقية متكافئة السلاح والعدد والعتاد. وليصبح الضُّعفاء المنتهكون المعتدى عليهم هم المعتدون...

---

(٧٤) . آخر الأحداث عند كتابة هذا الفصل، ولكِنَّه لم يكن آخرها بكل تأكيد، ولم يتوقع بل لا يجوز أن توقُّع أن يكون آخرها، فقد جاء بعده الكثير الكثير من مثله وأشد منه... وسيكون هناك المزيد.

والأمثلة التي تستحق الذكر جد كثيرة منها تصريحات **كلينتون وأولبريت** التي أظهرت الأحداث الدامية التي يفتعلها رصاص الغدر الصهيوني على أنَّها أحداث عنف متبادل، وكأنَّ ثمَّة معركة متكافئة السلاح تدور بين العزل الفلسطينيين وجنود الاحتلال، بل المصيبة الأكبر من ذلك هي تصوير **بل كلينتون ومادلين أولبريت** لمصرع الطفل **محمد الدرة** على أنَّه كان ضحية لتبادل إطلاق النَّار على الرغم من وضوح الصورة وضوحاً يفقأ عين كل زيف أو تشويه أو حرف للحق عن مساره. بل إن الوضوح الفاقع لهذه الصورة جعل إسرائيل تستغلها لصالحها إذ قامت ببعض المعالجات الحاسوبية بإلباس **محمد الدرَّة** قبعة يهودية واتهم الفلسطينيون بقتله هذا القتل البشع، وروجت صورة قتله إلى العالم على أنَّه طفل يهودي اغتاله (الإرهابيون) الفلسطينيون!!!

والأدهى من ذلك كله ما حدث يوم الخميس ٢٠٠٠/١٠/١٢م عندما أسقط الثائرون الفلسطينيون قتيلين صهيونيين مقابل نحو مئتي شهيد فلسطيني فصرَّح الأمين العام للأمم المتحدة **كوفي عنان** قائلاً:

. «إن قتل الجنديين جريمة بشعة لا يمكن السكوت عنها»..

فسوغ بذلك للحكومة الإسرائيليَّة قيامها بالقصف الهمجي للقنابل والصواريخ لمختلف المناطق الفلسطينيَّة وبمختلف صنوف الأسلحة، وصرح **إيهود باراك** بمنتهى الصفاقة أن مقتل هذين الجنديين فرض عليه استخدام كل الأسلحة في ضرب الشعب الفلسطيني بما لا يقل عن أي حرب أبداً!!! من دون أن يخطر في بال أيٍّ منهما ذكر نحو مئتي شهيد أسقطهم رصاص الاحتلال وهمجية

المستوطنين[٧٥].. وكأن جنود الصهاينة وحدهم من البشر، وليس العرب من البشر أبداً.

إن تركنا **باراك** جانباً، ولن يسامحه التاريخ أبداً على ذلك، أفيعقل أن يصدر مثل هذا عن الأمين العام للأمم المتحدة؟

أيعقل أن يتجاهل أرواح مئتي شهيد فيعدها نسياً منسياً اغتالتهم يد الغدر وهم عزل من السِّلاح عراة الصدور، أطفال أبرياء وشبان أبرياء.. ويثور لمقتل جنديين مدججين بالسِّلاح لو أتيح لهما لقتلا العشرات من الأبرياء؟؟!!

أيعقل ألا تحتج وسيلة إعلام عربية على هذا التصريح الذي صدر عن ممثل الشرعيَّة الدوليَّة؟

وعلى الرُّغم من استمرار الصهاينة في اغتيال الفلسطينيين، وممارسة مختلف صنوف العدوان عليهم، بمختلف صنوف الأسلحة، لم يتحرك الضمير العالمي أبداً، ولكن هذا الضمير يصحو فجأة إن اغتيل أو مات صهيوني خطأ أو عمداً، فتتصاعد وتائر التهديد والتنديد والوعيد والاتهام بما حوته معاجم اللغات من اتهامات!!...

وعلى الرُّغم من كلِّ ذلك يظلُّ يتعامل العرب مع هذه تنديدات الغرب هذه كالبلهاء، وما أكثر ما انجرف بعضهم وراء تأييدها وتكرارها الغبي!!!

وإذا ما عدنا إلى التَّاريخ قليلاً فكثيراً لوجدنا أنَّ التَّاريخ اليهودي في الأرض المحتلة، والمنطقة العربيَّة ليس إلا تاريخ مجازر واغتيالات من السهل البدء

(٧٥) .كان هذا الرقم، أي نحو المئتي شهيد إبان تلك العملية، ولكن الرقم تضاعف أكثر من بكثير حتَّى إعداد هذا الكتاب للصدور، فقد وصل عدد الشهداء الفلسطينيين في هذه الانتفاضة إلى المئات، الأطفال الصغار وحدهم يزيدون عن المئتين، والجرحى عشرات الآلاف.

بعدها، ولكن من الصعب التوقف عن العد بحصر كل هذه المجازر؛ الحكوميَّة المنظمة، والتي قام بها المستوطنون، ولكن على كلٍّ حال لا يجوز أن يغيب عن أذهاننا مجازر: دير ياسين، قبية، غزة، اللد، الرملة، نحالين، كفر قاسم، الفاكهاني، صبرا وشاتيلا، قانا، الجنوب اللبناني، الحرم الإبراهيمي أكثر من مرة...

وفي مقابل ذلك لم يقم العرب أبداً بأي مجزرة من هذا النوع، ولا من نوع أقل وحشية من هذه المجازر بألف ألف مرة، بل إنَّ تعامل العرب مع اليهود على الرُّغم من احتلالهم الأرض، وانتهاكهم العرض، تاريخ مليء بالرحمة والإنسانيَّة، ولا يمكن أن ينسى التَّاريخ سلسلة الحروب العربيَّة اليهوديَّة التي تفقأ عين كلِّ جاحدٍ بإنسانيَّة العرب ووحشيَّة اليهود؛ فما من انتصار عربي إلا وأجهض بوقف إطلاق النار بهدنة تؤدي إلى تسلح اليهود وتحرم العرب من التزوُّد بأيِّ سلاحٍ، ليستمرَّ القتال بحالة فاقعة من عدم التَّكافؤ. وما من انتصار يهودي أمكن أن يتوقف إلا بمجزرة أو شبه مجزرة بحقِّ العرب، والفلسطينيين منهم بشكل خاص... وفي كلِّ مرة تبدو الصورة أمام العالم على أنَّ العرب هم المعتدون، وأنَّ اليهود إنَّما يدافعون عن أنفسهم، على الرغم من سطوع الحقيقة سطوع الشمس في رابعة النهار.

إلى هذا الحد يظلُّ الأمر مقبولاً في إطار علاقة الظالم بالمظلوم، والقوي بالضَّعيف، على عدم إمكانيَّة استساغته من النَّاحيتين المنطقية والعقليَّة. ولكنَّ الذي لا يقبله أبداً أي عقل، ولا يمكن يقره أي منطق هو العقليَّة اليهوديَّة التي لا تتصور العرب ولا تتحدث عنهم إلا على أنَّهم هم القتلة، هم المجرمون.. على أنَّهم وضيعون، حقراء، لا يستحقون العيش..!! على الرُّغم من هذا التَّاريخ

الطَّويل للمجازر اليهوديَّة في حقِّ العرب، والإنسانيَّة المفرطة من العرب في تعاملهم مع اليهود!!

ولعلَّها لن تغيب عن أذهاننا، بل لا يجوز أن تغيب أبداً، المجزرة الَّتي قلَّ نظيرها في التَّاريخ البشري، إلاَّ في ممارسات الصهاينة؛ مجزرة صبرا وشاتيلا، التي أبكت من لم يعرف البكاء يوماً، وهزت كلَّ الضمائر في العالم على قليل ما ظهر منها وأعلن، حتَّى إنَّ يهود إسرائيل أنفسهم تذمروا من هذه المجزرة، وخرج أكثر من أربعمئة ألف منهم في تل أبيب مطالبين باستقالة **بيجن وشارون،** وإجراء تحقيق لتحديد المسؤول عن هذه الجريمة الَّتي استفزَّت كلَّ الضَّمائر... وعلى الرُّغم من وضوح كلِّ شيء حاول زعماء الصَّهاينة استغلال هذه المجزرة لصالحهم، فزعموا أنَّ العرب هم الذين قاموا بهذه المجزرة ضدَّ العرب، وقال **بيجن** في ذلك:

«إذا كانوا يقتلون بعضهم بعضاً فإنَّهم سيشنقون اليهود بعد ذلك حتماً»(٧٦).

الحقُّ أنَّ الذي دعانا إلى هذا القول هو أنَّ غالبيَّة الحكام العرب مصرون على تحقيق السلام مع اليهود مهما كلف ذلك من ثمن، ويضغطون على **ياسر عرفات** لتقديم التَّنازلات ما أمكن لإرضاء اليهود حتَّى ولو كان ذلك على حساب الكرامة العربيَّة لا الفلسطينية وحسب.

هذا على الرغم من أنَّ الحكومة اليهوديَّة، واليهود في فلسطين يعلنون عدم رغبتهم في السلام، ورفضهم القاطع له، وعدم اعترافهم بإمكانيَّة تحقق السلام،

(٧٦) . سيرغي سيدروف: **الصهيونية ونهج الإرهاب** . ص١٣.

إلى درجة تدعو حقًّا إلى الذهول التام، ففي تحقيق مصور مع اليهود في فلسطين، في برنامج حمل اسم (النار القادمة)، عرضته قناة الجزيرة الفضائيَّة يوم الثلاثاء ٣/١٠/٢٠٠٠م، ظهرت المفارقات التي تفقأ عين المنطق في الأفكار والمواقف التي يحملها اليهود، وتعشش في العقليَّة اليهوديَّة في صلاتهم مع العرب فكلُّ الذين التقاهم البرنامج: يرفضون السلام مع العرب ولا يؤمنون به. وكلهم تماماً يعدون العرب قتلة ومعتدين ويزعمون أنَّ اليهود مساكين غير قادرين على قتل ذبابة. وكلهم تماماً متفقون على طرد العرب لا تهجيرهم من فلسطين من دون تعويضات، ولعل واحداً فقط هو الذي وافق على دفع بعض التَّعويضات لهم... ولننظر إلى بعض هذه النَّماذج لا كلها لأنَّها شبه متماثلة ولا حاجة إلى التَّكرار:

. سئل أحدهم عن رأيه في السلام مقابل الأرض فقال بصفاقة لا حدود لها: «إذا كان العرب يريدون السلام فيجب أن يعيدوا لنا جنوب لبنان والضفة الغربية والقطاع ودمشق وسيناء حتى النيل...»[٧٧]. وكأنَّ اليهود هم الذين يمنون بالسلام على العرب، وكأن العرب هم المحتلون، المعتدون...

. كلُّ الذين سئلوا عن رأيهم في مصادرة الأراضي العربيَّة لإقامة المستوطنات اليهوديَّة وافقوا بشدة على مصادرة الأرض العربيَّة، وقال أحدهم

(٧٧) . هذا الجواب جزء من العقيدة التوراتية القائمة فكرة شعب الله المختار، ووعد الرب المزعوم بأرض لني إسرائيل (يعقوب) تمتد ما بين الفرات والنيل. والتربية الإسرائيلية قائمة على تكريس هذه الفكرة والأفكار الأُخرَى التي سنجدها في الإجابات الأُخرَى، ويبدو من خلالها وحدها التعذر المطلق لإقامة أي سلام مع إسرائيل، وقد ناقشنا هذه الفكرة في أكثر من موضع، وكثير من الدراسات أيضاً أثبتت تهافت الادعاءات التوراتية، والوعد المزعوم بأرض الميعاد.

بالحرف الواحد: «يجب مصادرة الأرض العربيَّة من أجل إقامة المستوطنات لليهود.. وإلا فأين يمكن أن يعيش اليهود؟!».

. سئلت إحداهن عن السلام مع العرب، والمستوطنات فقالت بعقليَّة عدوانيَّة متأصلة: «لقد أخطأ اليهود في عام ١٩٦٧م لأنَّهم لم يقوموا بطرد العرب كلهم من كل فلسطين، وقد كان بإمكانهم ذلك.. لقد أخطأ **موشي دايان** عندما لم يقم بطرد العرب، لأنَّه لو طردهم لعاش اليهود مرتاحين...».

. سئل أحدهم عن رأيه بإمكانية قيام سلام مع العرب فقال بوقاحة غير غريبة: «**نعم.. السلام ممكن معهم.. إذا رحلوا عنا ولم يبق واحد منهم هنا، عندها سيتحقق السلام لشعب إسرائيل**». ولو اكتفى بذلك لكان الأمر مقبولاً على عدم قبوله، لأنَّ رحيل العرب وتركهم اليهود يعيثون في فلسطين كما شاؤوا ليس كافياً ليعيش العرب بسلام، فهو سلام لليهود فقط «وليس سلاماً للعرب..»، **ويتابع قائلاً**: «**إنَّنا ندعو الله أن يزيلهم من الوجود.. هذه هي آراء الشعب الإسرائيلي كله..**».

. وفي الإطار ذاته قال آخر: «ليمح اسمهم.. لا مجال لأيِّ تسوية، السلام غير ممكن مع العرب.. أنا لا أقترح ترحيلهم بل أقترح طردهم من دون أي تعويض... إنَّهم قتلة».

. وأخرى قالت: «الشعب الفلسطيني وضيع حقير، قادرون على الذبح والقتل في كلِّ وقت.. اليهود لا يستطيعون قتل ذبابة...».

بل إنَّ زعماءهم أكثر عدائيَّة بما لا يقاس فكل رؤساء الحكومات الإسرائيلية منذ تأسيسها من أعلام الإرهاب وأصحاب السجلات الممتلئة

بالجرائم والمجازر ضدَّ العرب، وعندما سقط الشهداء الخمسة الأوائل في الانتفاضة الراهنة (الثانية) قال **أرئييل شارون** كما ذكرت جريدة لوي فيغارو الفرنسية: «هذا هو السلام الذي نريده». وقال بعد أيام، في الخبر ذاته، «أنا لن أدخل مع **باراك** في الحكومة.. ولكني سأقف معه بكل قوَّة طالما أنَّه يقتل الفلسطينيين».

فيما كان **عوفاديا يوسف** زعيم حزب شاس الديني قد وصف العرب مع بدء الانتفاضة الثانية بأنَّهم ثعابين وأفاعي، وقد خلقهم الله ثمَّ أسف على خلقهم!!! وكرر هذه الشتائم ثلاث مرات خلال سنة واحدة. وعلق **عوفر شيلح** في جريدة يدعوت أحرنوت في أوائل تشرين الأول عام ٢٠٠٠م على ذلك بمقال حمل عنوان (**عفواديا يعبر عن الأغلبية العظمى**) وقال:

«ما قاله **عوفاديا يوسف** عن العرب يعبر جيداً عما تفكر فيه الأغلبية الحاسمة من جمهوره، وهو بصيغة شعبية سمعها كل واحد منهم عدة مرات في حياته وهي: (لا تصدق العربي حتَّى بعد أربعين سنة في قبره)». ويختم بقوله: «المشكلة أنَّ كلمة ثعابين ليست بالشتيمة الكبيرة عند العرب».

وبعد ذلك يأتي **أفيجدور ليبرمان** وزير المواصلات الإسرائيلي ليعلن أَنَّهُ (بوصفه وزيراً للمواصلات) مستعدٌّ لتوفير وسائل نقل للمعتقلين لنقلهم إِلَى مكانٍ لا يمكن العثور عليهم فيه». وأَنَّهُ «يفضل إغراق الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين في البحر الميت»[٧٨].

78( ) ـ قال ليبرمان هذا الكلام في اجتماع الحكومة الإسرائيلية الأسبوعي الذي انعقد يوم الأحد ٦/٧/٢٠٠٣م.

وكان رئيس الحكومة الإسرائيلية **إسحاق شامير**، قد شتم رسول الله ﷺ وتحدث عنه بكلام سوقي بذيء. على منبر الحكومة في ١٩٨٩/٥/٢٧م.

وعلى الرُّغم من كل التنازلات التي قدمها العرب لإسرائيل عبر تاريخها، مروراً باسترداد سيناء من غير سيادة، وتنازلات الأردن، وصولاً إلى تنازلات الفلسطينيين الكبيرة والكثيرة... يقول **عوفر شيلح** في المقال السابق ذاته:

«لَقَد جرَّبنا كلَّ شيءٍ، ذهبنا حتَّى النهاية، وليعلم أولادنا أنَّه لا يوجد في هذه المرحلة من نتفاوض معه»...

فماذا يريدون أكثر من هذه التَّنازلات الَّتي وصلت إلى حدٍّ لا يطيقه الشَّارع العربيُّ، ويستغرب منه أعداء العرب قبل أصدقائهم؟؟!

والسؤال، بل الأسئلة التي تفرض ذاتها بقوَّة كثيرة جدًّا، منها على سبيل المثال:

. إذا كانت تلك المقدمات الوحشية اليهوديَّة قد أفرزت أو أدَّت إلى هذه النتائج في العقليَّة اليهوديَّة فماذا يمكن أن تكون النتائج لو أنَّ العرب أقاموا مجزرة واحدة لليهود؟؟!!

. وإذا كان اليهود بهذه العقليَّة الأكثر من عدوانيَّة تجاه العرب على الرغم من كلِّ ما فعلوه في حقِّ العرب فأي سلام هذا الذي يمكن أن يكون مع هذه العقليَّة؟

. وأي منطق هو الذي سيحكم هذا السلام؟!

والذي يزيد الطين بلة، وهو ما يعرفه اليهود قبل العرب حقَّ المعرفة، ويعرفه الغرب مثل اليهود، ويعرفه العرب أنفسهم، أنَّ العرب هو وحدهم في العالم الذين عاملوا اليهود معاملة إنسانيَّة، إن لم تكن كاملة الاحترام فإنَّها الأكثر

احتراماً لليهود في العالم كله، ولا أبالغ إذا قلت إنَّها الأكثر احتراماً حتَّى اللحظة الراهنة، على الرُّغم مما تبدو عليه السيطرة اليهوديَّة في العالم، لأنَّ السيطرة اليهوديَّة في العالم الغربي، وأوربا الشرقيَّة ليس إلا سيطرة على وسائل الإعلام، وبعض القوانين، وتدخل في السياسة، أمَّا النَّاس فإنَّ حقدهم المضمر على اليهود، ومقتهم اليهود أكثر بكثير مما يحمله العرب لليهود من حقد على الرغم من احتلال اليهود أرض العرب!!!

وهنا أيضاً يجب أن نعيد التساؤل:

إذا كان العرب، على الرُّغم من كلِّ ما نالهم من اليهود، يعاملونهم هذه المعاملة التي هي أفضل معاملة لليهود في العالم، وعلى الرغم من هذه المعاملة، وعلى الرغم من كل الممارسات اليهوديَّة الوحشية في العالم العربي، وبشكل خاص في فلسطين.. إذا كان اليهود على الرغم من كلِّ ذلك ينظرون إلى العرب هذه النَّظرة فأي خير يرتجى من السلام معهم؟ بل أي سلام هو الذي يمكن ان يقوم مع هؤلاء اليهود؟؟!!

إنَّ الأكثر خطورة من كلِّ ذلك هي أنَّ هذه حال العرب مع اليهود منذ ما قبل إقرار الأمم المتحدة للكيان الصهيوني بفلسطين، وظلت وتائره تزداد في الظهور كلَّ يوم أكثر من اليوم الذي يسبقه... من دون أن يتعلم العرب من ذلك درساً صغيراً يعينهم في التعامل مع اليهود الصهاينة، فيتهافتون على استعجال السلام مع إسرائيل ويتدافعون لإقامة الصلات معهم، معتقدين الاعتقاد اليقين بأن السلام مع إسرائيل هو النعيم الذي ربما يفوق نعيم الجنَّة الذي وعدنا الله به. ولا يكتفون بذلك بل يمارسون ضغوطهم وحصارهم على الدول التي تحاول الصمود في وجه الصهاينة، ويصفقون في الخفاء والعلن لكلِّ

مهرول إلى التَّطبيع مع إسرائيل... على الرُّغم أيضاً من نتائج التَّطبيع المدمِّرة الواضحة وضوح الشَّمس!!

فَمَتَى يَتَعَلَّمُ العَرَبُ؟

وَمَتَى يستفيدونَ لا مِنْ دروس التَّاريخ؟

بلْ مِنْ دروس الواقع الذي يعيشونه؟؟!!

أنا لست أدري.

فليتني ألتقي بمن يدري.

* * *

الفصل العاشر

تضافر القوى الإسرائيلية
على قمع العرب

منذ اللحظات الأولى لمؤتمر السَّلام الذي زُجَّ به العرب ما بين راضين ومكرهين بدا من الخطاب الإسرائيلي، الذي تولى أمره رئيس الحكومة إسحق شامير، أنَّ إسرائيل تريد السَّلام بكلِّ قوَّة، ولكن من دون أيِّ تنازل من أيِّ نوعٍ كان!!

لَقَد انخرط العرب في شبه إجماعٍ على أنَّ السلام هو خيارهم الاستراتيجي الذي لا بديل عنه على الإطلاق مهما كانت خيارات إسرائيل وأمريكا والعالم!!!

من أطرف ما مرَّت به مفاوضات السَّلام بين العرب وإسرائيل هو التنافس العربي المخزي على ممارسة سياسة إعطاء الفرص لحكومات الأحزاب الإسرائيليَّة المتنافسة على السُّلطة.

والأطرف من ذلك بما لا يقاس هو أنَّ يظلَّ هذا التَّنافس العربيُّ مستمرًّا على قدم وساقٍ حَتَّى الآن على منح الحكومات الإسرائيليَّة الفرصة تلو الفرصة.

من المؤَكَّد أَنَّهُ سيكون من باب الغرابة أن يتساءل أحدٌ عن وجه الطَّرافة في ذلك. ولا أظنُّ إلا أنَّ اليهود أنفسهم ينظرون إِلَى هذا التنافس العربي على أَنَّهُ من أغرب الغرائب وأعجب العجائب، وما أكثر من أبدى شديد دهشته منهم من هذا السُّلوك العربي الذي يمتنع على المنطق قبوله، ويتعذَّر على العِلْمِ تفسيره.

منذ اللحظات الأولى لمؤتمر السَّلام الذي زُجَّ به العرب ما بين راضين ومكرهين بدا من الخطاب الإسرائيلي، الذي تولى أمره رئيس الحكومة **إسحق شامير**، أنَّ إسرائيل تريد السَّلام بكلِّ قوَّة، ولكن من دون أيِّ تنازل من أيِّ نوعٍ من التَّنازلات، وعلى رأسها الانسحاب من الأرض المحتلة، بغضِّ النَّظر عن

مفهوم الأرض المحتلَّة. وهذا ما شكَّلَ صفعة قاسية لمؤتمر السلام جملة وتفصيلاً، بدءاً من الرعاة وصولاً إِلَى الرعيَّة، ولكن أحداً لم يناقش ذلك، ولم يرد إثارة الانتباه إِلَى هذه الصَّفعة إلاَّ وزير الخارجية السوري **فاروق الشَّرع** الذي لم يفته ذلك، ولم يستطع السكوت، فاضطر إِلَى تصعيد خاطبه إِلَى المستوى الذي لا يسمح بمرور هذا التَّجاهل للحقوق من دون ردٍّ مناسب، فأخرج هويَّة **إسحق شامير** الَّتي يعرفها الجميع ويغضُّون النَّظر عنها، وهي هويَّة الإرهابي الذي ظلَّ مطلوباً للعدالة زمناً في أوربا، وبيَّن ذلك من خلال صحيفة بريطانيَّة تعلنه مطلوباً للعدالة على طريقة الكاوبوي الأمريكيَّة (مطلوب حيًّا أو ميِّتا).

لم يصرِّح **شامير** بعدم عزم إسرائيل على الانسحاب من الأراضي المحتلة موضوع التفاوض، ولكنَّ كلَّ خطابه كان يشير إِلَى ذلك بقوَّة. وليس هذا فحسب بل إنَّ خطابه كان خطاب مُقْبِلٍ على حرب لا خطاب مُقْبِلٍ على سلام.

هذه هي لحظة بداية السَّلام الإسرائيلي، وهي ذاتها لحظة النِّهاية، وهي ذاتها ما بينهما من لحظات لم تنقطع، ولم تتوقف، ولن يكون لها مثل ذلك. وعلى الرَّغْمِ من ذلك هلَّلَ العربُ للسلام، وبدأوا يحاولون التَّسابق العلني في كسب ودِّ الكيان الصهيوني بعدما كانوا أفضوا بما أفضوا به سرًّا قبل مؤتمر السَّلام، بل منذ إنشاء الكيان الصهيوني.

كانت المفاوضات تجري في مدريد، وفي الوقت ذاته كانت قوَّات الاحتلال الصهيونيَّة تقصف القرى اللبنانيَّة، واليهود يُهَجَّرُون بالتآمر أو يهاجرون بعشرات الآلاف من أنحاء العالم إِلَى الكيان الصهيوني، وكانت المستعمرات تتكاثر تكاثراً انشطاريًّا... وعلى الرَّغْمِ من ذلك لم يرفع العرب

عقيرتهم ولو لمحض الاحتجاج على أيٍّ من السلوكات الإسرائيليَّة الدَّالَّة على رفضها القاطع للسَّلام، وسعيها الظاهر إِلَى تدمير العمليَّة السلميَّة وتعطيلها(٧٩). وإذا لم يكونوا قَدْ قاموا بهذا الأمر السَّهل اليسير الذي لا يكلِّفُ درهماً واحداً فمن باب أولى أنَّهم لم يفكِّروا في ممارسة أيِّ ضغط على أيِّ بلد من بلدان العالم الَّتي تصدِّر اليهود إِلَى فلسطين المحتلَّة. ولا على إسرائيل لتثبت أنَّها تسعى حقًّا إِلَى السَّلام، ولا على الولايات المتحدة الأمريكيَّة الأب الروحي للكيان الصهيوني لتثبت أنَّها تستحقُّ فعلاً رعاية مفاوضات السَّلام، وأَنَّها تنوي فعلاً إرساء السَّلام في هذه المنطقة من العالم.

المصيبة أنَّ الأمر لم يقف عند هذا الحدِّ وحسب، بل تجاوزته إِلَى ما يصعب على العقل تفسيره، وهو أَنَّهُ في ظلِّ هذه الممارسات كلِّها، وفي ظلِّ وضوح عدم أيِّ مؤشِّر أو شبهة مؤشِّرٍ على أنَّ إسرائيل تريد السلام كان العرب، وأقصد الحكام والحكومات تحديداً، قَدْ دخلوا في شبه إجماع على أَنَّهُ يجب إعطاء إسرائيل الفرصة لتحقيق السَّلام. وزِيْدَ الطينُ بِلَّة بالإعلان الرسميِّ العربي عن أنَّ الخيار الاستراتيجي لهم هو السَّلام، في حين لم تعلن إسرائيل أبداً حَتَّى الآنَّ أنَّ خيارها هو السلام، ولا أنَّ السَّلام أحد خياراتها على الإطلاق، وإنَّما كلُّ الدلائل والمؤشِّرات والممارسات تقول إنَّ خيارها هو الحرب، والحرب وحسب. وفي المقابل تماماً ما زال العربُ يصرُّون على أنَّ خيارهم الاستراتيجي هو هو، السَّلام

(٧٩) ـ بينا في غير هذا الموضوع مفهوم إسرائيل للسلام، ورغبة اليهود في السلام فعلاً، ولكن على طريقة المنظمة الصهيونيَّة الَّتي تريد ضمان الأمن لليهود على حساب كرامة العرب حصراً، مع ضمان التعامل معهم على أنهم شعب الله المختار، وما عداهم من الأغيار الذين خلقوا ليكونوا خدماً وعبيداً لبني إسرائيل. وسنبين السبب المباشر والحقيقي الذي يقف وراء هذا السلوك الإسرائيلي في فصل قادم يحمل عنوان: الموقف الأمريكي من السلام العربي الإسرائيلي.

السلام، والسلام وحسب، حَتَّى ولو أرغمهم العالم كله على الحرب، ورُبَّما حَتَّى ولو أكلت إسرائيل الأرض العربيَّة قطعةً قطعة، أو دفعة واحدة.

النُّكتة هنا هي أنَّه كُلَّما أعلنت إسرائيل الحرب خياراً لها قابلها العرب بإعلانهم السلام خياراً استراتيجيًّا لهم على الرَّغْمِ من إسرائيل؛ إسرائيل تدعوهم للحرب، وهو يدعونها إلَى فنجان قهوة عربيَّة.

كُلَّما شنَّت إسرائيل حرباً، أو أقامت مجزرة لشعبنا العربي في أيِّ مكان، تنطَّع الحكام العرب أو المسؤولون بمبادرةٍ هدنةٍ أو صلحٍ أو تسويةٍ تكون على حساب الدم العربي المنسفح الذي سرعان ما يصير مهدوراً بلا ثمن، وتصير التسوية بالضرورة على حساب الكرامة العربيَّة الَّتي لم يعد أحدٌ في ظلِّ راهن الظروف يعرف لها موضعاً أو مصيراً!!

قَدْ يظنُّ من لا يعرف الحقيقة أنَّ في هذه الممارسة حكمة عربيَّة، أو شيء من الحكمة، والحقيقة خلاف ذلك تماماً، فالواقع والممارسة يدلان قاطع الدلالة على أنَّها الذلة، ومنتهى الذلَّة، مع منتهى السرور بهذه الذلَّة!!!

صحيحٌ أنَّ فكرة أنَّ السَّلام هو الخيار الاستراتيجي للعرب لم تبدأ مع مؤتمر السَّلام، فالرُّجوع إلَى الصحافة العربيَّة، والأدب العربي منذ وعد الشُّؤم الذي أطلقه **بلفور** في عام ١٩١٧م لوجدنا معظم رؤساء الأمَّة العربيَّة، وكانت كلها مستعمرة، يحملون فكرة الأخويَّة لليهود، وشعار السلام الاستراتيجي بمعنى من المعاني. وكثرت هذه الأفكار في ممارسات الحكام العرب في فترة تأسيس الكيان الصهيوني، وهذا أحد أبرز عوامل قيام إسرائيل الَّتي كانت رُبَّما ستقوم مهما قدَّم الغرب من تضحيات، ولكن الغباء العربي، والخيانة العظمى هي الَّتي كرَّست وجود هذا الكيان، ويسرت سبل قيامه. ورُبَّما يكون من المناسب أن

نستشهد بأبيات لشاعر لم يحظ بأقلِّ أقلِّ ما يستحق من الشهرة هو الشاعر **فيصل البليبل**، والأبيات من قصيدة كتبها عام ١٩٦٢م تحت عنوان: مهمة الجيوش العربيَّة في الكويت، وأرسلها إِلَى أمين الجامعة العربية، ورؤساء الحكومات العربية، وقادة الجيوش العربية، وحاكم الكويت، وقائد الجيوش العربية في الكويت. ومن أبيات هذه القصيدة قوله:

أغْفَـــى سَـــلاطينُنا والقـــدسُ تنـــدبُهم
هـــل أيقظـــتْ صَـــيحةُ القـــدسِ السَّـــلاطينا؟!

فـــي كـــلِّ يـــومٍ لإســـرائيل مذبحـــةٌ
فينـــا وَنـــزعمُ أنَّ الحلـــم يُثْنِيْنَـــا

فَمَـــا أُعـــدَّتْ لهـــم إلا شـــتائِمُنا
وراحَ يـــدعو لـــدين السِّـــلمِ حادينـــا!!

نُحْـــدَى إِلَـــى السِّـــلمِ والعـــدوانُ يصـــفعُنا
أيـــن المســـيحُ ليســـعى خَلْـــفَ حادينـــا؟!

قـــل للســـحائب مهمـــا جـــفَّ وادينـــا
فلـــن تُمـــدَّ إِلَـــى الـــرَّحمنِ أيـــدينا

هذا هو خيار السَّلام الذي لم يتغير مضمونه منذ قيام الكيان الصهيوني، ولن نستفيض كثيراً هنا في هذا الأمر فهو موضوع حديث آخر، وحسبنا الإشارة

هنا إِلَى هذه الفكرة. ولكن شعارات خيار السلام خياراً استراتيجيًّا عند العرب أوغلت في التمادي إعلاميًّا بعد مؤتمر مدريد، وصارت شعاراً مقيتاً يستجلب الغثيان والإقياء والتقزُّز. ذلك أنَّ إعلان السَّلام خياراً استراتيجيًّا قبل مؤتمر مدريد للسَّلام لم يكن يعني أَنَّهُ الخيار الوحيد، ولم يلغِ الخياراتِ الأُخْرى، فقد كان خيار الحرب قائماً، وكان خيار الدفاع عن النفس قائماً، وخيار السَّعي لتحصيل الحقوق قائماً. وفي هذا يدخل إِلَى النَّفس الطُّمأنينة مهما كانت إمكانات هذه الخيارات ضعيفة، بل حَتَّى ولو كان الأمر على الورق فَقَطْ، وحَتَّى ولو كان محض خداعٍ، وحَتَّى ولو كان الخداع مكشوفاً، فإنَّ ذلك يدلُّ على بعض الحياء.

أمَّا بعد مؤتمر السَّلام فقد سقطت كلُّ الأقنعة، وأُسْقِطَتْ كلُّ الخيارات دفعةً واحدةً، وراح العرب معظمهم يتصرَّفون على أساس أَنَّهُ لا حرب بعد اليوم مهما كان ومهما سيكون. وحورب كلُّ من يفكِّر في إحياء أيِّ خيار آخر غير خيار السَّلام.

يبدو أنَّ ما يستحقُّ الوقوف عنده هنا أمورٌ كثيرةٌ لا أمرٌ واحدٌ. رُبَّما يكون في غير هذا الموضع متسع من المجال للمناقشة، والتوسع في هذه المناقشة، ولكنَّ أمراً واحداً على الأقل لا يجوز تجاوزه في مثل هذا الموضع، ورُبَّما نقف عند تساؤلات تصعب الإجابة عليها، وهي أنَّ سياسة إعطاء الفرص للحكومات الإسرائيليَّة المتتالية عقب مؤتمر السلام تنطوي على تناقضات غريبة عجيبة توحي بالغباء السياسي العربي، أو محض الجهل الذي لا علاج له، أو احتمال ثالثٌ كثر تكراره في الشارع العربي في الآونة الأخيرة إِلَى درجة صعوبة الخروج من شِرَاكِهِ، وهو التآمر أو الخيانة.

من المعلوم أنَّ حزبين أساسيَّين ما زالا يتناوبان إلَى حدٍّ ما يتناوبان السلطة في الكيان الصهيوني هما الليكود والعمل، فإذا نجح العمل في الفوز في الانتخابات قرعت طبول الفرح والسرور والاستبشار ومزاميرها في ساحات الحكام العرب معظمهم وأبواقهم الإعلاميَّة، لأنَّ حزب العمل حزب سلام، والعرب هم من شهره بأنَّهُ حزب الحمائم؛ حمائم السلام. وبعد ذلك لا يستحي بعض الحكام العرب من إرسال باقات الورود تهنئة للحزب بفوزه. وترتفع الأصوات (العربيَّة) بأنَّ الفرصة الآن لإقامة السلام فرصة قويَّة، فتنشط العلاقات العربيَّة مع إسرائيل، وتزاد الاتفاقات التِّجاريَّة، وتنفتح آفاق التعاون في كثير من الميادين!!!

أمَّا إذا نجح حزب الليكود الموسوم بحزب الصقور، أو المتشددين، في الفوز بالسُّلطة تداعت أبواق النعيق العربيَّة إلَى دعوة منح الحزب الفرصة لاستعادة أنفاسه واستجماع الرأي العام معه من أجل استمرار مفاوضات السَّلام، وتذرَّعوا لذلك بحجج تبدأ ولا تنتهي، وتتغير بتغير الظروف والمعطيات المحليَّة والعربية والدوليَّة.

المفارقة هنا، والغرابة، توجب الدهشة حقًّا!!

في بدايتها سنجد أنَّ الحزب الذي يعوِّل عليه الحكام العرب آمالهم في تحقيق الوحدة العربية الإسرائيليَّة الذي هو حزب العمل إنَّما كان في حقيقة الأمر طوال مسيرة السَّلام هو الحزب الذي لم يحقق أي إنجاز من إنجازات السَّلام، ولم يتقدم السَّلام على دوره خطوة واحدة. بل معظم المجازر الكبرى كانت على دوره، وكذلك اشتداد حِدَّة العدوان على الفلسطينيين والعرب. أمَّا الحزب الآخر الموسوم بحزب الصقور فهو الذي وقَّع على كلِّ معاهدات السلام الَّتي وقِّعت،

وعلى يديه تمت معظم الخطوات الَّتي تحقَّقت. ولا أظنُّ أنَّنا بحاجة إِلَى تبيان أنَّ كلَّ ذلك أشكالٌ من غير مضامين فيما يتعلق بالعرب، لأنَّ المضامين الحقيقيَّة لكلِّ ما تمَّ إنَّما رسمت بما يخدم المصالح الإسرائيليَّة وحسب. كما أننا، في الوقت ذاته، لسنا بحاجة إِلَى تبيان أنَّ حزب الليكود ليس أقل قتلاً للعرب، ولا أقلَّ تشريداً لهم، ولا أقلَّ قمعاً لهم، ولا أقلَّ تنكيلاً بهم.

لَقَد بات من المؤكَّد للسذَّج أنَّ الحزبين كليهما يعمل لتحقيق أغراض واحدة هي تعزيز الأمن الإسرائيلي على حساب العرب خاصَّة، وأيٍّ كان عامَّة، من دون أدنى تنازل.

السُّؤال الذي يفرض ذاته هنا، مع ما هو واضح من سياسة الحزبين الواحدة، هو: ما الفرق في الرِّسالة الإعلامية الَّتي يوجهها العرب إِلَى العالم وإسرائيل لدى التعامل مع الحزبين، وإذا كان الحزبان كلاهما متساويين في المشروع والسُّلوك والهدف فما مسوِّغ هذا اللعب على الحبال، والألفاظ وهو أبعد ما يكون في حقيقة الأمر عن أيِّ تكتيك أو استراتيجيَّة إعلاميَّة أو سياسيَّة في التَّعامل مع الكيان والصهيوني والعالم، ولماذا يكون التسابق ماثلاً في إعطاء الفرص الَّتي لا تثمر إلاَّ عن مزيد من القتل والتدمير والتشريد للعرب ولا يكون في اتِّخاذ موقف يجعل إسرائيل تفكر ولو مرَّة واحدة قبل الإقدام على أيِّ مجزرة أو تقتيل في الفلسطينيين؟!

رُبَّما يتهمنا أنصار إسرائيل من (العرب) أو غيرهم بأننا لا نجيد لغة التعامل السياسي مع الحدث، فالديبلوماسية تقتضي الظهور الدائم بمظهر محب السَّلام، لأنَّ العالم وإسرائيل ينتظرون منا غلطة ليقولوا: انظروا العرب لا يريدون السلام!

لا شكَّ في أَنَّهُ استنتاجٌ عجيبٌ. فقد بيَّن الواقع بما لا يقبل أيَّ شكٍّ أنَّ العرب مع كلِّ وداعتهم، وتأكيداتهم الدَّائمة على عشق السلام، وجعله خياراً استراتيجيًّا لا بديل عنه ولا شريك، وتنازلاتهم الدائمة والمذهلة لإسرائيل وأمريكا والغرب عامَّة... قَدْ ظلُّوا متهمين بالإرهاب والوحشية والهمجيَّة وكره الغرب... ولم يظهر عمل إرهابيٌّ في العالم إلا وكان العرب أوَّل المتهمين من دون أيِّ دليل، ومن دون انتظار نتائج التحقيق الَّتي غالباً ما تثبت براءة العرب.

الذي يعنينا هنا هو أنَّ الحزبين الإسرائيليين متفاهمان، متَّفقان على أمور كثيرةٍ، منها التكاتف والتآزر على قمع العرب إذلالهم والتَّنكيل بهم، وعرقلة أيِّ خطوة من الممكن أن تؤدي إِلَى توقيع اتفاق سلام مع العرب، سيان أكان ذلك بإرادة محض داخليَّة، أم بأوامر أمريكيَّة. والدليل على ذلك هو مسار مفاوضات السلام منذ البداية وحَتَّى الآن، والآن هنا مفتوح الدلالة وليس ظرفيًّا مرتبطاً بساعة كتابة هذا الفصل من الكتاب.

أيًّا كان الحزب الحاكم في إسرائيل بعد مؤتمر السلام، باستثناء المرحلة الشارونية الَّتي سيتحدَّث التاريخ عنها طويلاً، كانت هناك مساعٍ للمفاوضات، أو لاستمرار المفاوضات، بغض النظر عن حقيقة هذه المساعي الَّتي لا نظنها إلا لذرِّ الرَّماد في العيون، أو لتحقيق مكاسب إسرائيليَّة. وقد ثبت بالتجربة أنَّ الحزب الذي يكون خارج السلطة أيًّا كان يلعب دوما دور المعارض في استمرار المفاوضات، إِلَى الدرجة الَّتي تفرض على الحكومة الاستقالة وإجراء انتخابات مبكرة كلَّما بدت الحكومة محرجة أو متسرعة في توقيع اتفاق سلام مع العرب. ومن الثابت الآن أَنَّهُ منذ مؤتمر مدريد لم تكمل حكومة فترتها الدستورية أبداً،

وكلُّ ذلك كان من أجل تعطيل مسيرة السَّلام. وفي هذا ما يؤَكِّد أنَّ إسرائيل لا تريد السلام، وإنَّما تريد إذلال العرب وتركيعهم وتطويعهم.

لا أظننا بحاجة إِلَى أدلة تزيد عما أوردنا في الفصول السابقة، ولكن الذي حدث في الانتفاضة الثانية الَّتي اندلعت في أيلول عام ٢٠٠٠م يستوجب الوقوف عنده ولو للحظة.

في الفترات السابقة على الانتفاضة كان المعارضون لتوقيع اتفاق سلام يتداعون للاستقالة من الحكومة وإرغامها على إجراء انتخابات مبكرة، والغريب، نظريًّا، أنَّ المعارضة الإسرائيلية الَّتي تريد السلام، والَّتي يعوِّل عليها العرب كثيراً، وكثيراً جدًّا، في تحقيق السلام، أي حزب العمل واليسار الإسرائيلي، هذه المعارضة الَّتي كانت تكسر ظهر الحكومة عندما تكون على وشك الوصول إِلَى اتفاق سلام، وترغمها على تقديم الانتخابات للحصول على تأييد تفويض من الناس بتوقيع الاتفاق... هذه المعارضة ترفع عقيرتها اليوم بأكثر مما كانت ترفعه في تلك الأيام، وتخرج بمظاهرات تأييداً للفلسطينيين، وتعقد الندوات دفاعاً عن الفلسطينيين، ولكِنَّها لم تفعل أيَّ شيء يمكن أن يمنع المذابح والمجازر الَّتي يقيمها **شارون** للفلسطينيين، ولم يستقل وزير واحد من الحكومة، ولم يستقل عضو واحد في الكنيست، وكلُّ ذلك يعني من دون أدنى مناقشة أنَّ هناك إجماعاً إسرائيليًّا من كلِّ القوى على قمع العرب والتنكيل بهم وإذلالهم.

شارون الذي وصفه الإعلام الإسرائيلي قبل سواه عندما استلم السلطة بأنَّهُ غبيٌّ، وبأنه دمويٌّ، وبأنه سفَّاح... هو الوحيد الذي لم يستقل أحد من حكومته بقصد إحراجه لتسبيق الانتخابات وإخراجه من السلطة، ولم يعد، بعد

ذلك، الوصولُ إِلَى السبب معضلة، أو نتيجة تحتاج إِلَى كثير من الجهد أو التَّفكير.

رُبَّما يكفينا للتعليق على ذلك الإشارة إِلَى العقليَّة اليهودية الَّتي تحدثنا فيها في فصل مستقل من هذا الكتاب، ونترك كلَّ الشواهد الَّتي سبق ذكرها في ذلك الفصل لنقف عند أحدث الشواهد الَّتي تصوِّر التربية الإسرائيليَّة الَّتي تقوم على تمجيد سياسة **شارون** الَّتي رُبَّما لم يسبق لها مثيل في الهمجية والوحشية ضدَّ الفلسطينيين، فهذه معلمة إسرائيليَّة تقول لطلابها في الصف السادس: «العربي الجيد هو العربي الميت»، وتتابع قائلة لطلابها: «أنا أنحدر من بيت يميني ديني يؤيد **أريئيل شارون**... عندنا حزنوا على اغتيال **غاندي** أكثر من حزنهم على قتل **رابين**، وإحياء يوم الذكرى **لغاندي** أكثر أهميَّة من إحياء يوم الذكرى **لرابين**»(٨٠).

قال الحكماء: «من أعضل المعضلات توضيح الواضحات»، وقال بعضهم: «من المعيب شرح الواضحات»، لأنَّ ذلك ينطوي على استغباء المتلقي، والطعن في عقله. ولذلك لن نشرح هذا الشَّاهد، ولن نحلِّله، فدلالته من الوضوح بما يتيح للطِّفل الصَّغير أن يدركَ أبعادها.

وعلى الرَّغْمِ من ذلك فإننا ما نزال نجد من العرب من ينتظر الخير من **شارون** ومن إسرائيل!!!... ومن يهنئ **شارون** على فوز حزبه السَّاحق في الانتخابات!!!

---

(٨٠). خبر نشرته جريدة **يدعوت أحرنوت**. الأحد ٦/ ١٠٠/ ٢٠٠٢م. نقلاً عن: نشرة يومية مترجمة عن الصحافة الإسرائيلية.

* * *

الفصل الحادي عشر

الوصاية على التاريخ

وتأمين مستقبل الشعب

ما الذي حدث حتَّى تهافَت العرب تهافُت الفَراش على النار للجلوس على طاولات المفاوضات مع إسرائيل ؟ هل يأسوا من النضال وتعبوا من حمل السِّلاح، أَم استطال عليهم الزَّمان وفقدوا الصَّبر ؟!

لَقَد فرضت الولايات المتحدة على الحكام العرب الاقتناع بأنَّ إسرائيل حقيقة واقعة، ويجب أن تظل حقيقة واقعة، وأن السلام مع إسرائيل هو الحل الوحيد الذيل بديل عنه.

« **صحيحٌ أَنِّي لم أَتعلَّم بالمدارس، لكنِّي أَعرف أَنَّ صلاح الدِّين طرد الصَّليبيين بعدما ظلُّوا أَكثر من مئتي سنة محتلِّين لأَرضنا، ونحن بخمسٍ وأَربعين سنةً نعترف بوجود دولة للأَوباش على أَرضنا؛ شيء مثل الكذب**... ».

هذه كلمات قالها فلاَّح؛ فلاَّحٌ أُمِّيٌّ جاهلٌ، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، لا يعرف من الدُّنيا ـ كما نزعم أَو نحسب ـ إلاَّ: خُذِ البقر، هات البقر، حيٍّ على المحراث ... فما هي آراء النُّخبة من أُمَّتنا، وما أَقوال المثقَّفين وأَنصاف المثقَّفين، وما موقف أَرباع المتعلِّمين ...؟

الحقُّ أَنَّ هذا الموضوع شغل بالي كثيراً وبحثت عن نقطة أَنطلق منها حتَّى انقدحت شرارته بهذه العبارة المؤثِّرة، المقتبسة عن قصَّة الأَديب **تاج الدِّين موسى** المعنونة بـ: « **محمد الحمد لايوقِّع**[٨١] ». وتساءلت بداية تساؤلاً ساذجاً:

ترى هل هذا الفلاَّح هو وحده المصرُّ على عدم التَّوقيع؟

(81) ـ نشرت هذه القصة في مجلَّة المعرفة ـ دمشق ـ العدد ٣٨٠ ـ أيار (مايو) ١٩٩٥ م.

يخال كثيرون أنَّ الإجابة واضحة جليَّةً ولا تحتاج إلى أَيِّ سبر أَو استبيان أو استفتاء، ولذلك سنترك لكلٍّ ما يخاله كما هو ونُخرج تساؤلنا من صلب كلام **محمد الحمد:**

لماذا دخل العرب المفاوضات مع إسرائيل؟

أَلم يرفعوا جميعهم شعارات تهزُّ الجبال: ما أُخذ بالقوَّة لا يستردُّ إلا بالقوَّة، المنيَّة ولا الدَّنيَّة، فلسطين عربيَّة وستبقى عربيَّة ...؟

أَلم يعلن **ياسر عرفات** أَنَّه لن يتزوَّج ولن يحلق ذقنه إلاَّ في القدس بعد تحرير كامل التُّراب الفلسطيني؟

ما الذي حدث حتَّى تهافَت العربُ تهافُت الفَراش على النَّار للجلوس على طاولات المفاوضات مع إسرائيل؟

هل يئسوا من النِّضال وتعبوا من حمل السِّلاح، أَم استطال عليهم الزَّمان وفقدوا الصَّبر؟!

ظاهر ما حدث، والذي تدور عليه التَّفسيرات، هو الظُّروف والمعطيات الدوليَّة الَّتي برزت في النِّصف الثَّاني من ثمانينات القرن العشرين، بدءاً من تفكك المنظومة الاشتراكيَّة، مروراً بتفتت الاتحاد السوفيتي، وصولاً إلى حرب الخليج الثانية وتحرير الكويت، فمن خلال هذه المحاور الثلاثة برزت الولايات المتحدة الأمريكيَّة على الساحة العالمية بوصفها الشرطي الذي يستطيع ضبط العالم بصفارته، وإشارته، وثقافته، وقناعاته... وقد أرادت الولايات المتحدة أن تَحلَّ الصِّراع العربي الصِّهيوني، وتُحلَّ السَّلام في هذه المنطقة من العالم، ولسنا بحاجة إلى كثير من النَّباهة كي ندرك أنَّ غرضها من ذلك هو تحقيق السَّلام والأمان لإسرائيل، وليس محض تحقيق السلام في هذه المنطقة. لأنَّ انحياز الولايات

المتحدة لإسرائيل ليس موضع شكٍّ من الشعب الأمريكي ذاته، ولا من أي شعب في العالم، والأدلة على ذلك اشهر نار على علم، وقد زاد هذا الانحياز وضوحاً وحدَّةً في السنوات الأخيرة إلى الدرجة التي أصبحت معها هذا الانحياز ممجوجاً لا يطاق!!!

وكي تحقق الولايات المتحدة غرضها في تحقيق السلام لإسرائيل فرضت على الحكام العرب الاقتناع بأن السلام هو الحل الوحيد، وأن الحرب التقليدية قد ولَّت أيامها لأنَّ الحرب الحديثة الآن تقوم على التقانة، وحسم المعركة من الجو، وعن بعد... وهذا يعني أنَّ الحدود الآمنة قد أصبحت معنى بلا مضمون... وطالما أنَّ إسرائيل حقيقة واقعة، ويجب أن تظل حقيقة واقعة، فإن الواجب على العرب هو الاعتراف بهذا الكيان، والتفاوض معه من أجل تحقيق السلام.

إنَّ الحقيقة التي يجب إيضاحها هنا هي أنَّ العرب عموماً قد وضعوا أمام خيار صعب إثر انتهاء حرب الخليج الثانية، فإما أن يكونوا مع السلام أو أن يكونوا أعداء السلام، إما أن يكونوا مع السلام ويعترفوا بإسرائيل ويدخلوا معها في مفاوضات لتسوية الصِّراع، أو أن يرفضوا التفاوض ويكون أعداء السَّلام في عالم تقوده الولايات المتحدة وتحركه كيفما تشاء. وقد ساعد على ذلك الحملة السِّياسيَّة والإعلاميَّة العالميَّة الَّتي سَبَقَتْ مؤتمر مدريد الذي أعلن فيه انطلاق مفاوضات السلام.

إنَّ الفراغ الذي خلَّفَهُ انهيار الاتحاد السُّوفيتي، وحرب الخليج الثَّانية الَّتي دَشَّنت هذه المرحلة وضعت دول العالم كلَّها في دوامة تشبه حالة السُّكْرِ لمدة نحو السَّنتين على الأقل، لا يبدو فيهما إلاَّ أنَّ الولايات المتحدة هي القوَّة

الوحيدة القادرة على الفعل والحركة في العالم، ولم يكن العرب بعيدين عن حالة الذُّهول هذه، والشُّعور بفقدان التَّوازن على مختلف الأصعدة والمستويات، وبدا من خلال ذلك كله أن الانقياد للإرادة الأمريكية قد بات أمراً لا مناص منه. وأكبر دليل على ذلك هو أن مفاوضات السلام التي انطلقت في ساعة غفلة من العرب والعالم في الثاني من كانون الثاني عام ١٩٩٢م ما كان لها أن تكون لولا الغفلة التي أخذ بها العرب، ولو أنَّها تأخرت بضع سنوات لما بدأت، أو على الأقل لم تكن لتفرض على العرب على النحو الذي كان، بغض النظر عما إذا كان بعض الحكام العرب يسعون إلى ذلك أم لا، لأنَّ مثل هذا التفكير الفردي كان منذ قيام إسرائيل، ومن المعروف أنَّ **الحبيب بورقيبة** قد كان أول من أعلن قبوله قرار التقسيم، وعندما أطلع **جمال عبد الناصر** على ذلك وجد منه الرضا والقبول.

ولكنَّ الذي يجب تأكيده هنا أيضاً، إلى جانب هذه الحقيقة، هو أنَّ الظُّروف الدوليَّة والضغوط الأمريكيَّة ليست مسوِّغاً كافياً ولا مقنعاً لدخول العرب في مفاوضات مع إسرائيل، والاعتراف بها، لأنَّ ظهور العرب أمام العالم بوصفهم أنصار السَّلام لم يغير من حقيقة نظرة الغرب إلى العرب واتهامهم بالإرهاب والعنف على الرُّغم من أنَّهُم هم الضَّحيَّة، ولم يغيِّر من الدَّعم غير المحدود لإسرائيل من قبل الغرب كله، وعلى مختلف المستويات، ولم يرتق بالمصالح العربية على سلم الأولويات الغربية ول قيد أنملة... لَقَد ظلت المصلحة الإسرائيلية في مقدمة الاهتمامات الغربيَّة، ومراعاة المشاعر الصهيونية هي الأكثر أهميَّة من دون منازع. ومن ثَمَّ فإنَّ العرب لو رفضوا حينها الاعتراف بإسرائيل والتفاوض معها لما كان ثمَّة ما يخسروه، بل إن الخسارة كانت بقبولهم التفاوض

والاعتراف بإسرائيل، وأول ما خسره هو خيبة الأمل الكبيرة واضطراد فقدان ثقة الشعب العربي في حكامه، وتعميق الهوى والشروخ بين الحكام والمواطنين، وهذا ما لن يمكن إصلاحه في الأفق القريب أبداً.

ولأنَّ هذا السبب لم يعد مقنعاً، ولم يكن مقنعاً فإنَّنا **نظنُّ ولا نجزم أَنَّ الذي قاد العرب إلى الاعتراف بإسرائيل مبكِّراً**، والجلوس معها للتفاوض من أَجل السَّلام إنَّما **هو أَمران** لا ننفي ثالثاً لهما ولا رابعاً؛ **أَوَّلهما ضيق الأُفق الاستراتيجي، وثانيهما ضيق الصَّدر**، وهذان العاملان كلاهما أَيضاً كان السَّبب المباشر في إحباط مسعى العرب في تحصيل المتفاوض عليه أَصلاً، وفي نسف التَّعاون والتَّكامل والتَّنسيق الذي اتفق العرب على تحقيقه فيما بينهم في المفاوضات، وفي تضييق الحصار على من لم يرضخ للشُّروط الإسرائيليَّة، أَعني من دون موارية سوريا ولبنان؛ وهذا كله وقائع وحقائق يشهد بها العالم كلُّه؛ القاصي قبل الدَّاني، وليس موضع مجاملة ولا ممالأة.

إذا كان قد نسي قادةُ العرب ـ المتهالكون على التَّسليم والتَّطبيع ـ ما يفخر **محمد الحمد** بمعرفته من أَنَّ **صلاح الدِّين** قد طرد الصَّليبيين من فلسطين بعد أَكثر من مئتي عام من الاحتلال فإنَّ النَّاس كلُّها تعرف ذلك. أَقول كلُّ النَّاس ولا أُحدِّد العرب لأَنَّ هذه القصة متداولة في الغرب بما لا يقلُّ عن تداولنا لها. ولذلك فإنَّ فخر هذا الفلاح المسكين بهذه المعرفة في غير موضعه لأَنَّه لا يعرف سرًّا حكراً عليه أَو على قلَّة.

بل دعونا نتجاهل هذه القصَّة / الحادثة القديمة والحوادث القديمة كلِّها؛ أَليس في التَّاريخ المعاصر وحده عشرات القصص المشابهة؟!

كم ظلَّ الأَوربيون محتلِّين أَمريكا؟

وكم ظلَّ الاستعمار في بلادنا وبلاد غيرنا؟

وكم دامت الحرب بين بريطانيا وفرنسا في أَوربا وأَمريكا؟

وكم ظلَّ الاتحاد السوفياتي مهيمناً على أَوربا الشَّرقيَّة، وعلى الدُّول التي انطوت تحت لواء الدَّولة السُّوفياتيَّة؟

ماذا بقي من ذلك كله؟

كلُّ شيء انتهى، ومنها ما انتهى بمفاجآت مذهلة يكاد يكون من المتعذر أو الممتنع التَّكهُّن بها أَو بما يقلُ عنها، ولكنَّها حدثت! لقد خرجت بريطانيا من اليمن بين عشيَّة وضحاها، وخرجت فرنسا من ا لجزائر بمئات الأُلوف من الشُّهداء... لم يخرج الاستعمار من دولة احتلَّها إلا بتضحيات أَبنائها وأَنهر دمائه، ولكنَّ الاتحاد السُّوفياتي انهار فجأة دون سابق مقدِّمات؛ بعد انهياره كثُر المتشدِّقون الذين قالوا: كان ينبغي فعلاً أن ينهار الاتحاد السوفيتي، وهذا ما كان يجب، ولو ولولا.... ولكن قبل انهياره من ذا الذي قال أَو توقَّع أَن يحدث ما حدث على نحو ما حدث؟ لا أَحد!!

وهذا هو خطأنا؛ لقد ظنَّنا أَنَّ أَعظم مشكلة في العالم لا تدوم أَيَّاماً أَو شهوراً أَو بضع سنين في أَعظم تقدير، ومشكلتنا دامت أَكثر من أَربعين عاماً ... إنَّها همٌّ لا تحمله الجبال فكيف نقوى على حمله ؟! وجنحنا إلى الإقرار بوجوب أَن نرتاح من هذه المشكلة، وأَنَّ التَّفاوض للتَّسليم والسَّلام هو أَسلم سبيل !! لم نتذكَّر أَبداً حرب المئة عام، ولا بقاء فرنسا في الجزائر نحو المئة عام، ولا استعمار الدُّول الأَوربيَّة أَمريكا مئات الأَعوام، ولا ولا .... بل المثل الذي لا

يجهله أَحدٌ البتَّة أَنَّ أَقلَّ مدَّة احتلال لدولة عربيَّة لم تقل عن نحو ثلاثين عاماً، واستطاعت الدُّول العربيَّة كلُّها أَن تدحر الاستعمار.

إذن؛ إنَّ ضيق الأُفق الاستراتيجي، ومحدوديَّة الرُّؤيا المستقبليَّة هي التي جعلت العرب يخالون أَنَّ مصيبتهم في فلسطين هي أَعظم مصائب العالم على الإطلاق. وقد تضافر ذلك مع الظُّروف الدُّوليَّة والعربيَّة التي رافقت هذه القضيَّة من أَوَّلها وحتَّى الآن؛ الغرب يزداد تكالباً علينا، وحصاراً علينا، ودعماً لإسرائيل وتأييداً لها. **ونحن نسير مع التَّاريخ إلى الأَمام في قطع الأَشواط الزَّمنيَّة ولكنَّنا نتقهقر إلى الوراء بوتائر متسارعة، لا ندري متى تُنهي الهاوية تقهقرنا،** لأَنَّنا على الرُّغم من ذلك لا ننظر إلى أَين نسير في تراجعنا العلمي والعملي؛ الحضاري والأَخلاقي والسِّياسي والاجتماعي ... كلُّ ما ندريه أَن البحَّاثة والمفكِّرين يؤكِّدون أَنَّ البون الحضاري بيننا وبين دول المقدِّمة يزداد يوماً بعد يوم؛ **لقد كان الفرق مع مطلع هذا القرن عشرات قليلة من السِّنين وإذا به الآن مئات كثيرة من السِّنين** ... فإذا كنَّا لم نستطع تحرير فلسطين في أَفضل ظروفنا هل نستطيع تحريرها مع هذه التَّطورَّات مع هذه التَّطورات المفجعة بالنِّسبة لنا ؟!

بهذا النَّمط التَّفكيري البائس اليائس قرَّر قادة العرب دفع أَرضهم مقابل السَّلام في الوقت الذي تحاول إسرائيل إقناعنا بأَنَّها هي التي تدفع الأَرض مقابل أَن تشعر بالسَّلام.

أَمَّا الطَّرف الثَّاني من معادلة الأَرض مقابل السَّلام فهو ضيق الصَّدر عن الصَّبر، ولكن ضيق الصَّدر هنا مخالف تماماً لضيق الصَّدر في الطَّرف الأَول من

المعادلة، إنَّه نابع هنا من الإحساس بالمسؤوليَّة أَمام الشَّعب والتَّاريخ؛ يحسبون أَنَّهم هم وهم فقط دون سواهم من خلق الله كلهم الذين يعملون بحرص وأَمانة وإخلاص، يخالون أَنَّهم بموتهم سيموت النِّضال، وستموت النَّخوة والشَّهامة، وسيموت الإحساس بالمسؤوليَّة، وستنعدم الهمم ... فماذا يفعلون أَمام هذا الواقع ؟

يعتقدون، ولا يظنون مجرد الظنِّ، في قرارة أَنفسهم أَنَّ شعوبهم تنظر إليهم على أَنَّهم أَوصياء على التَّاريخ، وأَنَّ التَّاريخ رهن إشاراتهم، وأَنَّ كلاً منهم بمثابة (اليسوع) مخلِّص البشريَّة وفاديها؛ ولكنَّه مُخلِّصٌ محلِّيٌّ يفدي شعبه. وقد اقتنعوا بذلك تمام الاقتناع؛ اقتنع **ياسر عرفات** بأَنَّ الفلسطينيين لولا الخوف من الله ليصلُّون له كلَّ يومٍ ركعتين فرضَ عين لا تطوعاً!! وصدَّق الملك **حسين** أَنَّه من أَحفاد الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلَّم، وأَنَّه إن لم يأَخذ النَّاس برأفته ورحمته ويفتح لهم باب المقدس بيده فلن يكون لهم ذلك بعده. وكذلك كان شأن **الحبيب بورقيبة، والحسن الثاني، وجمال عبد الناصر** عندما اقتنعوا بهذه الفكرة وسعوا إلى السِّلم مع إسرائيل واعترفوا بقرار التَّقسيم من دون أن تطلب منهم إسرائيل ذلك. أو حتَّى أن تفكر بشكرهم... ولذلك **انطلقوا . من غير أَن يشعروا . من مقولة وصايتهم على التَّاريخ في دخول المفاوضات وتحريكها وتسريع وتائرها. فماذا كانت النَّتيجة ؟**

لقد تُوِّج (وريث الرَّسول، حاشى الرسول) وصيًّا مديراً لشؤون بيت المقدس، وباع قسماً من أَراضيه لإسرائيل، وأَجَّرها القسم الباقي حرصاً على مشاعر الإسرائيليين الذين يعملون فيها وخوفاً عليهم من البطالة. وعُيِّن

ياسر عرفات رئيساً إسميًّا لدولة فلسطين، وقائم مقام الحاكم العسكري الإسرائيلي للأَراضي الفلسطينيَّة عمليًّاً؛ مهمَّته قمع الانتفاضة[٨٢] ومحاربة النُّفوس الحرَّة التي رفضت مغادرة أَراضيها وظلَّت شوكة في حلق المحتلين، وما هي دولته؟ إنَّها قطاع غزَّة الذي أّرهق إسرائيل وأَعجزها حتَّى تمنَّت الخلاص منه مهما دفعت ثمناً لذلك.

ومن دون غضِّ النَّظر عن تاريخ هذين الرَّجلين المليء بالشُّبهات فقد وضعا سوريا ولبنان؛ اللتين وقع على كاهلهما العبء الأَكبر من القضيَّة الفلسطينيَّة، في الزَّاوية الصَّعبة والمحرجة من المفاوضات. لقد كانت أَهم الأَوراق الرَّابحة في أَيدي العرب المفاوضين هي التَّنسيق والتَّكامل، وعدم التَّوقيع إلاَّ بحصول جميع الأَطراف العربيَّة على الحقوق المتفاوض عليها وفق قرارات الشَّرعيَّة الدُّوليَّة، وإذ بالأَبوين الرُّوحيَّين للشَّعب الفلسطيني وللأَرض الفلسطينيَّة . كما يحلو لهما أَن يُسمَّيا . وبقدرة قادرٍ يتسارعان للإقرار بالواجبات المترتبة عليهما تجاه السَّلام ويتجاهلان حقوقهما ويتنازلان عمَّا لهما، وكأَنَّ شيئاً لم يكن !!

المؤسف هنا، والذي سيظل مؤسفاً مهما تغيرت الظروف والمعطيات، هو أنَّ كثيراً من قادة العرب تسابقوا ومازالوا يتسابقون للارتماء في الأحضان الصهيونية، وتتبع هذه الارتماءات يشعر وكأن الارتماء في أحضان الكيان

(٨٢) .كان هذا الكلام مخصوصاً بالانتفاضة الأولى التي اندلعت في عام ١٩٨٨م، وأنهاها ياسر عرفات باتفاق السلام السري المنفرد الذي عقده مع إسرائيل. وظل الحكم صادقاً حتَّى اندلاع الانتفاضة الثانية في الثامن عشر من أيلول عام ٢٠٠٠م عندما دنس شارون الحرم القدسي بدخلوه إليه على نحو استفزازي بحماية جنود إيهود بارك رئيس الحكومة الإسرائيلية حينها. وللأمانة والتاريخ فإن موقف السلطة الفلسطينية منذ اندلاع الانتفاضة الثانية وحَتَّى ساعة إعداد هذا الكتاب للنشر إنَّما هو موقف مشرف، أو على أقل تقدير لا تجوز إدانته.

الصهيوني هو الذي يعيد الشباب إلى الأشياخ، أو ينفخ الأرواح في الأجساد. ويعلن بعضهم قائلاً: إنَّ علاقته مع إسرائيل ستقوم مهما كانت نتيجة المفاوضات!! ويعلن بعضهم الآخر بأنَّه سيقابل كل خطوة إسرائيلية بخطوتين!! كل ذلك في الوقت الذي تعلن إسرائيل فيه على ألسنة كلِّ مسؤوليها أنَّها ضدَّ السَّلام، ولا تريد السَّلام، وتقوم بمختلف عمليات الإرهاب الوحشَّية الَّتي تؤكِّد أنَّها لا يمكن أن تكون ممن يرغب في السَّلام!!!

بربِّكم أَليس مع **محمد الحمد** الحقُّ في أَن يفكَّ تكَّة (شرواله) ليُعَصِّبَ بها رأسه كيما لا يطير منه عقله ؟!

الفصل الثاني عشر

التطبيع

بين السنة وفرض العين

لقد كانت العلاقات السَّرية الَّتي أقامها العرب مع الكيان الصهيوني على درجة من الكثرة جعلت من الصَّعب حصرها في مجلد واحد، جمع منها محمد حسنين هيكل ثلاثة مجلدات ضخمة!!!

إنَّ ما أنفق من مال ووقت وجهد وتخطيط... على الخلاف العربي العربي، والكيد العربي العربي، والمؤامرات العربيَّة العربيَّة... يفوق ما أنفق على الصراع العربي الإسرائيلي بملايين المرَّات.

لعلَّنا لا نأتي بجديد إذا قلنا إنَّ مشكلات العالم العربي، ومشكلات العرب مع العرب بشكل خاص، مرتبطة بشكل صميمي بزرع الكيان الصِّهيوني في قلب الوطن العربيِّ، فباسم القضية الفلسطينيَّة، وتحرير فلسطين، والدِّفاع عن قداسة القدس والأقصى؛ تحارب العرب مع كلِّ العرب، وتعزَّزت الحدود وتمتَّنت، وتكرَّست القطريَّة وتجذَّرت، وحَوَّلَ العربُ مواجهاتهم وتحدياتهم للقضاء على التَّخلف والفقر والاستعمار... إلى مواجهات ضدَّ بعضهم، فكثرت الأحلاف والمعسكرات التي تتغير أطرافها بين العشية وضحاها بما يدلُّ على مدى عمق المبادئ والغايات الَّتي قامت عليها هذه الأحلاف!!!

الطَّريف في الأمر أنَّ ما أنفق من مال ووقت وجهد... على الخلاف العربي العربي، والكيد العربي العربي، والمؤامرات العربيَّة العربيَّة... يفوق ما أنفق على الصِّراع العربيِّ الإسرائيليِّ بملايين المرَّات، على الرُّغم من أنَّ الخلاف دائر على القضيَّة الفلسطينيَّةِ والصِّراع العربيِّ الإسرائيليِّ. والأساليب الَّتي تحارب بها العرب أو تخاصموا تمتَّعت بدهاءٍ وحنكة لو استخدم عُشْرِ عُشْرِهَا في الحرب مع إسرائيل لكانت إسرائيل غير موجودة منذ زمن طويل... وعلى الرَّغْمِ من ذلك

كلِّه لم يتورَّع بعض الحكام العرب عن إقامة علاقات سريَّة مع الكيان الصهيوني منذ قيام إسرائيل أو بعد بأقلِّ القليل، إلى جانب العلاقات الَّتي كانت قائمة بين الحركة الصهيونية وبعض الحكام العرب منذ ما قبل قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين. ولقد كانت هذه العلاقات السَّرية على درجة من الكثرة جعلت من الصَّعب حصرها في مجلد واحد، فما استطاع **محمد حسنين هيكل** جمعه كان في ثلاثة مجلدات ضخمة(٨٣) حملت عنوان: المفاوضات السِّرية بين العرب وإسرائيل، وكان من الصَّعب أيضاً أن يستطيع باحث واحد الوقوف على كلِّ هذه العلاقات فتصدى آخرون لتأريخها منهم **شارل أندرلين** الذي وضع كتاباً في مجلدين ضخمين اسمه أسرار المفاوضات الإسرائيلية العربية من ١٩١٧م حتى ١٩٩٧م(٨٤).

ولو اقتصر الأمرُ على إقامة العلاقات السرِّية، على كثرتها المدهشة وخفاياها المريعة، لكان في الأمر ما يمكن أن يبتلع على مرارته، ولكن تجاوزا ذلك إلى تقديم الخدمات والأسرار الاستراتيجية إلى إسرائيل كي تعزز مواقعها وقوتها في حربها ضدَّ العرب، والأمثلة على ذلك، لشديد الأسف جدُّ كثيرة. وقد أمست من الشُّهرة بمكان لا يستوجب تكرارها. ولكنَّنا لا نستطيع إلا أن نذكر على سبيل المثال أنَّ إسرائيل تقوم على المال العربي بشكل خاص، سيان ما كان يصلها بشكل مضمر وغير مباشر، أو ما يصلها على نحوٍ علني غير مباشر مثل ما حدث في أثناء حرب تحرير الكويت مما بات مفضوحاً بما يتعذر تكذيبه أو

(٨٣) ـ محمد حسنين هيكل: **علاقات العرب السرية مع إسرائيل**.

(٨٤) ـ شارل أندرلين: **أسرار المفاوضات الإسرائيلية العربية** ـ ترجمة صياح جهيم . دار الفاضل . دمشق.

ستر عورته. ومن الأمثلة أيضاً قيام الملك **حسين بن طلال** في عام ١٩٧٣م بتحذير **جولدمائير** من (تآمر) سوريا ومصر على إسرائيل، والتَّخطيط لشنِّ حرب عليها. وقيام **السَّادات**، بغضِّ النَّظر عن فعاله الكثيرة، بإهداء إسرائيل الأسلحة الَّتي كان يحارب بها لتعرف أسرارها، الأمر الذي أدى مباشرة إلى انكشاف السِّلاح العربي كلِّه أمام إسرائيل وإخفاقه الأكيد في أيِّ مواجهة، وهذا ما حدث في أثناء غزو لبنان مع الجيش السُّوري الذي أُسْقِطَ في يده بسبب انكشاف أسرار سلاحه، ولا سِيَّمَا أنَّه لم يأخذ الفرصة الكافية لدرء خطر هذا الانكشاف.

ومن الأمثلة الطَّريفة على ذلك خبر تناقلته وسائل الإعلام في السابع والثامن من شباط عام ٢٠٠٠م عنوانه: (جريدة إسرائيلية تقول: المخابرات الأردنيَّة تفوقت على الموساد)، وفيه: «ذكرت جريدة (جيروزاليم بوست) الإسرائيلية نقلاً عن تقرير صحفي أمريكي أن جهاز المخابرات الأردني أصبح أهمَّ شريك لوكالة المخابرات الأمريكيَّة (سي أي إيه) في التَّصدي لمن سمَّتهم (الإرهابيين الإسلاميين)... مشيرة إلى أنَّ المخابرات الأردنية تفوقت في هذا الشَّأن على جهاز الموساد الإسرائيلي... وأصبحت أهميتهم تزيد بكثير عن الأهمية التي يتَّصف بها الإسرائيليون أنفسهم في مجال مكافحة (الإرهابيين الإسلاميين)»[٨٥].

الأكثر طرافة من ذلك أنَّ ذلك كلُّه كان مترافقاً مع ادِّعاء كلِّ دولة عربيَّة أنَّها الأمُّ الرؤوم للفلسطينيين، والأكثر حرصاً على فلسطين، والأكثر سعياً لتحرير

(٨٥) ـ انظر مثلا: جريدة **الاتحاد** ـ أبو ظبي ـ العدد ٨٩٨٣ ـ الثلاثاء ٣ ذو القعدة ١٤٢٠هـ الموافق ل ٨ شباط ٢٠٠٠م. ص٢٢.

فلسطين، والأكثر تضحية من أجل فلسطين... والذي يوصل الطَّرافة والغرابة والإدهاش إلى ما يفوق حدود الخيال؛ أخصب خيال، أنَّه لم تكد الظروف الدُّوليَّة تضع دول الطوق، أو المواجهة، وهي فلسطين وسوريا ولبنان تحديداً، أمام خيار وحيد هو مفاوضات السَّلام... حتَّى تهافتت كثير من الدول العربية على الارتماء في أحضان إسرائيل ارتماءً، لا مجرد إقامة علاقات سياسية أو تجارية أو غيرها...

إنَّ تتبع هذه الارتماءات يُشْعِرُ وكأن الارتماء في أحضان الكيان الصِّهيوني هو الذي يعيد الشباب إلى الأشياخ، أو ينفخ الأرواح في الأجساد. وعند مساءلة هؤلاء المرتمين في أحضان إسرائيل عن الأسباب الَّتي دفعتهم إلى ذلك تتفاوت أجوبتهم بين حدَّين أحلاهما مرٌّ، وأقلهما يضع العقل في الكف حيرة:

فبعضهم، باسم الاستقلاليَّة والإرادة الحرة، يمنع حق المساءلة حتَّى على أبناء شعب قطره، ويفرض التَّطبيع مع الكيان الصهيوني على شعبه بصور تبدأ بالتمهيدات اللبقة مثل الجزائر، والمغرب، ومصر إلى حد ما، ومعظم دول الخليج العربي، وتنتهي بالإكراه كما في الأردن وقطر وموريتانيا وغيرها.

وبعض آخر يعلن بلا أدنى وجل أو حياء أو حذر أنَّ العلاقات مع إسرائيل ستقوم بغض النَّظر عن أيِّ نتائج للمفاوضات. ففي التَّاسع من شهر أيلول عام ٢٠٠٠م اختتمت ما سميت بقمَّة الألفيَّة، وهناك التقى أمير قطر **حمد بن خليفة آل ثاني** برئيس وزراء إسرائيل **إيهود باراك** لقاءً وصفه ناطقٌ إسرائيلي بأنَّه لقاء حار سادته روح المحبة والصداقة. وقد علق وزير الخارجية

القطري على (الاحتجاجات العربيَّة) بقوله: إن قطر لا تأخذ إذناً من أحد للاجتماع **باراك**. وعلاقاتنا مع إسرائيل ستقوم مهما كانت نتيجة المفاوضات(٨٦).

وبعضهم يسوِّغون ذلك بأنَّهم يقيمون العلاقات مع إسرائيل لأنَّ مصالحهم الاقتصادية والسياسيَّة تقتضي ذلك. ومنهم على سبيل المثال موريتانيا، التي احتجت بأنَّها ستموت من الجوع، وربما يطردها الله من رحمته، إن لم تقم العلاقات الوثيقة مع إسرائيل... وكأن العرب لم تقل يوماً:

«تموت الحرة ولا تأكل بثدييها»

وكأنَّ العرب لم تقل(٨٧):

عِشْ عَزِيْزاً أوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيْمٌ

بَيْنَ طَعْنِ القَنَا وَخَفْقِ البُنُوْدِ

وكأنَّ العرب لم تقل(٨٨):

رَأَيْتُ الْحُرَّ يَجْتَنِبُ الْمَخَازِي

وَ يَحْمِيْهِ عَنِ الغَدْرِ الوَفَاءُ

وَ مَا مِنْ شِدَّةٍ إلاَّ سَيَأْتِي

لَهَا مِنْ بَعْدِ شِدَّتِهَا رَخَاءُ

وكأنَّ العرب لم تقل، ولم تقل، ولم تقل...

---

(٨٦) ـ انظر مثلاً: هشام حسين أبو حشيش: **أمير قطر في الجانب الإسرائيلي حتى لو فشلت عملية السلام**. ضمن جريدة **الكفاح العربي**. بيروت. عدد ٢٠٠٠/٩/٢٠م.

(٨٧) . البيت للمتنبي، انظر ديوانه.

(٨٨) . البيتان لأبي تمام، انظر ديوانه.

والأدهى من ذلك كلّ أنَّ بعضهم وثب فوق كلّ جدران الأخلاق والأعراف والمنطق والتاريخ والجغرافية وعمدوا إلى إقامة أحلاف عسكرية مع إسرائيل، والقيام بمناورات عسكرية مشتركة، وعلى رأس هذا الفريق المملكة الأردنية التي قامت بالعديد من المناورات العسكرية المشتركة والمعارك الافتراضية، منذ سنوات، بالإضافة إلى الولايات المتحدة وتركيا. وكلُّ ذلك في العلن الذي تناقلته كل وسائل الإعلام الإعلامية. ومما تناقلته وسائل الإعلام أيضاً في أواخر عام ٢٠٠٠م أنَّ الرئيس الجزائري **عبد العزيز بوتفليقة** عاكف دراسة مشروع تعاون ثلاثي: جزائري تركي إسرائيلي، تقدمت به الولايات المتحدة وتركيا، وإسرائيل من دون شك. ورجحت ميله إلى الاستفادة من النفوذ الإسرائيلي لتحسين الاستحقاقات الدوليَّة لعهده السياسي(٨٩).

وبعض آخر راح يفكر في الأساليب المناسبة لكسب ود إسرائيل ورضاها، فخرجوا علينا بحيل ظنوها ذكية تنطلي علينا، فأمير البحرين عين نائباً يهوديًّا في آخر برلمان شكَّله قبل إصلاحاته الأخيرة، بزعم أنَّه ممثل للجالية اليهودية في البحرين. أما **بوتفليقة** فقد منح الممثل الفرنسي اليهودي **روجيه حنين** وسام الاستحقاق الوطني الذهبي بدرجة (عشير)، تنويهاً بأعماله الفنية الهادفة إلى التَّواصل بين الشعبين الفرنسي والجزائري، متجاهلاً التفكير بإقامة ولو قليل من التواصل الجزائري الجزائري على الأقل، لا الجزائري العربي، ولا الجزائري الإسلامي!!!(٩٠).

---

(٨٩) ـ انظر مثلا: جريدة **الأخبار العربية** ـ بيروت ـ العدد ٨ ـ ٤ تشرين الأول ٢٠٠٠م.

(٩٠) ـ محمد مقدم: **بوتفليقة يقلد ممثلاً فرنسيا يودياً وساماً** ـ ضمن جريدة **الحياة** ـ لندن ـ العدد ١٣٧٠٣ ـ الأحد ١٩ جمادى الثانية ١٤٢١هـ الموافق لـ ١٧ أيلول ٢٠٠٠م.

والآخرون، ومعهم السَّابقون، يتذرعون بأن الدُّول التي كانت تحارب إسرائيل قد أقامت العلاقات معها، فلماذا يحق لفريق ما لا يحق لغيره ؟

إنَّ الإجابات كلِّها منطقيَّة تماماً لا غبار عليها أبداً فيما لو كانت مشكلة التطبيع والعلاقات مع غير الكيان الصهيوني، بل أكثر من ذلك لو كان الأمر يخص العلاقات مع أي دولة في العالم غير الكيان الصهيوني لما كانت ثمَّة ما يدعو أيِّ دولة إلى تقديم أي تسويغ لهذه العلاقات، بل لما كان ثمَّة ما يسمح بطرح التَّساؤلات عن سبب هذه العلاقات. أمَّا أن تكون العلاقات مع إسرائيل فهذا ما لا يمكن أن يمر من دون ملايين موجبات السؤال، والاحتجاج، والاستنكار من كلِّ عربي أينما كان، لأنَّ موانع التَّطبيع مع إسرائيل ومعيقاته أكثر من أن تعدَّ أو تحصى، وكلَّما تلاشى مانع نبعت موانع لا تتلاشى!!

فإذا كان معظم الحكام العرب، وندرة نادرة من الشعب العربي، قد ارتضوا بالرغبة الصهيونيَّة وتنازلوا عن الأرض، على الرُّغم من أنَّ الأرض تساوي العِرض، بذريعة أنَّ ما سمي بالشرعية الدوليَّة هي التي قررت ذلك، فإنَّنا سنقرهم على ذلك جدلاً، لا حقيقةً، ونلتمس لتنازلهم عن الأرض الأعذار... ونتساءل: ما الذي يدعو أو يوجب أو يمكن أن يفرض علينا إقامة أي نوع من العلاقة: سياسيَّة، اقتصاديَّة، سياحيَّة... مع كيان اغتصب أرضنا وتنازلنا له عن هذه الأرض راضين أو مرغمين؟؟! أليس يعني ذلك سرورنا وفرحنا بأنَّه اغتصب أرضنا؟ وأيُّ شعب، أو أمَّة سنكون إذا كنَّا نفرح ونسرُّ ممن يغتصب أرضنا وينتهك عرضنا؟؟!!

ومن ثمَّ إذا كانت دول الطَّوق، أو المواجهة ملزمة بإقامة حدٍّ أدنى، أو معين من العلاقات مع الكيان الصهيوني لتأكيد حسن النوايا في إقامة السَّلام،

فما الذي يدعو دولاً عربيَّة تفصل بينها وبين إسرائيل عشرات الدُّول إلى إقامة علاقات مع إسرائيل؟ قد يكون الجواب إنَّ إسرائيل دولة مثل أيِّ دولة لا يوجد ما يمنع من إقامة العلاقات معها، أو إنَّ إقامة العلاقات معها ستحقق بعض المكاسب الاقتصاديَّة، أو للأمرين معاً.

سَنُسَلِّمُ جدلاً أيضاً لا حقيقة بأنَّ إسرائيل دولة كأيِّ دولة، فهل من الضَّرورة أن تقوم العلاقات بين كل الدُّول؟ وهل كلُّ دولة مطالبة بأن تقيم علاقات مع كلِّ دولة؟ ومن ثمَّ هل ضاقت الدُّنيا بالعرب فلم يجدوا في العالم كلِّه دولة إلا إسرائيل التي تكن كلَّ الحقد للعرب، وتشكل أكبر خطر على الوجود العربي.. كي يقيموا أو يطبعوا العلاقات معها؟؟!! أليس في الأمر ما يدعو إلى وضع كثيرٍ من علامات الاستفهام والتَّعجب؟

إذن حتَّى ولو عددنا إسرائيل دولةً مثل أيِّ دولة فليس ثمَّة ما يدعو إلى عدِّ إقامة العلاقات معها ضربة لازم، أو مثابةً بفضلها تدخل النَّاس الجنَّة.

الذريعة الأخيرة التي بقيت للمهرولين هي تحقيق المكاسب وتعزيز المصالح الاقتصاديَّة، ونحن نسلم حقيقة لا جدلاً بأنَّ من حقِّ الدول العربية، كأي دولة، أن تبحث عن مصالحها. والسؤال الذي يخطر في البال فوراً، وهو الذي يطرحه الشارع العربي من محيطه إلى خليجه:

هل من الضَّرورة أن تكون هناك علاقات اقتصاديَّة بين كل الدُّول؟ وهل كلُّ دولة مطالبة بأن تقيم علاقات اقتصادية مع كلِّ دولة؟ ومن ثمَّ هل ضاقت الدُّنيا بالعرب فلم يجدوا في العالم كلِّه دولة إلا إسرائيل؛ أعدى أعداء العرب وأخطرهم على الوجود العربي.. كي يقيموا العلاقات الاقتصاديَّة معها؟؟!! ومن ثمَّ أيضاً هل انحصرت مكاسب العرب ومصالحهم الاقتصاديَّة بإسرائيل دون دول

العالم كلها؟؟ هنا لا يمكن التَّسليم لا جدلا ولا حقيقة بأنَّ العرب يمكن أن يستفيدوا من العلاقة مع إسرائيل، والأدلَّة على ذلك أكثر من أن تعد أو تحصى، وقبل أن أقدِّم أي مثال أدعو من كان يعرف مثالاً واحداً عن إخلاص الكيان الصهيوني أو صدقه في التَّعامل مع أيِّ دولة عربيَّة؛ مهرولة أو غير مهرولة، مطبعة أو غير مطبعة، أن يعرفنا به.

لقد كان **السادات** أوَّل الموقعين والمطبعين، وقد شهد قبل اغتياله نتيجة التطبيع، فقد كشفت الوثائق أن تاريخ العلاقات الاقتصاديَّة بين مصر وإسرائيل هو تاريخ نشر مخدرات، ونشر الأيدز، وفساد إداري، وأغذية فاسدة، أو مجرثمة، أو مؤديَّة إلى العقم، أو مهيجة جنسيًّا، أو مثبطة جنسيًّا... وهلمَّ جرًّا مما فرض على الشَّارع المصري الفقير، الذي هو بأمس الحاجة إلى اللقمة الأرخص، أن يرفض التَّطبيع، ويحاربه، ويحارب أي نوع من العلاقة مع إسرائيل.

وإذا ما انتقلنا إلى الأردن لم يختلف التَّعامل أبداً، ويكفينا من ذلك أن نشير إلى أنَّ إسرائيل قد التزمت بتزويد الأردن بالمياه؛ مياه الشرب، في اتفاقية السَّلام، وعندما ضخت المياه إلى الأردن ضخت مياه أسيقتها وقاذوراتها بذريعة أنَّ الاتفاقيَّة تنص على أن تقوم إسرائيل بتزويد الأردن بالمياه من دون تحديد نوع المياه، وكأنَّ أسيقة الأردن بحاجة إلى أن تجري فيها القاذورات الصهيونيَّة!!

أمَّا المكاسب التي حققتها موريتانيا فهي دفن النِّفايات النَّوويَّة الإسرائيليَّة في أراضيها كما أشارت معظم وسائل الإعلام العالميَّة منذ أشهر. وإذا ما انتقلنا إلى المغرب وجدنا أنَّ المكاسب التي حققتها هي تلف المحاصيل الزراعيَّة كلَّما استوردت البذور من إسرائيل لأنَّ البذور حاملة لأمراض تمنعها من الإثمار...!!! هذه عيِّنة جدُّ صغيرة من أساليب العلاقات الاقتصاديَّة مع إسرائيل، فأي

مكاسب هي التي يمكن أي يحققها العرب من علاقاتهم مع إسرائيل؟ وأي مصالح اقتصاديَّة هذه الَّتي يمكن أن تقوم بين العرب وإسرائيل؟

لقد كتبنا عن بنية العقليَّة اليهوديَّة في غير هذا الموقع، وبرهنا تعذر قيام السلام معها، وبغض النَّظر عن هذه البنية، مع تعذر ذلك، بأي منطق قبل بعض العرب، أو اقتنعوا بأنَّ مصالحهم تكمن في العلاقة مع إسرائيل، وكلُّ ما ذكرنا حقائق إن خفيت على الجاهل، فلا يمكن أن تخفى على نصف عاقل؟ وهي قديمة لا جديدة.

إنَّ المنطق؛ أي منطق، يقف حائراً أمام السلوك العربي، فعل الرُّغم من كلِّ ذلك، وعلى الرُّغم من كلِّ الوثائق التي تثبت هذه الحقائق الساطعة النَّاصعة، يطلع كلَّ يوم مسؤول عربي ليعلن أنَّ بلده لن يقيم علاقات مع إسرائيل قبل إتمام مفاوضات السلام مع سوريا، على أساس أنَّه يدعم الموقف السوري، وكأن إقامة العلاقات مع إسرائيل سنَّة نبوية شريفة، أو فرض عين لا فرض كفاية، أو عبادة واجبة لا تصحُّ طاعة الله من دونها!!! فولي عهد البحرين (الشيخ) **سلمان بن حمد آل خليفة** قال في تصريح نشرته جريدة الحياة في الأول من شباط عام ٢٠٠٠م: «إذا كان الإسرائيليون صادقين في عملية السلام سنسير خطوتين كلما ساروا خطوة واحدة»[٩١]!!! وفي السابع عشر من أيار ٢٠٠٠م يعلن الرئيس الجزائري **بوتفليقة** قائلاً: «لا علاقات جزائرية مع إسرائيل ما لم تنسحب من الجنوب والجولان»[٩٢].

---

(٩١) ـ إبراهيم خياط: **ولي عهد البحرين لـ الحياة: كل خطوة إسرائيلية نقابلها بخطوتين** ـ ضمن جريدة **الحياة** ـ لندن ـ العدد ١٣٤٧٥ ـ الثلاثاء ٢٦ شوال ١٤٢٠هـ الموافق لـ ١ شباط ٢٠٠٠م.

(٩٢) ـ انظر مثلا: جريدة **الديار** ـ بيروت ـ العدد ٤١٨٣ ـ الخميس ١٨ أيار ٢٠٠٠م.

ويتجاوز بعضهم ذلك كلَّه فيعلن أنَّ بلده سيقيم العلاقات مع إسرائيل مهما كانت نتائج مفاوضات السلام، وكأنَّ قطع العلاقات مع إسرائيل كفرٌ صريح... وكأنَّ ما سبق من ادعاء مقاطعة إسرائيل ضرب من الفسق، أو الفجور، أو الزَّندقة، أو كلها مجتمعة!!!

فهل نلوم إسرائيل إذا ذبحت في فلسطين أبناءنا، وتوراتهم تقول لهم إنَّ قتل العرب عبادة واجبة؟؟!!

لا أظنُّنا نستطيع ذلك لأنَّنا سمحنا لإسرائيل أن تقتل العرب البعيدين عن إسرائيل، فكيف نحتجُّ على تفعله ضمن ما يسمى إسرائيل؟

هذا في حقيقة الأمر ما يبين لنا لماذا يأتي الاحتجاج على الهمجيَّة الإسرائيلية من الأجانب عنيفاً، فيما يأتي احتجاج العرب رخواً، (مقطوع الحيل)، كلُّه حياء وخجل... ونعود فنسأل بمرارة:

أليس عصرنا عصر الجنون؟!!

أو أليس مجنوناً هذا الزمان الذي يحتوينا؟

أم أنَّ العالم يسير وفق المنطق والعقل، وبعدنا الشَّاسع عن المنطق والعقل هو الذي يجعلنا نرى العالم مجنوناً، والزَّمان مجنوناً... ونريد أن نقنع أنفسنا والعالم أنَّ الجنون هو عينُ العقل، ولبُّ المنطق؟؟!!

* * *

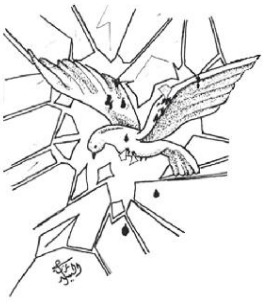

الفصل الثالث عشر

عودة اللاجئين

بين الحق والمفارقة

إنَّ الازدواجيَّة في معايير التعامل بحدِّ ذاتها من صنوف اللامعقول، ولكِنَّها عندما تقارن بالازدواجية الأمريكية ستغدو معقولاً وأكثر من معقول، واللامعقول ذاته سيصبح أكثر من معقول أمام الممارسات الأمريكية والإسرائيلية ذاتها.

«على إسرائيل أن تدع الشَّعب الفلسطيني وشأنه، فالفلسطينيون هم المالك الحقيقي لأرض فلسطين منذ الأزل».

إسرائيل وايز

لعلَّه لا يخفى على أحد أنَّ الرَّئيس الأمريكيَّ **بل كلينتون** يحبُّ المرح والدَّعابة، وقلَّما رآه النَّاس غير ضاحكٍ، أو مبتسمٍ، وهذه ميزة له لا عليه. وقد أحبَّ أن يودِّع فترته الرِّئاسيَّة الأخيرة بنكتة تتَّفق لها كلُّ مقوِّمات النُّكتة، وأهم هذه المقومات هي المفارقة الصَّارخة فيها، فقد اقترح، أو طالب الجانب الفلسطيني بالتَّنازل عن حقِّ عودة اللاجئين من أجل إتمام عمليَّة السَّلام... أليس ذلك نكتة؟

لن نتحدَّث عما إذا كان هذا أوَّل التَّنازلات أو آخرها، ولا عن التَّنازلات السَّابقة، ولا اللاحقة، ولا عن الاتفاقيات التي تعج بالغموض والإبهام... ولن نناقش ما إذا كانت إسرائيل ستقبل بعودة اللاجئين إلى ديارهم أم لا... على الرُّغم من أنَّ كلَّ ذلك مما يستحقُّ مناقشات مسهبة ومطولة. سنقف فقط عند مطلب الرئيس الأمريكي **بل كلينتون** بالتَّنازل عن حقِّ عودة اللاجئين، بما هو فكرة أراد منها أن يختم حياته السياسيَّة بتحقيق السلام على المسار الفلسطيني على الأقل، بعدما كانت طموحاته أن يكتمل السَّلام على يديه في مطلع فترته الرئاسيَّة الثانية.

إنَّ الفكرة المقترحة بمطلقيتها ليس فيها أيُّ نكتة، ولا تعاب أبداً من حيث مبدؤها، ولكن عندما تكون مطروحة على أيِّ أرضيَّة أخرى غير أرضيَّة الصراع العربي الإسرائيلي، وعندما تكون بين أيِّ دولتين، أو بلدين، أو فريقين... غير العرب، والفلسطينيين منهم تحديداً، والكيان الصهيوني. فهذا الاقتراح أو الطلب تحديداً هو ما لا يجوز طرحه بأيِّ طريقة من الطرق بوصفه شرطاً من شروط السَّلام، أو التَّفاوض بين العرب والكيان الصهيوني، لأنَّ من يطرحه أيًّا كان لا بدَّ أن يكون مدركاً أنَّه يفقأ عين المنطق بإصبعه، ويجرح الضَّمير الميت، ويخدش حياء من لا يعرف الحياء... إنَّ الازدواجيَّة أمامه منطق وعدل، وإذا كانت الازدواجيَّة لا معقولاً فإنَّها تغدو في حضرة هذا الطرح معقولاً وأكثر من معقول. والتَّساؤل عن السبب هو حجب لأشعَّة الشَّمس بالغربال.

مَنْ مِنَ البشر لا يعرف أنَّ اليهود يهاجرون إلى فلسطين باسم حق العودة، وهو محض زعم وادِّعاء. ومن من البشر لا يعرف أنَّ فلسطين خالية من اليهود منذ آلاف السنين حسب الزَّعم الصهيوني، ومنذ ما قبل وجود اليهود حسب الحقائق التَّاريخيَّة. وأنَّ اليهود، من ثمَّ، حسب زعمهم، يمارسون حقَّ العودة بعد آلاف السنين... وآلاف السنين كافية لسقوط أيِّ حقٍّ مهما كان بالتقادم، في أيِّ قانون من قوانين التَّاريخ، والعالم؛ قديمه وحديثه!!!

بل الجدير بالذكر هنا خصوصاً أنَّ كثيراً من اليهود، والكثرة نسبية هنا، يرفضون أسطورة الصهيونية الزاعمة بأن أرض فلسطين من غير شعب، وأنها للشعب الذي لا أرض له، وهم اليهود، ويدحضون مزاعم الصهيونية في حق العودة، وقد كتب الفيلسوف الصهيوني **مارتن بوبر** في مذكراته: «حينما حصل

ماكس نورادي أقرب مساعدي **هرتزل**، ولآول مرَّة، على معلومات مفصلة عن وجود السُّكَّان العرب الفلسطينيين، هزَّه هذا النبأ، وأعلن **لهرتزل** قائلاً:

(لم أكن اعلم قطَّ إننا نقوم بعمل جائر)»[٩٣].

ويعلق **سيرغي سيدروف** على ذلك ساخراً:

«وهل أعاد **نورادي** بعد ذلك النَّظر في مواقفه، واتخذ موقفاً معادياً من هذا العمل الجائر ضدَّ الشعب الفلسطيني؟ كلا وألف كلا... فسرعان ما تحرر **نورادي** من تأنيب الضَّمير، وواصل نشاطه بوصفه أحد قادة المنظمة اليهودية العالمية، والأدهى من ذلك أنَّه أطلق اسمه على الخطَّة التي طالبت بالتهجير الفوري لمئات الآلاف من اليهود إلى فلسطين»[٩٤].

وقد ذكرنا في الفصل التالي بعض النماذج عن ذلك، بدءاً من التغيرات التي طرأت على الأدب الصهيوني، والصحافة الصهيونية، في الكيان الصهيوني والعالم، مروراً برئيس الاستخبارات الإسرائيلية الذي أكد أن اليهود والعرب معاً يدركون أن السلام ليس إلاَّ هدنة مؤقتة، وصولاً إلى **باجي شيلع** الذي يفكر في كيفية بقاء اليهود في فلسطين وهم خارج المنطق، وإلى **إيال سيفان** المخرج اليهودي، الذي أعلن قائلاً بصوت مدوٍ:

« **لا نستطيع أَن نبني وطناً على أَنقاض كذبة كبرى، أَمَّا هنودنا الحمر فما زالوا على قيد الحياة يدلِّلون على كذبة إسرائيل الكبرى، ونحن لا يمكننا أَن نجعلهم ينسوا حيفا ويافا وعكَّا والعباسيَّة .... ولا الأَربعمئة**

(93) . سيرعي سيدوف: **الصهيونية ونهج الإرهاب** . ص٢١.

(94) . م. س . ذاته.

قرية التي سُحقت عن بكرة أَبيها ». وكذلك أمر الحاخام **إسرائيل وايز** الذي تحدث باسم اليهود الذين تظاهروا في الولايات المتحدة ضد الممارسات الصهيونية في فلسطين، قائلاً: «على إسرائيل أن تدع الشَّعب الفلسطيني وشأنه، فالفلسطينيون هم المالك الحقيقي لأرض فلسطين منذ الأزل».

وثَمَّة نماذج أُخْرَى كثيرة منها على سبيل المثال المؤرخ اليهودي الإسرائيلي **نفتالي جولمان** الذي أثار زوبعة كبيرة في الكيان الصهيوني بكتابه الذي حمل عنوان (طاولة جاهزة)، الذي تناول فيه عمليات تهجير الفلسطينيين وطردهم من أراضيهم في عام ١٩٤٨م. وتناول إلى جانب ذلك، بجرأة واضحة، المزاعم الصهيونية وأساطيرها التوراتية، والصراع الديني... وغير ذلك كثير. ومما يهمنا هنا هو موقفه من القضية الفلسطينية، فهو يقول: «بين كانون الأول عام ١٩٤٨م، وأيلول عام ١٩٤٩، تمت عملية طرد ستمئة ألف إلى سبعمئة وستين ألف عربي فلسطيني من بيوتهم فتحولوا إلى لاجئين بين عشية وضحاها، ومازالوا. ويضيف إلى ذلك أن «معظم الإسرائيليين لا يحبون تذكر ذلك، والغالبية تنفي أو تتغاضى عنه، وفي المدارس تمَّ سرد قصص مغايرة تماماً لما جرى في الواقع؛ الواقع الذي يقول إنَّه تمَّ محو نحو أربعمئة قرية وبلدة عن وجه الأرض... ومئات الآلاف يعيشون منذ ذلك الحين في المخيمات». ويتابع قائلاً:

«إلى متى سيواصل الفلسطينيون العيش وفق نزواتنا، وتحت وطأة الاعتبارات الأمنية والانتخابية مطأطئي الرؤوس؟!.. وإلى متى يواصلون التجمع فوق أطلال بيوتهم ويستسلمون لقيام المستوطنات أمام منازلهم، وبعضها فوق أراضيهم؟!... وإلى أيِّ مدى يمكنهم القبول بقواعد اللعبة التي تقول إنَّ الإسرائيليين هم الأسياد الوحيدون لهذه الأرض؟!».

ويعقب على ذلك بما لا يقلُّ عن اللطمة على الخدِّ العربي الذي يرفض أن يصحو:

«من الصعب معرفة الإجابات عن كلِّ هذه الأسئلة، وهم يفاجئوننا حتَّى الآن بصبرهم وطول بالهم!!!».

وبعد ذلك يوصي بإنهاء الاحتلال اليهودي في الخليل، ويبين أنَّه كان قد أوصى منذ زمن بعيد بعدم الاستيطان، وأنَّه يؤمن بالدولة الفلسطينية منذ سنين طويلة، وقد ألف كتاب (قرارات مصيرية) الذي دعا فيه إلى إقامة دولة فلسطينية بشكل علني وواضح»[٩٥].

ولا ننسى في هذا الإطار قول **موشي دايان**، وقد كان وزيراً للدفاع، في حديثه أمام طلاب المعهد التقاني في الكيان الصهيوني: «ليست هناك قرية يهودية في هذه البلاد لم تقم على مكان أرض عربية»[٩٦].

وبصورة أكثر وضوحا كانت تصريحات **ديفيد بنجوريون** الذي قال عندما وصل إلى فلسطين:

«العالم المعاصر لا يحترم شيئاً غير القوة[٩٧]. وبعد نضوجه أعلن بصراحة أن المسألة الفلسطينيَّة سيتمُّ حلها بقوة السِّلاح وليس بفضل قرارات رسمية[٩٨]. وأضاف **بنجوريون** قائلاً: نحن فصائل من الغزاة الإسبان . مقارناً مستوطني

(٩٥) . انظر بعض التفاصيل أيضاً عند جمال اشتيوي: **مؤرخ ينسف أساطير بني إسرائيل** . ضمن جريدة **الاتحاد** . أبو ظبي . العدد ٩٤٤٩ . السبت ٢٥ صفر١٤٢٢هـ الموافق لـ ١٩ أيار ٢٠٠١م.

(96) . سيرغي سيدوف: **الصهيونية ونهج الإرهاب** . ص١٩. نقلاً عن ليلبينتال: **الصلة الصهيونية**.

(97) . نقلاً عن بيلينغ وساوس غويلدورف: **الصهيونية والعنصرية** . ص٣٠.

(98) . نقلا عن المرجع السابق ذاته.

المستعمرات بالغزاة الإسبان الذين قضوا بقوة السلاح والنار على ملايين السكان الأصليين لأمريكا الوسطى والجنوبية»[٩٩].

ولذلك كان لا بُدَّ لليهود من خداع ذواتهم وإقناعها على الرُّغم منها بكذبة الأرض بلا شعب، ولا يستحي اليهود من إعلان أسلوبهم التربوي هذا القائم على الخداع الصريح، ومن الشواهد البارزة على ذلك قول **بيجن** في كلمته التي ألقاها في مؤتمر كيبوتس عين حبورش[١٠٠]:

«عندما تعترفون بمفهوم فلسطين فإنكم تقضون على حقكم في العيش في عين حبورش، وإذا كانت هذه الأرض فلسطين وليست إسرائيل فمعناه أنكم غزاة ولستم كادحين على هذه الأرض، ومعناه أنكم معتدون، وإذا كانت هذه الأرض فلسطين فمعناه أنَّها تعود لشعب عاش هنا قبل مجيئكم... فَقَطْ في حال كون هذه الأرض إسرائيلية سيكون لكم الحق في العيش في عين حبورش وديغاني. وإن لم تكن هذه البلاد بلادكم ووطنكم، وبلاد أجدادكم وأولادكم فماذا أنتم فاعلون هنا؟ معناه أنكم جئتم لتقطنوا وطنا يعود لشعب غيركم، ويدعي أنكم طردتموه وسيطرتم على أرضه»[١٠١].

وليس كذلك وحسب، بل هجرة اليهود إلى فلسطين، في معظمها، لم تكن بالرضا وإنَّما كانت بالإكراه، والممارسات الإرهابية التي فرضت على اليهود من أجل الهجرة إلى فلسطين، وهذا ما أَكَّدهُ اليهودُ أنفسهم قبل غيرهم، إلى جانب الكثير من الدراسات الأُخْرَى التي باتت من الاشتهار بمكان. وهذا ما

(99) . سيرغي سيدوف: **الصهيونية ونهج الإرهاب** . ص٢٢.

(100) . مستوطنة زراعية أعدت إعداداً عسكرياً.

(101) . سيرغي سيدوف: **الصهيونية ونهج الإرهاب** . ص٢٣.

سماه اليهودي المعادي للصهيونية **ألفرد ليلينتال** بخطة: «خوِّف واستنفر»، أو «ادفع إلى الأمام ثمَّ اسحب»[١٠٢]. ومن ذلك على سبيل المثال ما كتبه أحد محرري صحيفة دافار الإسرائيليَّة عندما قال:

«لن أشعر بالخجل وأنا أعترف بأنَّه لو كانَ لدي السُّلطة بمقدار ما لدي من الرَّغبة، لأخذت عشرة من رجالنا الشَّباب الأذكياء، المخلصين لمثلنا العليا، الذين يتحرَّقون شوقاً من أجل توجيه إخوانهم اليهود، وأرسلتهم إلى البلدان التي يوجد فيها يهود استكانوا إلى رغد العيش خارج إسرائيل، ومهمة هؤلاء اليهود (الشباب الموفدون) هي أن يتخفوا على أنَّهُم من غير اليهود، ثمَّ يبثون بينهم شعارات معادية للساميَّة، مثل: (يهود ملطخون بالدماء)، و(أَيُّهَا اليهود اذهبوا إلى فلسطين)، وغيرها من الشعارات... وعندئذ أستطيع أن أشهد بأنَّ النتائج فيما يتعلق بالهجرة إلى إسرائيل من هذه البلدان ستصل إلى ما يزيد عن عشرة آلاف مرَّة، أكثر من النتائج التي حققتها حتَّى الآن البعثات التي كانت تصبُّ وعظها في آذان صمَّاء»[١٠٣].

فكيف، بعد ذلك كله، استساغ الرئيس **كلينتون** أن يفرض على الشعب ذاته الذي طرد من أرضه، وما زال حقُّه قائماً لأنَّه ما زال حيًّا، أن يتنازل عن

---

(102) . مصطفي عبد العزيز: **إسرائيل ويهود العالم**. ص٩٦. نقلاً عن:

- Alfred M. Lilienthal: **The Other Side of Coin**. Op.

(١٠٣) . إضافة إلى جريدة **دافار** نشرت هذا التصريح جريدة **كيمبر** الأمريكية التي تدر في نيويورك في عددها الصادر بتاريخ ١٩٥٢/٧/١١م. وقد ذكره ألفرد ليلينتال في كتابه المذكور أعلاه. وهو موجود أيضاً في كتاب مصطفى عبد العزيز: **إسرائيل ويهود العالم** . ص ٩٦. وكذلك، مع اختلاف غير مؤثر في الترجمة، في كتاب: سيرغي سيدوف: **الصهيونية ونهج الإرهاب** . ص ٣٢.

حقِّ عودته إلى أرضه لأناس طردوه من أرضه، وقتلوه، باسم حقٍّ عودة مزعوم، لا أساس له من الصِّحَّة. وحتَّى لو كان حقًّا، وهو ليس كذلك أبداً، فلا يوجد قانون في الكون يقبل إحياءه لتساقطه بالقدم الذي أكل عليه الزَّمن وشرب. فأيُّ منطق، وأيُّ عقل، وأي دين، وأيَّ قانون... هو الذي يمنع الفلسطينيين من العودة إلى أرضهم التي طردوا هم ذاتهم منها قبل بضع من السنين، ويبيح لليهود أن يعودا إلى فلسطين بعد آلاف السنين من تركها، على الرُّغم من بطلان زعمهم، وافتقاره إلى أدنى وثيقة تؤيده باعتراف كثير من اليهود أنفسهم؟؟

وإذا قبلنا جدلاً، لا حقيقة، أنَّ بعض اليهود كانوا في فلسطين يوماً من غابر الأيَّام، فكيف يمكن أن نقبل أن يهود الفلاشا كانوا في فلسطين، وأي حقٍّ لهم في الهجرة إلى فلسطين؟ وكذلك شأن يهود الهنود، ويهود الخزر، وغيرهم... ألا يزيد ذلك المفارقة استخفافاً غير محدود بالعقول؟!!

لقد اقتنع كثير من اليهود أنفسهم بسخف هذه الفكرة، وبكونها استخفافاً بعقول الآخرين، وفي مثل ذلك كتب البروفيسور الأمريكي اليهودي **مونرو دينتش**، في محاضرة ألقاها بتاريخ ١٩٥٠/١٠/٢٣م في سان فرانسيسكو: «ماذا نكون نحن؟ الإجابة أعطاها لنا **المسيح** منذ ألفي عام حينما قال: (اعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)، فسياستنا؛ نحن أمريكيون، ودينياً نحن يهود. وهذا يلزمنا أن نتصرف بوصفنا مواطنين أمريكيين فَقَطْ، ويعدُّ هذا مبدأ يجب أن يتمسك به كل مواطن على هذه الأرض؛ فالأمريكي المنحدر من أصل إيرلندي ليس له الحقُّ في التقدم بمطالب للحكومة الأمريكية بصفته رجلاً إيرلنديا، كما أنَّ الأمريكي من أصل ألماني ليس له الحقُّ في أن يستخدم حكومتنا لتحقيق أهداف ألمانية. وإنني أشعر بالامتعاض تجاه المنظمات التي تحاول أن تغرس

الإخلاص لإسرائيل، فنحن بوصفنا مواطنين لنا ولاء واحد، وهذا ما يرمز إليه العلم الواحد الذي نحييه، والنشيد الوطني الواحد الذي ننشده»[١٠٤].

قد لا يرغب بعض الفلسطينيين في العودة إلى أرضهم، وقد لا يعود معظمهم إلى فلسطين، وهذا احتمال قائم طالما هو في إطار الحريَّة الشخصيَّة، ولكن هل يسوغ ذلك ركوب مجن مفارقة كلِّ منطق؟ وهل يجيز مثل هذا الطَّلب؟ بل من ذا الذي يحقُّ له التَّنازل عن هذا الحقِّ ؟ لقد أجاب عن هذا السؤال أحد فلسطينيي الأرض المحتلة عندما حاصره المحتلون وضيقوا عليه ليبيع بيته، وعرضوا عليه المبلغ الذي يريده، فقال لهم:

« **أوافق على أن أبيع، ولا أريد نقوداً أبداً، ولكنْ بشرطٍ واحدٍ هو أن يوافق على عقد البيع، ويوقِّع على الموافقة، كلُّ مسلمٍ بالغٍ في العالم** ».

والمصيبة الأكبر أنَّ هذه الازدواجية الخارقة لكل أطر المنطق وحدوده ومعالمه لا تكمن في حقِّ العودة وحسب، بل في كلِّ ما يخص القضية الفلسطينية خصوصاً، وكلِّ ما يخصُّ العرب عموماً، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تعد أو تحصى، أو أن يمكن جمعها في كتاب واحد. وحسبنا أن نقف عند الانتفاضة الثانية.

فعلى الرُّغم من أنَّ الصورة واضحة بما لا يقبل أيِّ نقاش أو جدل، هذه الصورة التي تبين كيف أن الفلسطينيين العزل من أي سلاح يتعرضون للقصف بكل أنواع الأسلحة؛ من البندقية إلى الطائرات الحربية إلى المدافع والصواريخ، فإنَّ

(104) . مصطفى عبد العزيز: **إسرائيل ويهود العالم**. ص٦٩.

وسائل الإعلام الغربية والمسؤولون الغربيون يطلقون تصريحات مليئة بالمغالطة، ويطمسون الحقائق، منها تصريحات **بل كلينتون** ووزيرة خارجيته **مادلين أولبريت** التي أظهرت الأحداث الدامية التي يفتعلها رصاص الغدر الصهيوني على أنَّها أحداث عنف متبادل، وكأنَّ ثمَّة معركة متكافئة السلاح تدور بين العزل الفلسطينيين وجنود الاحتلال، بل المصيبة الأكبر من ذلك هي تصوير **بل كلينتون ومادلين أولبريت** لمصرع الطفل **محمد الدرة** على أنَّه كان ضحية لتبادل إطلاق النَّار على الرغم من وضوح الصورة وضوحاً يفقأ عين كل زيف أو تشويه أو حرف للحق عن مساره.

والأدهى من ذلك كله ما حدث يوم الخميس ٢٠٠٠/١٠/١٢م عندما أسقط الثائرون الفلسطينيون قتيلين صهيونيين مقابل نحو مئتي شهيد فلسطيني فصرَّح الأمين العام للأمم المتحدة **كوفي عنان** قائلاً: «إن قتل الجنديين جريمة بشعة لا يمكن السكوت عنها».. فسوغ بذلك للحكومة الإسرائيليَّة قيامها بالقصف الهمجي للقنابل والصواريخ لمختلف المناطق الفلسطينيَّة وبمختلف صنوف الأسلحة، وصرح **إيهود باراك** بمنتهى الصفاقة أن مقتل هذين الجنديين فرض عليه استخدام كل الأسلحة في ضرب الشعب الفلسطيني بما لا يقلُّ عن أيِّ حربٍ أبداً!!! من دون أن يخطر في بال أيٍّ منهما ذكر نحو مئتي شهيد أسقطهم رصاص الاحتلال وهمجية المستوطنين.. وكأن جنود الصهاينة وحدهم من البشر، وليس العرب من البشر أبداً.

وبعد أشهرٍ من ذلك، وبعد قصفٍ صاروخيٍّ همجيٍّ على المدن الفلسطينيَّة، وإرداء عشرات القتلى والجرحى يعلن **كولن باول** وزير الخارجيَّة الأمريكي الجديد أسفه لأنَّ الرئيس الفلسطيني توعد إسرائيل بأنها ستحاسب

على فعلتها، وبعد أيام قليلة، في الثاني والعشرين من شهر أيار ٢٠٠١م يعيد أسطوانة التزييف ذاته، بصيغة التهديد قائلاً: «يجب أن تنتهي موجة العنف المتبادل في فلسطين».

إن تركنا **باراك** جانباً، ولن يسامحه التاريخ أبداً على ذلك، أفيعقل أن يصدر مثل هذا عن الأمين العام للأمم المتحدة؟ أيعقل أن يتجاهل أرواح مئتي شهيد فيعدها نسياً منسياً اغتالتهم يد الغدر وهم عزل من السلاح عراة الصُّدور، أطفال أبرياء وشبَّان أبرياء.. ويثور لمقتل جنديين مدججين بالسِّلاح لو أتيح لهما لقتلا العشرات من الأبرياء؟؟!! أيعقل ألا تحتج وسيلة إعلام عربية على هذا التصريح الذي صدر عن ممثل الشرعيَّة الدوليَّة، أو غيره من المسؤولين الأمريكيين والأوربيين؟؟!!

لقد اعترف **بل كلينتون**، كما تناقلت وكالات الأنباء حينها، لأحد أعضاء الوفد الفلسطيني المفاوض في كامب ديفيد الثَّانية أنَّه يطالب الفلسطينيين بأمورٍ لم يستطع الاقتناع بها، رُبَّما كان هذا المطلب مما لم يستطع الاقتناع به، ومعه الحقُّ في ألا يقتنع به لأنَّه لا يمكن أن يستساغ. ولا يبتعد حاله في ذلك عن **جاليليو جاليليه** الذي خيرته المحكمة بين الإعدام والتراجع عن قوله بدوران الأرض، فتراجع عن قوله، وعندما خرج من باب المحكمة خَصَفَ الأرضَ بنعله وقال: ولكنَّها تدور.

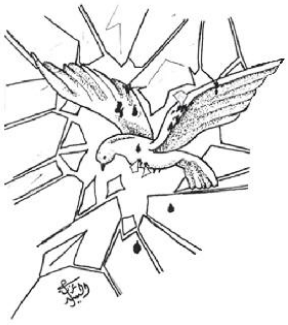

الفصل الرابع عشر

الموقف الأمريكي
من السلام العربي الإسرائيلي

رُبَّما لم تتوقع الولايات المتحدة أن تسير عربة السلام على النحو الذي سارت عليه، ولذلك بدأت العملية السلمية بحماس كبير، ولكِنَّها عندما رأت إقبال العرب المتهافت على إسرائيل حَتَّى قبل إنهاء مفاوضات السلام اضطرت للوقوف أمام نفسها وإعادة الحسابات من جديد!

تحاول أمريكا أن تظهر أمام العالم على أنَّها حارسة الأمن والسلام، وأَنَّها صوت الحقِّ، ويد القانون، وأداة العدالة، وأَنَّها القلب النابض بالإخاء والمساواة، وأَنَّها تريد تعايشاً سلميًّا، وعالماً خالياً من العداوات والبغضاء والمشاحنات....

الآن، وبعد انتهاء الحرب الباردة نهايةً مدهشةً، بالانتصارِ السَّاحقِ للجانب الغربيِّ، بل للولايات المتَّحدة الأمريكيَّة تغيرت الظروف والشروط والمعطيات، فقَدْ أصبحت في نظر العالم، وكما هي تحاول أن تكرِّس ذلك بكلِّ قوَّةٍ واندفاعٍ؛ صاحبة الجلالة، إمبراطورة العالم. ومسوِّغها في ذلك أنَّ فريق الخصوم لم ينكسر في جولةٍ من جولات النِّزال وحسب، بل أعلن استسلامه وانسحابه من ميدان المنافسة والصِّراع. والذي يدهش أكثر أَنَّ فريق الخصوم هذا أعلن انتماءه لصاحبة الجلالة إمبراطورة العالم وولاءه لها.

إنَّ أهمَّ جانبٍ من جوانب انتهاءِ حرب الأعصاب الباردة وأخطرها هو الجانب العقائدي (الأيديولوجي) وليس الجانب العسكري وحده، فلو أنَّ هذا الحسم في حرب الأعصاب الباردة كان ذا بعدٍ عسكريٍّ فَقَطْ لاختلفت النَّتائج كليًّا عمَّا آلت إليه، ولكان ثَمَّةَ استمرارٌ في الصِّراع قَدْ يؤدِّي بصورةٍ أو بأخرى إلى إعادة كفَّة التَّوازن الدُّولي إلى سابق عهدها. ولكنَّ المشكلة تكمن في أنَّ

الذي انتهى إنَّما هو الصِّراع العقائدي، الذي يشكِّلُ في حقيقة الأمر أسَّ الصِّراع العسكريِّ ومتنه، وأساس انقسام العالم إلى الكتلتين؛ الشَّرقيَّة والغربيَّة، الاشتراكيَّة والرَّأسماليَّة... اللتين كانتا، كلٌّ منهما، تُظِلُّ مجموعةً من دول العالِم الثَّالث بظلِّها، وترفع يَدَ وصاية الطَّرف الآخر عنها، وتقف وراءها وإلى جانبها سنداً وداعماً في قضاياها ومواقفها إلَى حدٍّ ما، ولكن بما يتَّفق مع أغراض هاتين المجموعتين ومصالحهما بالضرورة[١٠٥].

وبذلك لم تنته حرب الأعصاب الباردة فَقَطْ، بل انتهى الصِّراع كليًّا، وانتهت المنظومة الاشتراكيَّة بنمطها الإنتاجي الخاص إلَى الاندراج في صلب المنظومة الرأسماليَّة وأنماطها الإنتاجية، ولتنخرط من ثَمَّ في عقائديتها السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، ولينتهي الصِّراع إلَى تآلفٍ وتحالفٍ، ولتفقد بذلك كثيرٌ من دول العالِم سَنَدَهَا العقائديِّ والعسكريِّ.

إنَّ هذه الأحداث والتَّطوُّرات الَّتي بدأت خاصة عندما انهار الاتحاد السوفيتي والَّتي أفاضَ الباحثونَ في معالجتها، وأطنبوا في الحديث عنها، على غايةٍ من الأهميَّة والخطورة، ولا يمكن وسمها بالسَّهلة أو العاديَّة بحالٍ من الأحوال، لأنَّها وضعت العالَمَ وجهاً لوجهٍ أمامَ هيمنة الولايات المتحدة الأمريكيَّة وتفرُّدها في قيادة العالم؛ سياسيًّا وعسكريًّا، كيفما تشاء، وعلى النَّحو الذي يعزِّز مكانتها ومواقعها، ويرفد مصالحها بكل تأكيد.

وإزاء هذا الوضع الجديد أصبح على صاحبة الجلالة إمبراطورة العالم أن تعدِّل سياساتها إزاء مختلف دول العالم، وأن تعيد حساباتها من جديدٍ. ورُبَّما

١٠٥). مما لا بدَّ من الإشارة إليه هنا هو أنَّ تاريخ القطبيات الثنائية عبر التاريخ ليس في حقيقة الأمر إلا تقاطباً عقائديا بمعنى من المعاني.

كانت علاقة الولايات المتحدة مع الكيان الصهيوني، وعلاقة هذا الكيان مع العالم العربي هي أبرز المسائل الَّتي فرضت على الولايات المتحدة الوقوف عندها، وإعادة النَّظر فيها على أعين العالم على أقل تقدير.

لقد أرادت الولايات المتَّحدة كي تؤكِّد أنَّها فعلاً صاحبةَ الجلالةِ غيرَ منازعةٍ في ذلك، أنْ تظهرَ بمظهرين متباينين ومتناقضين في آن معاً. وقد أفلحت في أحدهما وأخفقت في الثاني حَتَّى الآن، وأرجح الظَّنِّ أنَّها ستحافظ على إخفاقها في ذلك بامتياز.

أما المظهر الأول الذي تَوَشَّحَتْهُ على أعين العالم فهو مظهر الأبَّهةِ، والعظمة، والجبروت... مظهر القائد العسكري الأول، والأقوى، والقادر على ضبط الأمور وإعادتها إلى نِصَابِهَا، والقادر على فرض إرادته على كلِّ متمرِّدٍ، وعلى كلِّ من تسوِّلُ له نفسه الخروجَ عن طوق السِّيادة والهيمنة الأمريكيَّة. وبهذا المعنى قال الرئيس **جورج بوش الأب** في الثَّالث عشر من كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢م في مدينة كنساس الأمريكيَّة: «لقد ربحنا الحرب الباردة، وسوف نربح الحرب التَّنافسيَّة... إنَّنا زعماءُ العالم المحترمون الذين لا ينازعون»[١٠٦]. وكرر مثل هذه العبارة الرَّئيس التَّالي له **بل كلينتون**، وأعادها الرئيس **جورج بوش الابن** بكلِّ الصُّور والألفاظ والمعاني المحتملة لها منذ أحداث الحادي عشر من أيلول وحَتَّى الآن.

وقد بدأت الولايات المتحدة ذلك بتجربة طريفةٍ . في إطار النِّظام الدُّوليِّ الجديد . هي القضاء على نظام الحكم في بنما، ومحاكمة رئيسها **داناييل نورييجا**

(١٠٦) . جريدة **البعث**– دمشق– العدد ٨٧٤٥.

شخصيًّا في المحاكم الأمريكيَّة بتهمة الاتجار بالمخدرات. ولتتوِّجَ هذه التَّجربة، في تلك المرحلة، بحشد الجيوش الأمريكيَّة في الخليج العربي، جارَّةً وراءها جيوش الدُّول العظمى، لتحرير الكويت، ذلك أنَّ التَّدخُّل العراقي في الكويت كان يعني خروجاً وتمرُّداً على إرادة صاحبة الجلالة أكثر مِمَّا كان يعني لها خرقاً للأعراف والمواثيق الدُّوليَّة. وقد أكَّدَت حربُ الخليج فعلاً تفوُّقَ السِّلاح الأمريكي، والقدرة العسكريَّة الأمريكيَّة، وأظهرت الولايات المتحدة بوصفها قائداً عسكريًّا للعالم. ولتسمر في ممارستها هذه طيلة السَّنوات التَّالية على انهيار الاتحاد السوفيتي ومن تجاربها الكثيرة ذلك إخفاقها في الصومال، وتغطيتها هذا الإخفاق في كوسوفو، وإبراز عضلاتها واستعراضها في أفغانستان مع ختام عام ٢٠٠١م، ولتتوج ذلك بالانقضاض على العراق وسحق نظام ودولة، ما أكثر ما قيل إنَّها تكاد تكون عظمى، في غضون عشرين يوماً.

وأمَّا المظهرُ الثَّاني، والذي يمكن وسمه بالترغيبي، فما زالت تجهد صاحبة الجلالة في أن تقدَّ من قماشه الأنيق البَرَّاق وشاحاً يناسب قدَّها، وهنا نتساءل: هل ستفلح في ذلك؟

قبل الإجابة عن هذا السُّؤال لا بدَّ أنْ نبيِّن أبعاد مضامينه، فما الذي نعنيه بالمظهر الترغيبي؟

لقد استطاعت الولايات المتَّحدة أن تفرضَ ذاتها عسكريًّا، وأن تظهر بوصفها قوَّة قائدةً ورائدةً، قادرةً على أن تفرضَ ذاتها في أيِّ وقتٍ تريد وأيِّ مكانٍ تشاء، ولاسِيَّما أنَّها انتصرت على أكبر الخصوم وأخطر المتحدِّين. ولذلك فهي تحاول أن تضرب ضربتها الكبرى في أن تظهر أمام العالم على أنَّها حارسة الأمن والسلام، وأنَّها صوت الحقِّ، ويد القانون، وأداة العدالة، وأنَّها القلب

النابض بالإخاء والمساواة، فهي تريد تعايشاً سلميًّا، وعالماً خالياً من العداوات والمشاحنات... وإذا استطاعت ذلك فعلاً تكون قد ضربت ضربتها الكبر ى بأن سوَّغَت لنفسها أمام العالم أجمع الاحتفاظَ بكامل عدتها وعتادها العسكري الذي سيعينها على تحقيق العدالة والمساواة، وحفظ الأمن والسلام، وتسوِّغ لنفسها مقابل ذلك تماماً سحق أيِّ قوَّة ناشئةٍ، بحجَّةِ أنَّها تهديدٌ وخطرٌ على الأمن والسَّلام العالميين، فلا داعي لأيِّ دولة للتَّفكير في التَّسلح ولا مسوِّغ لها في ذلك طالما أن هناك عيناً ساهرة تحول دونَ الخروج على الشَّرعيَّة الدوليَّة، وتعيد الحق إلى أصحابه. وقد سعى الرَّئيس **بل كلينتون** تأكيد ذلك بِرِقَّةٍ واضحةٍ وشيءٍ من اللباقة طيلة فترتي رئاسته، ويحاول **جورج بوش الابن** إقناع العالم بالقوَّة والإكراه والقهر والعنجهية أنَّ الولايات المتحدة تحمي السِّلم والأمن العالميين، وأنَّ من يعاديها فإنَّما هو يعادي الحرية والعدالة والأخلاق والقيم والسَّلام!!

انطلاقاً من هذه الرُّؤيا ذاتها الَّتي يعتقدها الأمريكيون اعتقد الكثيرون مع انهيار الاتحاد السوفيتي خاصَّة، ولاسِيَّما في بلدان العالم الثالث، أنَّ الولايات المتحدة جادَّةٌ فعلاً في تسوية الخلافات والنِّزاعات الدولية، وإزالة بؤر التَّوتُّر والقضاء على الصِّراعات المختلفة. ذلك أنَّ ظروف المرحلة المنصرمة وشروطها جعلت هذه الخلافات والصِّراعات مسوَّغةً، بل مفروضةٌ من طرفي النِّزاع الأكبر، لأنَّ كلاً منهما يريد الهيمنة على القِطَاعِ الأعظم من بلدان العالم ليتمكَّن من تهديد الطَّرف الآخر. أمَّا الآن، وفي ظلِّ سيادة السِّياسة الواحدة، الَّتي هي سياسة صاحبة الجلالة الأمريكيَّة، إمبراطورة العالم، لم يعد هناك مسوِّغٌ لهذه

النِّزاعات والصِّراعات، لأنَّ الأسباب الموجبة لها قَدْ زالت. ولذلك من الأَوْلَى بهذه الصِّراعات والنِّزاعات أن تزول أيضا...

لَقَد كانت الولايات المتحدة تتدخَّلُ، وتثيرُ الفتنَ والقلاقل هنا وهناك للمحافظة على قواعدها السِّياسيَّة والعسكريَّة، وإيجاد قواعد جديدة تمكِّنها من تهديد خصمها على نحوٍ أكبر. أمَّا الآن فلا يوجدُ ما يهدِّدُ الأمن الأمريكيَّ، أو الأمن العالميَّ كما تفهمه الولايات المتحدة. ومن ثَمَّ لم يعد ثَمَّةَ مسوِّغٌ لأن تدعم الولايات المتحدة بُؤَرَ التَّوتُّرِ والصِّراع في العالم.

وبالقياس التفاؤلي ذاته نَظَرَ التَّفاؤليُّون العربُ إلى موقف الولايات المتحدة من القضيَّة الفلسطينيَّة والصِّراع العربيِّ الصهيونيِّ، فرأوا، وأكبر الخطأ ما رأوا، أنَّ الدَّعم الأمريكيَّ المتزايد للكيان الصهيوني وعدِّه جزءاً من الكيان الأمريكيِّ، قَدْ كان بدافع الضَّغط على الأنظمة العربيَّة الَّتي يدعمها الاتحاد السوفيتي، وللوقوف أمام المدِّ الشِّيوعيِّ في هذه المنطقة، هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانيةٍ لضمان مصالحها في الخليج العربيِّ والمنطقة العربيَّة، أمَّا الآن، ومع زوال التَّهديد الشيوعي وتلاشي خطره، وتَعَزُّزِ الهيمنة الأمريكيَّة على نِفْطِ الخليج العربيِّ، لم يعدْ هناك ما يسوِّغُ لصاحبة الجلالة أن تستمرَّ في هدر إمكاناتها، وإغداق دعمها ومساعداتها للكيان الصهيوني، إذ ليس ثَمَّةَ عدوٌّ في المنطقة يُلجئُ الولايات المتحدة إلى استخدام الكيان الصهيونيِّ لتهديده والضَّغط عليه... ولذلك أصبح واجباً عليها ـ لأنَّ مصلحتها تقتضي ذلك ـ أنْ تسوِّي الصِّراع العربيَّ ـ الصهيونيَّ، وتقضي على بؤرة التَّوتُّرِ الخطيرة في هذه المنطقة الحسَّاسة والمهمَّةِ من العالم، لتضمنَ بذلك صدق صداقة العرب وحسن ولائهم.

وقد أكَّد هذه النَّزعة التَّفاؤليَّة عند أصحابها ظهورُ الولايات المتحدة فيما بعد حرب الخليج، بمظهر الوفي الأمين، الحريص كلَّ الحرص على الوفاء بتعهداته والتزاماته في تسوية الصِّراع وإحلال الأمن والسَّلام في المنطقة عندما نَشَطَ وزير خارجيَّتِها **جيمس بيكر** في رحلاته المكوكيَّة المكثَّفة والكثيرة للإسراع في عقد (مؤتمر السَّلام).

ولكنَّ تعنُّتَ الكيان الصِّهيونيِّ وإصراره على التشبُّثِ بمواقفه العدوانيَّة والتَّوسعيَّة، والممارسات المستمرَّة على هذا الصَّعيد، والَّتي تزايدتْ منذ ما قبلَ عَقْدِ المؤتمر، مثل إقامة المستوطنات الجديدة لتوطين المهاجرين اليهود السوفيت الجدد، والتَّوسُّع في السَّيطرةِ على مناطق جديدة للعرب الفلسطينيين، وإقصاء الفلسطينيين وطردهم من الأراضي العربيَّة المحتلَّة، والطَّلعات الاستفزازية للطيران الصهيوني في السَّماء اللبنانيَّة... كَشَفَ لنا بجلاء، كما يبدو ظاهر الأمر، عن العجز الأمريكيِّ عن الضَّغط على الكيان الصِّهيوني وإلزامه بمبادئ الشَّرعيَّة الدوليَّة واحترامها، والرُّضوخ لقراراتها، وعلى رغم ذلك مازلنا نسمع بين الحين والحين تعهُّداً والتزاماً أمريكيًّا بإنجاح مؤتمر السَّلام وفضِّ النِّزاع العربيِّ . الصهيوني...!!!

فكيف سَتُنِجْحُ الولايات المتحدة مؤتمر السلام؟!

انطلاقاً مِمَّا سبق، ومن أنَّ الكيان الصهيوني .كما يعتقد بعضهم . بات يشكِّلُ خطراً على تفرُّد صاحبة الجلالة، بتنامي قوته وتمرُّده على الإرادة الأمريكيَّة، بل وبفرض إرادته على الولايات المتحدة ذاتها، مما دعا إلى طرح العديد من التساؤلات في أوساط الكونجرس الأمريكيِّ، تتركَّز في سؤالٍ رئيسٍ هو:

«أمريكا أم إسرائيل؟ أيُّهما الأبدى والأكثر أهميَّةً: المصالح ا لأمريكيَّة أم المصالح الإسرائيلية؟».

يصرُّ المتفائلون على أنَّ ما تعنيه الولايات المتحدة من إنجاح مؤتمر السَّلام هو التَّدخُّل الفعلي لحسم الموقف بالضَّغط على الجانب الصهيوني، وإرغامه على الرُّضوخ لمنطق الحقِّ، وإرادة الشَّرعيَّة الدُّوليَّة، والقبول بالقرارين (٢٤٢) و (٣٣٨)، وقبول مبادلة الأرض بالسَّلام.

رُبَّما يكون لهذا التفاؤل ما يسوِّغه، ويعطيه حدًّا ما من المصداقيَّة لولا أنَّنا نقف أمام خصمٍ لا يرى العدل عدلاً ما لم ينصفه ولو على حساب الآخرين، ولا الشَّرع شرعاً ما لم يسنَّهُ هو، ولا القانون قانوناً ما لم يقف في صفه... ولذلك فإنَّ كلَّ الاعتقادات السَّابقة، إنَّما هي اعتقاداتٌ واهمةٌ، تقوم على أسسٍ واهيةٍ، وإن لم تكشف السنوات العشر من المفاوضات فستكشف ا لأيَّام القريبة القادمة لأصحاب هذه الاعتقادات عن مدى استغراقهم في أحلامهم الخادعة واسترسالهم بها.

قد يعتقد بعضٌ ما، ولاسِيَّما أولئك المتفائلون المعوِّلون على حسن النَّوايا الأمريكيَّة أنَّنا نَزَّاعون إلى التشاؤم، ورُبَّما اليأس، ولاسِيَّما أنَّ المفاوضات مازالت مستمرَّة، إلى جانب تدفُّق التَّعهُّدَات الأمريكيَّة بإنجاح مؤتمر السَّلام، وبقاء الولايات المتحدة قوَّةً دافعةً لعمليَّةِ السَّلام كلَّما أبدى العرب، أو وفودهم إلى مؤتمر السَّلام، تذمُّرهم من التَّعنُّتِ الصهيوني بطرح أمورٍ هامشيَّة للنِّقاش، ومواضيع لا غاية لها إلا أن تعرقل مسيرة السَّلام وتسوية الأوضاع في المنطقة.

فهل نحن.. ومن ذهب معنا إلى هذا الرَّأي، متشائمون فعلاً؟

لا أعتقد ذلك أبداً، لأنَّ الوقائع التَّاريخيَّة القريبة والبعيدة، والاستدلال الكشفي للمستقبل بناءً على المعطيات الواقعيَّة؛ الماثلة أمام أعيننا وفي أذهاننا، تؤكِّد، وعلى نحوٍ يمكننا وسمه بالقطعي، بأنَّ مؤتمر السَّلام إنَّما هو لعبةٌ قادتها الولايات المتحدة الأمريكيَّة لتمرير مخطَّطاتها الاستعماريَّة، وتعزيز مواقعها ومصالحها في المنطقة العربيَّة، وأن تظهر أمام دول العالم على أنَّها فعلاً قائدة مسيرة السلم والوفاق العالمي!!... فكيف كان ذلك ولماذا؟

للإجابة على هذا السُّؤال لا بدَّ من تأكيد الحقيقة الَّتي يعلمها الجميع، وهي أنَّ الغرب أوجد هذا الكيان ليبقى قائماً، لا لينتهي، وكثيرون أولئك المسؤولون الغربيون الذين صرحوا بذلك، ومن هؤلاء «الجنرال المتقاعد **بوب تايلور** مدير الدِّراسات العسكريَّة في مركز الدراسات الاستراتيجيَّة الدُّوليَّة، الذي أجاب بانفعال عما إذا كانت أبحاثهم في نتائج حرب الخليج قَدْ أوصلتهم إلى الاستنتاج بأن اعتماد الولايات المتحدة على إسرائيل قد انتهى، وأن إسرائيل لم تعد كما كانت منذ أكثر من ثلاثين عاماً، الرَّصيد الاستراتيجي للولايات المتحدة في الشرق ا لأوسط... وكانت إجابته انفعاليَّة بناءً على تصوُّرٍ أنَّ السُّؤال ينطوي على تشكيكٍ في مستقبلٍ إسرائيل، وليس فقط على مستقبل العلاقات الأمريكيَّة الإسرائيليَّة، فباندفاعٍ واضحٍ، ردَّ قائلاً: إنَّ إسرائيل وجدت لتبقى، وكلُّ الحقائق والتَّطوُّرات تؤكِّد ذلك»[١٠٧].

وقد بَذَلَ الغربُ وسيبذل كلَّ ما بوسعه لدعم وجود هذا الكيان وتقويته، ورفده بمختلف الإمكانات، لأنَّ وجوده هو الضَّامن الأوَّل والأكيد لمصالحه،

(١٠٧). انظر ذلك في مجلة **الكفاح العربي**. بيروت. العدد ٦٧٨. ٢٩ تموز/ يزليو ١٩٩٢م. ص ٢٠.

والْمُنَفِّذُ المخلص لمخطَّطاته. ولإيمان كثيرٍ من الأمريكيين بهذه الحقيقة ممن هم «في مناصب رفيعة في الكونجرس والحكومة، وفي مواقع أُخْرَى، فإنَّهُم يُظهرون التزاماً عميقاً غير قابلٍ للجدل تجاه إسرائيل لأنَّهم يعتقدون بأنَّ أيَّ شيءٍ تفعله إسرائيل هو أفضل شيء بالنسبة للولايات المتحدة»(١٠٨).

والمصالح الغربيَّة عموماً، والأمريكيَّة خاصَّةً، في الوطن العربي ليست بالقليلة ولا هي باليسيرة، وإنَّنا إذ نذكرها الآن، فإنَّما نذكِّر ولا نبتكر، وهذه المصالح يمكن إيجازها بكلمات قليلة هي: الحصول على المواد الخام والأوليَّة، وتأمين أسواق التَّصريف، وتعزيز مكانتها القياديَّة في العالم. والأكثر أهميَّة من ذلك هو بقاء المنطقة العربيَّة خاصَّة والعالم الإسلامي عامَّة في حالة من التوتر والضياع والانشغال عن التنمية والبناء. وعلى ضوء ذلك يمكن رسم معالم سياساتها في الوطن العربي، بالاعتماد بالدَّرجة الأولى على الكيان الصهيوني فيما يلي:

أولاً: السَّيطرة على بحور النِّفط العربي الذي يمثِّل المصدر الأوَّل والأكثر أهميَّةً للطاقة. وخير سبيلٍ لتحقيق هذه السَّيطرة وتدعيمها هو وجود خطرٍ وتهديدٍ يُخَيِّمُ فوق رأس الدُّول العربيَّة، ويجعلها في قلقٍ مستمرٍّ. ولذلك فإنَّ الوجود الصهيوني وحده ليس كافياً لتحقيق هذا الغرض، ووجود حالة تعايش سلميٍّ مع الدُّول العربيَّة، أيضا لا تؤتي أوكلها للغرب كما يحب ويشتهي، لأنَّ

---

(١٠٨). **لقاء مع عضو الكونجرس الأمريكي السَّابق بول فندلي**. ضمن جريدة **الشرق الأوسط**. تاريخ ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٨٣م. نقلاً عن محمد رشاد الشريف: **العلاقات ا لأمريكية الإسرائيلية** . ضمن مجلة **الوحدة**. العدد ٩٠. آذار / مارس ١٩٩٢م. ص٥٦.

ذلك سيؤدِّي إلى فقدان واحد من أهمِّ الدَّوافع الَّتي تفرض على العرب إغداق نفطهم على الغرب طلباً لودِّهم، ولاستعطافهم.

كما أنَّ هذا التعايش السلميَّ سيؤدِّي إلى صرف إمكانات الدُّول العربيَّة وطاقاتها، ولاسِيَّما دول المواجهة، المكرَّسة للتَّسلُّح خوف التهديد والاعتداء الصهيوني المستمرِّ، إلَى تنمية ا لاقتصاد، والجوانب الأُخْرى. الأمر الذي سيولِّد على نحوٍ أو آخر، عاجلاً أَو آجلاً دولاً متطوِّرةً قد تساهم إلى حدٍّ بعيدٍ في كفِّ يَدِ وصايةِ الغرب عن المنطقة، وهذا ما ليس يرضي صَلَفَ الهيمنة الغربيَّة وغرورها، ولذلك فهم بحاجة إلى تدعيم هذا الكيان الصهيوني وتدجيجه بمختلف صنوف الرِّيادة العسكريَّة والعلميَّة بحيث يظلُّ الأقوى، وهم بحاجة كذلك إلَى عدم الوصول إلى تعايش سلميٍّ، لتظلَّ هذه القوَّة تشكِّلُ خطراً وتهديداً للأمن العربي، ويظلُّ العرب بحالةٍ دائمةٍ من الرُّعب والقلق والتَّوتُّرِ.

ثانياً: الحيلولة دون قيام الوحدة العربيَّة: إنَّ ما يعتقده الكثيرون جدًّا من أنَّ الصهيونيَّة والكيان الصهيوني، أعتى الأخطار على الوحدة العربيَّة، وأنَّ أكبر الأخطار الَّتي تهدِّدُ الكيانَ الصهيوني هي الوحدة العربيَّة، اعتقادٌ صحيحٌ لا لبس فيه، لولا أَنَّهُ يجعل من هذين الطَّرفين أسَّ الصِّراع ومتنه، ويغدو الغرب إذ ذاك محض داعمٍ للكيان الصهيوني وأحد الأطراف المستفيدة من استمراره.

وحقيقة الأمر خلاف ذلك تماماً، إذ إنَّ الصهيونيَّة، ومنذ بدايات نشوئها، كانت اليد والسَّند للدُّول الغربيَّة، ولاسِيَّما الأقوى منها، بنزوعها العدواني والاستعماري، وما الكيان الصهيوني إلا امتدادٌ أشدُّ خطراً من الحركة الصهيونيَّة، ووجود الكيان الصهيوني في الأرض العربيَّة امتدادٌ لدعم المصالح الغربيَّة وعلى ضوء ذلك نفهم العداء المتأصِّل بين الكيان الصهيوني والوحدة العربية. فَصَحِيْحٌ

أنَّ الوحدة العربيَّة تجسِّدُ تهديداً وخطراً على الكيان الصهيوني إلاَّ أنَّ خطر هذه الوحدة إنَّما هو على الغرب ذاته، لأنَّ هذه الوحدة ستؤدِّي على نحوٍ أو آخر إلى ضرب المصالح الغربيَّة في المنطقة العربيَّة من خلال قطعها دابر وجوده وهيمنته العسكريَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة الَّتي يستمدُّ منها نسغ وجوده وهيمنته العالميَّة، ومن أجل ذلك أوجد الغرب هذا الكيان ليكونَ حائلاً دون تحقيق الوحدة العربيَّة، لأنَّ هذه الوحدة ستجسِّدُ تهديداً له وخطراً عليه، ممَّا يفرض عليه أن يظلَّ متوثِّبا للحيلولة دون تحقيق هذه الوحدة، أي ليظلَّ تهديداً وخطراً عليها.

ثالثاً: الحيلولة دون أيِّ تقدُّم وازدهارٍ في البلدان العربيَّة، ولاسِيَّما على المستويين التَّقاني والاقتصادي، لأنَّ ذلك سيؤدِّي حكماً إلَى نتائج عديدة كلها تضرُّ بالمصالح الغربيَّة، ومن أكثرها أهميَّةً تصنيع المواد ا لأوليَّة محليًّا، وعدم تصديرها بأبخس الأثمان إلَى الدول الغربيَّة، والوصول إلَى الاكتفاء الذَّاتي الذي سيغلقُ السُّوق المحليَّة (على الأقل، ورُبَّما أسواق الدول المجاورة) أمام البضائع الغربيَّة. ورُبَّما يقود في نهاية المطاف إلَى وجود استراتيجيا عسكريَّة تقف أمام التهديدات المستمرَّة للعرب.

ولقد كان الكيان الصهيوني خير سبيلٍ وأفضل وسيلةٍ لتحقيق هذا الغرض، إمَّا على نحوٍ مباشرٍ كما حدث عام ١٩٨١م عندما قام طيران الكيان الصهيوني بضرب المفاعل النَّووي العراقي، أو على نحو غير مباشر لأنَّ وجوده سيفرض على الدول العربيَّة، ولاسِيَّما المجاورة له، أن تصرف جلَّ الإمكانات إلَى شراء الأسلحة لمجابهة هذا العدو المترصِّد بأهدافه التَّوسعيَّة والعدوانيَّة الدَّائمة. وفي حين يزوِّدون الكيان الصهيوني بآخر ما توصَّلت إليه فنون العلم والتقنية من طرز الأسلحة وصنوفها، تظلُّ هذه الأسلحة حلماً عند العرب إلى ما قبل تنسيقها

بقليل. هذا إلى جانب حقيقةٍ جدِّ مهمَّةٍ يجب التَّوقُّف عندها مليًّا، وهي أنَّنا لن نستطيع البتة أن نجابهه عدوَّنا بأسلحة نستوردها منه.

تلكم هي السِّياسة الغربيَّة تجاه العرب والكيان الصهيوني، والتي لن تتغيَّرَ إلاَّ بمعجزةٍ من المعجزات، فهل ننتظر المعجزات في زمن اللامعجزات حَتَّى نردَّ ماء وجهنا المراق ونصون كرامتنا المستباحة، أم نَتَحَرَّكَ على ضوء هذه المعطيات الواقعة؛ جليَّة الوضوح؟ فإن كان الاحتمال الأوَّل فإنَّنا سنصبر إلى ما شاء الصَّبر أن نصبر!! ورُبَّما لن تائي المعجزة. وإن كان الاحتمال الثَّاني فعلينا أن نعيد حساباتنا، ونبدأ البناء من جديد.

رابعاً: وآخِراً وليس أخيراً، تقع فلسطين الَّتي سُلِخَتْ مستقرًّا للكيان الصهيوني موقعاً استراتيجيًّا مهمًّا يقدِّم للغرب فوائد جلى، فهو يتوسَّط الوطن العربي، ويقع بالقرب من واحدٍ من أكثر المعابر المائيَّة الدوليَّة أهميَّةً، ولذلك فهو يعدُّ أحد أكثر القواعد العسكرية أهميَّةً للدول الغربيَّة، الَّتي يمكن الاعتماد عليها في القيام بأيِّ تحرُّكٍ أو عملٍ عسكريٍّ في المنطقة كلما لزم الأمر، أو بالتهديد المباشر لكلِّ الدُّول المجاورة والواقعة ضمن المدى الاستراتيجي للأسلحة الَّتي أُتخم بها الكيان الصهيوني.

إنَّ هذه العوامل مجتمعةً ومتفرِّقةً، وغيرها، تجعل استمرار وجود الكيان الصهيوني في المنطقة أمراً يصعب الاستغناء عنه للدول الغربيَّة، لأنَّ مصالحها مرتبطةٌ ارتباطاً كليًّا بوجوده، وإذ ذاك لا تغدو المسألة مسألة وجود الكيان الصهيوني أَو عدم وجوده، وإنَّما هي مسألة تقويته ودعمه ورفده بمختلف ا لإمكانات والطاقات العلميَّة والتِّقانيَّة والماديَّة الَّتي تؤهِّله للقيام بواجبه على أكمل وجهٍ دائماً، ولا سيِّما من حيث ضرورةُ بقائه شوكةً في حلق المنطقة.

قلنا الغرب والدُّول الغربيَّة ولم نخص الولايات المتحدة الأمريكيَّة لأنَّ لنا في ذلك مأربا نودُّ تبيانه، وهو أنَّ الكيان الصهيوني ليس صنيع الولايات المتحدة ولا هو صنيع بريطانيا الَّتي أوجدته، وإنَّما هو صنيع الغرب الذي ما فتئ منذ مطلع الانقسام إِلَى الغرب والشَّرق يكنُّ للشَّرق أعمق مشاعر الكره والعداء، ومن ثَمَّ فإنَّ طرح فلسطين لتكونَ موطناً لليهود لم يأت اعتباطاً ولا خبط عشواء، فقد أُريدَ من ذلك خلق قاعدة دائمة للغرب في قلب الأمَّة العربيَّة، والاهتمام بهذا الكيان ودعمه مسؤوليَّة الدولة الأقوى، ولذلك ما إن انتهى الدور القيادي البريطاني حَتَّى ارتمت الصهيونيَّة والكيان الصهيوني في أحضان صاحبة الجلالة الولايات المتحدة ا لأمريكيَّة. وتتبُّع تاريخ الحركة الصهيونيَّة يُرينا كيف أن الأقوى دائماً هو الذي يحتضنها، ليس حبًّا بها وإنَّما لخدمة مصالحه وتعزيز مواقعه.

والولايات المتحدة الآن أشدُّ حاجة للصهيونيَّة والكيان الصهيوني من أيِّ وقتٍ مضى، لأنَّها أصبحت شبه وحيدةٍ في ميدان المنافسة «وإسرائيل. كما تقرِّر لجنه العلاقات الأمريكيَّة الإسرائيليَّة. هي حجر الزَّاوية للمصالح الأمريكيَّة الحيويَّة في الشَّرق الأوسط، وهي في الأساس كيانٌ عسكريٌّ مهيَّأٌ للعمل الجادِّ في الإطار الأمريكي»[١٠٩]، ولذلك لن تبخلَ الولايات المتَّحدة عن مدِّ يَدِ العون والدَّعم لهذا الكيان، ولن تفكِّرَ بالضَّغط عليه لإكراهه على ما يرضي العرب ويسرُّ خاطرهم على حساب مصالح الطَّرفين؛ الولايات المتحدة والكيان الصهيوني، فهذا أمرٌ غير واردٍ في المفكرة الأمريكيَّة ولا متوقَّعٍ منها أبداً. وما مؤتمر السَّلام إلاَّ لعبة قادتها الولايات المتحدة لتحقيق غاياتٍ كثيرة منها أن تنتزع من العرب

(١٠٩) . محمد رشاد الشريف– م. س– ذاته.

اعترافاً بالكيان الصهيوني بوصفه دولةً قائمةً لها الحقُّ في الوجود على الأرض العربيَّة ومحاسبتهم على أيِّ تقصير في حقِّ هذا الاعتراف أو أيِّ إساءة له. ثُمَّ وضع العرب أمام الخِيَارات الصَّعبة، والتَّنصُّل من تعهُّداتها والتزاماتها بتسوية الخلافات بطريقةٍ كانت لبقة ومؤدَّبة، وصارت فجَّة غليظة خالية من أيِّ ذوق أو أدب. وكانت تريد الظهور على أنَّها أدَّت الأمانة وأوصلت الرِّسالة، ولم تعد تبالي بقناعة أو اقتناع أحد اليوم.

إنَّ الولايات المتحدة، وبحجَّةِ عدم امتلاكها الحقَّ في إكراه أطراف مؤتمر السَّلام ولاسِيَّما الكيان الصهيوني، على تقديم أيِّ تنازلات، ستضعُ العربَ في مأزقٍ حرجٍ فعلاً؛ فإمَّا أن يظهروا أعداء للسلام!! أو أن يقدِّموا مزيداً من التَّنازلات. ذلك أنَّ التَّعنُّت الإسرائيلي، وإصراره على عدم تقديم أيِّ تنازلات، ومع عدم وجود ضغط وإلزام أمريكي أو دولي على هذا الكيان للقبول بقرارات الشَّرعيَّة الدُّوليَّة سَيُفْرَضُ على العرب أحد حلَّين، أحلاهما مرٌّ:

أولاً: الانسحاب عن المفاوضات، وبذلك نغدو نحن أصحاب الحقِّ أعداء للسلام، ويظهر الكيان الصهيوني، وهو الغاصب المعتدي، بمظهر المحبِّ للسَّلام، ورُبَّما يجرُّ ذلك إلى حملات عدوانيَّةٍ تَوَسُّعيَّةٍ جديدةٍ يقوم بها الكيان الصهيوني.

ثانياً: الرُّضوخ للتَّعنُّتِ الصهيوني والقبول بالسَّلام على طريقة **إسحاق شامير**، ومن جاء بعده مثل **نتنياهو وباراك وشارون**، والَّتي تقوم على مبدأ السَّلام مقابل السَّلام، ورفض مبدأ الأرض مقابل السَّلام، ومن ثَمَّ التَّنكُّر لقرارات الشَّرعيَّة الدوليَّة القاضية بانسحاب الكيان الصهيوني من الأراضي المحتلة إبان عدوان حزيران ١٩٦٧م وما بعده. وإذ ذاك سينقلب مؤتمر السَّلام إلى مؤتمر

استسلام. وفي هذه الحال سيكون بقاء الواقع على ما كان عليه قبل المؤتمر خيرٌ وأفضل بكثير مما بعده.

سيدَّعي بعض (دهاتنا) أنَّنا سنكسب تأييد الرَّأي العام العالمي ونظر الكيان الصهيوني أمام العالم على حقيقته. وقد بدا بما يفقأ عين الجاحد أنَّ الادِّعاء ادِّعاء زائفٌ، واهمٌ. لأنَّه يقوم على افتراض جَهْلَ الغرب بحقيقة الكيان الصهيوني الذي اصطنعه هو، وأوجده ورسم له مناهج سلوكه وخطط عمله، كما يفترض حياد الدُّول الغربيَّة من هذا الصراع، وهذا أيضا وهمٌ وزيفٌ، وقد بَيَّنا السَّبب في ذلك فيما قد سبق.

إنَّ الْخِيارين كلاهما مرٌّ لا حلو فيه البتة.

ولكن ماذا لو حدث الاحتمال الثَّالث وتمَّ والسلام؟ ولماذا لا يتمُّ السلام؟ وبماذا يضر ذلك الولايات المتحدة؟

رُبَّما مرَّت الإجابة عرضاً في سابق عرضنا، ولكن من المؤكِّد أَنَّهُ بات من السهل الوصول إِلَى الإجابة من دون كثير عناء.

أشرنا في بعض الفصول إِلَى أنَّ الافتراض النظري يقول إنَّ من مصلحة الشعب اليهودي المستوطن في فلسطين أن يقوم السلام كي يخرج من حالة التوتر والقلق الذي لم يخرج منه منذ تأسس الكيان الصهيوني، ورُبَّما زاد التوتر والقلق أضعافاً مضاعفة بعد الانتفاضة الثانية الَّتي اندلعت في أيلول من عام ٢٠٠٠م. وهذا يعني في الافتراض النَّظري أن من مصلحة إسرائيل بعدما انتزعت الاعتراف بوجودها أن تقيم السلام ولو بمزيد من التنازلات. فلماذا لا يقومون بذلك وكامل مصلحتهم فيه؟

الحقيقة أنَّ القرار ليس بيدهم على الإطلاق وإنَّما هو بأيدي الولايات المتحدة الأمريكيَّة لأنَّ الولايات المتحدة تنظر إِلَى الأمر على النحو التالي:

إذا تحقق السلام العربي الإسرائيلي وانعدم الصِّراع فإنَّ ذلك سيؤدِّي عاجلاً أو آجلاً إِلَى اندماج اليهود في المجتمع العربي، وزوال الخلافات العربيَّة العربيَّة رويداً رويداً لأنَّ الجذر الأساسي للخلافات العربيَّة العربيَّة ناجم عن الصِّراع العربي الصِّهيوني ورُبَّما يوجد سبب آخر لهذا الخلاف. وهذا ما سيؤدي في لحظة رُبَّما تكون غير محسوبة ولا متوقعة إِلَى قيام دولة عربيَّة قويَّة أو أكثر تلتف حولها الدول العربيَّة الأُخْرى، ويبدأ الدور السِّياسي والاقتصادي العربي بالظُّهور، وهذا الظُّهور سيكون على حساب المصالح الأمريكيَّة بالضَّرورة، وهذا ما سيعني في محصلة الأمر الَّتي قَدْ تطول أو تقصر أن يحتل العالم العربي مكان الصَّدارة أو المنافس الذي سيؤدِّي إِلَى زوال المجد الأمريكي، ورُبَّما يصعب إغفال البعد الديني في طبيعة الصراع بين الحضارات.

هذا يعني أنَّ السَّلام العربي الإسرائيلي لم يخدم الولايات المتحدة على الإطلاق بل أدى إِلَى إلحاق الضرر الجسيم بها.

هنا صار من السَّهل أن نعرف لماذا بدأ التأسيس لمؤتمر السَّلام بحماس أمريكي منقطع النَّظير وراح يتراخى رويداً رويداً حَتَّى وصل الأمر الآن إِلَى حدِّ الاشتراك المباشر بالمجازر الَّتي تقيمها إسرائيل لشعبنا في فلسطين.

رُبَّما لم تتوقع الولايات المتحدة أن تسير عربة السلام على النحو الذي سارت عليه، ولذلك بدأت العملية السلمية بحماس، ولكِنَّها عندما رأت إقبال العرب المتهافت على إسرائيل حَتَّى قبل إنهاء مفاوضات السلام أعادت الحسابات ووجدت أنَّ السَّلام سيؤذيها ولن يفيدها، ولذلك راحت تعيد بناء

اللعبة من جديد؛ كُلَّما قدَّم العرب تنازلاً قلبت إسرائيل طاولة المفاوضات وطالبت بتنازل جديد. ولكن بدا أنَّ معظم الحكام العرب مستعدون للسير في طريق التنازلات إِلَى ما لا نهاية، هنا أسقط في يد الولايات المتحدة ولم تجد بدًّا من تصعيد التوتر الإسرائيلي العربي بحيث يصعب التفكير في هدوء بعد فكان الدعم الفاضح المخزي للمجازر الإسرائيليَّة الَّتي هزَّت ضمائر الميتة قبل الحيَّة.

أمريكا تريد أن تقول: لن يكون هناك سلام بَيْنَ العرب وإسرائيل، ولا يجوز أن يكون هذا السَّلام. وعليكم أَيُّهَا العرب أن تركعوا فَقَطْ إِلَى يوم يبعثون لأنَّ وقوفكم قَدْ يؤدي إِلَى مشكلات يصعب حلُّها.

* * *

الفصل الخامس عشر

مصير
السلام العربي الإسرائيلي

ليس التَّاريخ مجرَّد كتاب واحدٍ ولا مئة، إنَّه قبل ذلك ذاكرة الشَّعب؛ الشَّعب الذي يصنع التَّاريخ ويقوده، فإن كبا هذا الشَّعب يوماً أَو مرحلةً فإنَّ ذاكرته لا تغفو ولا تموت، تظلُّ حيَّةً؛ تأَخذ من الآخرين بقدر نقصها لتسدَّ ثغرات تصدُّعها حتَّى يحين الحين الذي تلتئم جراحها فيه فيخرج الدَّخيل خروج القيح من الجرح.

« لا نستطيع أَن نبني وطناً على أَنقاض كذبة كبرى، أَمَّا هنودنا الحمر فما زالوا على قيد الحياة يدلِّلون على كذبة إسرائيل الكبرى، ونحن لا يمكننا أَن نجعلهم ينسوا حيفا ويافا وعكَّا والعباسيَّة .... ولا الأَربعمئة قرية الَّتي سُحقت عن بكرة أَبيها ».

إيال سيفان

أليس غريباً أَن نبدأ خطابنا بعنوان مفعمٍ بالتَّشاؤم الصَّارخ وسط معمعة التَّفاؤل بالسَّلام والمساعي الحثيثة المكثَّفة لتسريع إتمام العمليَّة السِّلميَّة بين العرب وإسرائيل ؟!

المتفائلون بالسَّلام ومستقبل السَّلام كثيرون، والمتشائمون أَيضاً كثيرون، **ونحن واقعيون؛ نزعم أَنَّنا نستقرؤ الواقع من الواقع، فلا يدفعنا تفاؤلنا إلى القفز فوق جدران الواقع والتَّاريخ، ولا يحول تشاؤمنا دون منطقيَّة تفكيرنا. ولذلك نقرُّ أَنَّ الواقع قد يتجاوزنا، يخالف إراداتنا، يقمطر الجبين لحقوقنا، يمدُّ لسانه لتفاؤلنا** .... ولكنَّ دقَّته لاتقبل أَبداً أَن تظلَّ في يدٍ واحدة؛ نحن نقبل بشروط الواقع، ونرضخ لها على الرُّغم منَّا مهما قست علينا لأَنَّ **الواقع ليس معنا، فهل سيظلُّ مع غيرنا ؟**

أَربعون عاماً تزيد نيِّفاً؛ عجزنا عن الصَّبر أَكثر، ملء اليأس نفوسنا بالضَّجر، **ظننَّا أَن عجلة التَّاريخ قد توقَّفت هنا ففقدنا الأَمل، وقادنا هذا إلى الاعتراف بإسرائيل والإقرار بأنَّها دولة لها سيادتها على أَرضنا في الوقت الذي لا يستطيع امرؤٌ في العالم كلِّه أَن ينكرَ أَنَّ فلسطين عربيَّة وأَنَّ إسرائيل كيانٌ يقومٌ على أَرض عربيَّة، حتَّى اليهود ذاتهم؛ يزعمون ما يزعمون ولكنَّهم في قرارات أَنفسهم لا يجهلون أَنَّهم قادمون من أَراضٍ هي أَوطانهم، وليس في مكنتهم ولا في مكنة غيرهم تجاوز هذه الحقيقة مهما بلغ التَّضليل الإعلامي، ومهما تمَّ من تعديلٍ في كتب التَّاريخ والجغرافيا والتَّربية، لأَنَّ التَّاريخ ليس مجرَّد كتاب واحد ولا مئة؛ إنَّه قبل ذلك ذاكرة الشَّعب؛ الشَّعب الذي يصنع التَّاريخ ويقوده، فإن كبا هذا الشَّعب يوماً أَو مرحلةً فإنَّ ذاكرته لا تغفو ولا تموت، تظلُّ حيَّةً؛ هي غير فاعلة في هذا الظَّرف ولكنَّ انفعالها ليس يعني فناءها أَو تلاشيها أَو اندماجها الكلِّي في الآخر، إنَّها تأخذ بقدر نقصها لتسدَّ ثغرات تصدُّعها وشروخها حتَّى يحين الحين الذي تلتئم جراحها فيه وترتئب صدوعها فيخرج الدَّخيل خروج القيح من الجرح، وهذه هي عمليَّة التَّطهير اللاشعوريَّة التي تقوم بها ذاكرة الشَّعب عندما تكون قادرة على الحذف والاصطفاء، مثلها في ذلك مثل الجسد القوي القادر على قتل الجراثيم والميكروبات وتطهير الجسم منها بآليَّة تلقائيَّة لا إراديَّة.**

هذه الفكرة ليست اجتهاداً ذاتيَّاً محضاً؛ إنَّها سيرورة التَّاريخ التي لولا التَّأدُّب مع الدَّهر لسمَّيناها جبريَّة. وما مضى من الوقائع / التَّاريخ يجلو لنا هذه

الحقيقة حتَّى تبدو أَمامنا عارية نضطرُّ لغض الطَّرف حياءً من قصورنا عن إدراكها وهي على ما هي عليه من عري؛ بدءاً من أَقدم حوادث الاحتلال التي أَنبأنا عنها المؤرِّخون؛ ومنها احتلال نفرٍ من اليهود فلسطين وطردهم منها، وغزو الصَّليبين فلسطين وطردهم منها أَيضاً، وحتَّى الفتوح الإسلاميَّة التي هي في عرف المؤرِّخين أَرحم الفتوح، من دون نسيان الإمبراطوريَّات الكبرى والاحتلالات الكثيرة جدَّاً، وصولاً إلى عصرنا الرَّاهن، فماذا في عصرنا؟

سنغض الطَّرف عمَّا حدث وانتهى من وقائع وحقائق دامغة تفقأ أَعين الجاحدين ونقف عند نموذجين معاصرين ومستقبليين في آن معاً؛ هما أَلمانيا وإسرائيل.

أَلمانيا دولةٌ أُمَّةٌ لها كينونتها التَّاريخيَّة، اندفعت بمطامح ومطامع معيَّنة إلى شنِّ حربٍ قُدِّر لها أَن تكون عالميَّةً كبرى، انتهت بانهزامها ورضوخها لشروط المنتصرين الذين لم يرحموا ولم ينصفوا؛ اقتطعوا أَراضٍ أَلمانيَّة وتبرعوا بها لبعض جيرانها لأَسباب هم قدَّروها، وقد وقَّع الأَلمان على ذلك وأَقرُّوا به، ولقد ظلُّوا على إقرارهم حتَّى الآن، فهل سيواظبون على السَّمع والطَّاعة للمحافظة على ما أَقرُّوا به ووقَّعوا عليه ؟

هانس شميدت أَمريكيٌّ أَلمانيُّ الأَصل، ليس نازحاً ولا مهجَّراً ولا مُبْعَداً، يُفترض أَنَّه بتأمركه الطَّوعي قد نسي أَلمانيا وهمومها الَّتي لم تعد همومه، ولكنَّه لم ينس أَنَّ في الواقع الأَلماني خللاً ينتظر الإصلاح بطريقة أَو بأُخرى، لم ينس أَنَّ هناك أَراضٍ أَلمانيَّة مقتطعة من الجوار أَو للجوار، وعندما وجد أَنَّ الظُّروف الدُّوليَّة مناسبة أَعلن مشاعره باسم الشَّعب الأَلماني الذي لم ينس ولن ينسى

قضيَّته. يقول في كتابه الصَّادر عام ١٩٩٢ م بعنوان: **السَّيطرة الأَلمانيَّة في أَوربا:**

{« إمَّا الاعتراف بفقدان الأَراضي الأَلمانيَّة وراء خطِّ (الأُودر ـ نيس)، أَو حذف جميع الطَّلبات الفرديَّة لملايين الأَلمان المطالبة ببيوتهم ومزارعهم في الشَّرق، أَو أَنَّكم ستفقدون فرصة إعادة توحيد أَلمانيا! » هذا ما قاله المستشار الأَلماني **هلموت كول** علناً حول شروط الحلفاء وأَشار بذلك إلى أَنَّ حكومته تعمل تحت الإكراه، وهكذا أَعلن، ربَّما بشكل غير متعمَّد. إنَّ اتِّفاقيَّة ٤+٢ «الحلفاء الأَربعة + الأَلمانيتان» عديم القيمة وأَيُّ محامٍ مبتدئ يستطيع تأَكيد ذلك.

هل بولونيا التي تمتلك حاليَّاً حوالي ¼ الأَراضي التي كانت أَلمانيَّة طيلة ٨٠٠ عام، أَكثر أَماناً في حدودها؟ وهل حقَّاً أَصبحت الحدود « الأَلمانيَّة ـ البولونيَّة » حدود سلام، كما يسمِّيها الشِّيوعيون؟

فيما يلي مقتطفات من أَحد المواطنين الأَلمان:

«بالتَّأكيد، سوف يكون البولونيون، شأن جميع الشُّعوب الأُخرى في أُوربا، قادرين على العيش ضمن حدود آمنة، ولأَنَّ هذا بالتَّحديد هو تمنِّياتي لهم، فإني لا أُوافق أَن يكون خطَّ نهري (الأُودر ـ نيس) هو الحدود الأَلمانيَّة ـ البولونيَّة الثَّابتة، إنَّ هذه الحدود مرسومة على أَساس غير عادل، ولن توفِّر السَّلام لأَجيالنا».

«إنَّني لا أُريد أَن تحدث حربٌ أُخرى فوق الحدود الأَلمانيَّة ـ البولونيَّة لكن لا يستطيع البرلمان الأَلماني أَو الحكومة الأَلمانيَّة أَن تعرف كيف ستشعر الأَجيال القادمة إزاء حدود (الأُودر ـ نيس)، لذا لا يستطيع أَيُّ امرئٍ في الحقيقة أَن يعطي ضمانات أَبديَّة للحفاظ على الحدود الحاليَّة، إنَّ خطَّ حدود

(الأُودر ـ نيس) يعني أَنَّه في يوم ما فإنَّ أَلمانيا قويَّة لن تكتفي باسترجاع الأَراضي التي هي ملك شرعيٌّ للرَّايخ، بل ستقوم بضمِّ **¼** الأَراضي البولونيَّة الحقيقيَّة، كردِّ فعل على ممارسات الحلفاء الحاليَّة ... وسوف يكون للأَلمان الحقُّ في طرد جميع البولونيين الذين يسكنون في هذه الأَراضي البولونيَّة منذ زمن بعيد « كما حدث للأَلمان من قبل ». لقد ذهب القساوسة البولونيون بعيداً بأَنَّ عمليَّة سلب الأَراضي الأَلمانيَّة التي يمتلكها الأَلمان منذ ٨٠٠ سنة هي عبارة عن « إعادة الأَراضي التي كانت بولونيَّة سابقاً » وعلى ضوء هذا يجب طرح مسألة ما إذا كنَّا قادرين على بناء أَوربا جديدة على مثل هذه القاعدة من الأَكاذيب الفاضحة وعدم العدالة ».

« مرور الوقت لا يضفي الشَّرعيَّة على السَّرقة، ولو بعد ٤٥ عاماً، فمعاهدة وارسو ١٩٧٠م ومعاهدة موسكو ١٩٩٠م، المتعلِّقتان بالأَراضي الأَلمانيَّة ليس لهما سند قانوني طالما وُقِّعتا تحت التَّهديد وطالما أَنَّ كلَّ أَلمانيا حتَّى عام ١٩٩٢م مُحتلَّة »}[١١٠].

غريبة هذه المفاجأة التي طلع بها علينا **هانس شميدت** في ختام قوله، كلنَّا يعرف أَنَّ أَلمانيا ـ قبل الوحدة وبعدها ـ مستقلَّة (وعين الله عليها) تعجب من لا يعجبه العجب، فكيف يقول إنَّها ما زالت مُحتلَّة ؟! فإذا كانت أَلمانيا التي هي على ما عليه محتلَّةً أَترانا نثق بأَنَّ هناك دولة عربية غير محتلَّة ؟!! هذا هو السُّؤال.

(١١٠) ـ النص السابق المحصور بداية ونهاية بحاضنتين كبيرتين {} كله مأخوذ من صفحات مختلفة من كتاب هانس شميدت: السيطرة الألمانية في أوربا ـ ترجمة صياح جيهم ـ الإدارة السياسية ـ دمشق ـ ١٩٩٤م.

لن نجتهد في الإجابة عن هذا السُّؤال لثقتنا في صدق العرب مع أَنفسهم، فهم يحتفلون سنويًّا بأَعياد استقلالهم؛ طبلاً وزمراً ونفخاً في الأَبواق، وحسبنا أَن نتساءل:

إذا كان هذا حال أَلمانيا مع بولونيا وهما كلتاهما دولتان أُمَّتان قوميَّتان تاريخيَّتان، لكلٍّ منهما أَرضها وشعبها وإطارها الجغرافي والتَّاريخي وإرثها الحضاري والثَّقافي والأَخلاقي ... فما حال العرب وإسرائيل ؟! وهل يختلف العرب في ذلك عن الأَلمان؟

لن نجيب نحن لأَنَّنا الطَّرف المُستلَب المقهور، ولأنَّ الظلم واقع علينا نحن، ولأن الجرائم الإسرائيلية ترتكب بحقنا نحن، ولأننا في الافتراض المنطقي والعقلاني والواقعي لن نقبل بسلام يغتصب أرضنا على أقل تقدير، ولا يجوز لنا ذلك أصلاً. ولذلك سنترك الإجابة لليهود أنفسهم، ناسين ومتناسين الكثير من وجهات النَّظر التي تؤكد الحقيقة ذاتها، ليس لعدم أهميتها، بل لأنَّنا أمام اعتقاد اليهود أنفسهم. وكما قالوا ليس بعد الكفر ذنب، كذلك ليس لإقرار أحدٍ أهميَّة بعد إقرار اليهود أنفسهم بهذه الحقيقة؛ حقيقة أنَّ السَّلام العربي الإسرائيلي خدعة، لن يطويها الزَّمان مهما امتدت بها السنين.

سنقف عند نماذج قليلة فَقَطْ، لأنَّنا لو أطلنا البحث قليلاً لوجدنا مئات، بل آلاف النماذج المعبرة عن الحقيقة ذاتها التي نعتقدها، سيان أكان ذلك من اليهود أنفسهم أم من غيرهم من المنتمين إلى أمم الأرض كلها، بغضِّ النظر عن العرب والمسلمين الذين لا يرون، بالضرورة، في الكيان الصهيوني إلاَّ حالة طارئة برسم الزوال.

الأنموذج الأول

عندما سئل **بنجوريون** عن مستقبل الصراع مع العرب حول فلسطين، قال: لا يوجد حلٌّ أبداً للصراع. لأنَّ هناك أرض يتنازع عليها طرفان، ولا يمكن أن تكون إلاَّ لواحد منهما فَقَطْ، ولا يمكن أن ينتهي الصراع طالما أن الطرفان المتنازعان موجودان، ولذلك يجب أن تسعى إسرائيل بكل الوسائل الممكنة، بما فيها العنف والإرهاب والخداع لكي تجعل الطرف الآخر يتنازل عن مطلبه بهذه الأرض.

إنَّ كلام **بنجوريون** هذا على بالغ أهميته، ليس الأكثر أهمية، ولكنَّ له خصوصية متميزة كونه صادر عن مؤسس الدولة اليهودية، أي في مهد تأسيس هذا الكيان. أي، وبمعنى آخر، إن إسرائيل قامت على أنَّها مشروع كيان آيل إلى الزوال. وكل المحاولات التي تبذل لبقاء هذا الكيان إنَّما هي بمنزلة إبر مهدئة، أو مخدرة. لأنَّ مشكلة أصحاب الأرض ليست مرتبطة بالفلسطينيين فَقَطْ، وإنَّما الشعب العربي كله على أقل تقدير.

ومشكلة الصهاينة الأكبر تكمن في أنَّهُم لم يصدموا بشعب قليل لأرض صغيرة هي فلسطين وحسب، ولا بالشعب العربي وحده الذي هو امتداد للشعب الفلسطيني وحسب، بل ناصبوا العالم الإسلامي كله العداء لأنَّ القدس لا تقل عند المسلمين أهمية عن البيت الحرام والمسجد النبوي. وإن كان العالم الإسلامي الآن ملجماً، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، وكذلك العالم العربي، فإن الأمور لا يمكن أن تظل كما هي عليه الآن إلى الأبد.

الأنموذج الثاني

في كانون الأول من عام ٢٠٠٠م، أعلن **داني ياتوم** رئيس الاستخبارات الإسرائيلية (الموساد)، في لقاء صحافي حقيقة مفاوضات التسوية، والنتائج المعولة عليها، إذ قال: «إننا نعتقد أنَّ السلام مع العرب ليس إلاَّ هدنة مؤقتة، وكذلك العرب فإنَّهُم يعتقدون في قرارة أنفسهم أنَّ السلام ليس إلاَّ هدنة طويلة الأجل»(١١١). وقد أصاب في ذلك كبد الحقيقة، وعبر تماماً عن المضمون الذي وضحناه قبل قليل على لسان **هانس شميدت**، والذي يؤكد أنَّ الحق وإن طال ضياعه فإنَّه لا بدَّ أن ينتصر. وبهذا المعنى تماماً قال **شارون**: «إذا انسحبت من نابلس ورفرف العلم الفلسطيني فوقها، فمن ذا الذي يحميني من سكاكينهم في حيفا؟».

والحقَّ أنَّ هذا ما يشغل بال يهود إسرائيل منذ تأسيس هذا الكيان، وبغضِّ النظر عما إذا كان قد ظهر هذا الهمُّ في الأدبيات الصهيونية سابقاً أم لا فإنَّ نفراً غير قليل من اليهود في العالم، وأدباء إسرائيل شعرائها وصحافييها أمثال: **إسحاق ليؤور، واشر رايخ، وزائيف ديفيس ودواليا رابكوفيتش، وداني روبنشتاين**، وغيرهم قد بدأوا يعبرون عن هذه المخاوف على نحوٍ متزايدٍ، حتَّى إنَّ بعضهم «ذهب إلى تحديد السَّنوات المتبقية من عمر الكيان الصهيوني قبل أن يؤول أمره إلى التَّفتت والزَّوال»(١١٢).

---

(١١١) ـ ذكر ذلك الدكتور يحيى العريضي في برنامج له على الفضائية السورية يوم الثلاثاء ٨شباط٢٠٠٠م.

(١١٢) ـ **العدو يعيش قلق الأسئلة المصيرية** ـ ضمن جريدة العهد ـ بيروت ـ العدد٩٨١ ـ ٧ ذو الحجة ١٤١هـ الموافق لـ ٢ آذار٢٠٠١م.

وهذا هو الصحافي **باجي شيلع** من جريدة معاريف «يتساءل عما يجب فعله من أجل البقاء، لأَنَّ هذا هو السُّؤال الذي يطرحه التَّاريخ على اليهود الآن»[١١٣].

الأنموذج الثالث

في العشرين من شهر آذار عام ٢٠٠١م قام بعض الفلسطينيين بتظاهرات في الولايات المتحدة الأمريكية تطالب العالم بردع الكيان الصهيوني عن عمليات العنف التي يستخدمها اليهود ضد الفلسطينيين، وليس غريباً أن يشاركهم في هذه الاحتجاجات عدد غير قليل من الشعب الأمريكي الذي شهدنا له بعض مثل هذه المواقف، ولكن الذي يبدو غريباً، وليس أول مرة، هو قيام بعض اليهود بالمشاركة في هذه الاحتجاجات على الكيان الصهيوني، وقد تحدث باسمهم الحاخام **إسرائيل وايز** الذي قال:

«على إسرائيل أن تدع الشَّعب الفلسطيني وشأنه، فالفلسطينيون هم المالك الحقيقي لأرض فلسطين منذ الأزل».

والأكثر غرابة أنَّ هذه الدعوة تأتي بعد عقود من تسليم معظم القادة العرب بأنَّ فلسطين هي أرض الميعاد لليهود، وبأن الأرض التي غصبتها من الفلسطينيين هي ملك لليهود!!!

(١١٣) . م. س . ذاته.

الأنموذج الرابع

إيال سيفان: مخرج سينمائي إسرائيلي، يختلف عن كثير من اليهود في أَنَّه يجهر بما يشغل باله، ولا يخفي تخوُّفه مما لا يستطيع إنكاره، إنَّه يفكِّر موضوعيَّاً لا عقائديَّاً، بمعنى أَنَّ العقائديَّة لا تُعمي بصيرته عن حساب الأُمور بشكل صحيح. دون أَن نشكَّ في أَنَّ يهود إسرائيل كلُّهم يعرفون ذلك تماماً كما يعرفه **إيال سيفان**. هذه المعلومات عن **سيفان** لم نكن نعرفها لأَنَّه مقاطعٌ عربياً بذنب أَهل ملَّته، وإنَّما عرفنا ذلك بوساطة إذاعة مونت كارلو في لقاء معه بتاريخ ١٩٩٥/٥/١٧م.

لا يختلف **إيال سيفان** عن **هانس شميدت** من حيث منطق التَّفكير وحساب الأُمور، ولكن كلٌّ من موقعه، **شميدت** من موقع المستلَب و**سيفان** ينتمي إلى المستلِب، وهو ذاته يقول: « السَّلام: هو استلاب بمفهوم إسرائيل ». ولكنَّه يتبرَّأ منه ولهذا السَّبب هو محارب ومرفوض، يقول: « لا لإسرائيل تريدنا ولا العرب، نحن قلَّة من الدِّيموقراطيين لن نغيِّر مطالبنا، مرفوضون من قبل المؤتمرات والمهرجانات ».

فما موقفه من مفاوضات السَّلام؟ أَلم تنته المشكلة عند هَشِّ **ياسر عرفات** وبشِّه ومدِّه يده بطلاقةٍ لمصافحة **إسحاق رابين** معلناً بداية عهد السَّلام، وهو في نظر العالم ممثِّل فلسطين ؟ يقول **سيفان**:

« **المصافحة الشَّهيرة ليست مصافحة لأَنَّها بين ضابط إسرائيلي مهمَّته طرد الشَّعب الفلسطيني وبين رمز اللاجئين، إنَّها مصافحة بين لاجئ وبين ضابط مهمَّته قهر هذا اللاجئ** ».

ولذلك فإنَّ المشكلة قد عُلِّقت تعليقاً ولم تنته، يقول: « **لقد ذهب الصَّليبيون وسيذهب الإسرائيليون، وسيأتي صلاح دين آخر، هذا ما ينتظر إسرائيل** ».

ويؤكِّد ذلك مرَّة أُخرى، ولكن بصورة صارخة أَكثر فيقول: « **لا نستطيع أَن نبني وطناً على أَنقاض كذبة كبرى، أَمَّا هنودنا الحمر فما زالوا على قيد الحياة يدلِّلون على كذبة إسرائيل الكبرى، ونحن لا يمكننا أَن نجعلهم ينسوا حيفا ويافا وعكَّا والعباسيَّة .... ولا الأَربعمئة قرية التي سُحقت عن بكرة أَبيها** ».

لن نقف عند قوله:

. « إنَّ إسرائيل أَشدُّ وحشيَّةً من وأَشدُّ نازيَّة من النَّازيين ».

ولكنَّنا لا نستطيع غضَّ الطَّرف عن قوله: « **إسرائيل تعرف سيكولوجيا الوطن العربي ومن منطلق معرفتها تحاربه، ومأساة العرب هي الأَنظمة الدِّيكتاتوريَّة التي تضطهد شعوبها، مأساة العرب في أرضهم الجميلة المعطاء** ».

سنتغاضى عن مقولة « عليهم ياعرب » التي تدلُّ على عشوائيَّتنا وفوضويَّتنا، وهي للأَسف واقع العرب المعاصر، ولكن أَلا يتضمَّن قوله دعوةً بل تحريضاً للعرب كي يتَّحدوا، كي يحسنوا استثمار أَرضهم الجميلة المعطاء ؟

أَليس غريباً أَن تأتي هذه الدَّعوة من يهودي في الوقت الذي تلاشت فيه مفردة الوحدة العربيَّة وكلُّ ما يمتُّ إليها بصلة من الإذاعات العربيَّة وكأنَّها شائنة أَو أَمر معيبٌ بتنا نستحي منه ؟ لقد غاب هذا الاصطلاح

الذي كان يملء كثيراً من الإذاعات العربيَّة ووسائط إعلامها حتَّى صار يحنُّ إليها غيرنا، فهذا هو نائب وزير الخارجيَّة الرُّوسي **فيكتور بوسوفاليوك** يكتب في جريدة الحياة اللندنيَّة، عدد الأَربعاء ٢٤ أَيَّار ١٩٩٥ م العدد ١١٧٨٠ مقالة عنوانها: « الحنين إلى الوحدة العربيَّة » يدعو فيها بقلبٍ لا يقلُّ عمق جرحه عن جراحات القوميين المصدومين بواقع الشَّرذمة والتَّجزؤ العربي، إلى لمِّ الشَّمل وتجاوز القطريَّة لنشعر بكرامتنا ونُسيِّجَ حياضنا.

الفصل السادس عشر

انهيار أسطورة السلام

إنَّ السُّؤال الذي لا ندحة عن طرحه؛ بعد الإطلالة من علٍ على ما أَنجزته حضارة الإنسان ـ الحضارة الوحيدة على الأَرض ـ من تقدُّمٍ ونماء في مختلف ميادين حياة هذا الإنسان: هل سينجح البشر في تحقيق السَّلام والعيش بدون قتلٍ وتدميرٍ وتشريدٍ وطردٍ وحروبٍ واعتداءات ....؟

لكي تشعرَ بالأَمن والسَّلام ينبغي أَن يهابك الآخرون، ولا يهابك الآخرون إلاَّ إذا كنت قوياً، ولا تظهر قوَّتك إلاَّ إذا اعتديت على غيرك؛ بحقٍّ أَو بغير حقٍّ، وإذا كانت حدودك مسيَّجة بهالةِ الرُّعبِ هذه شعرتَ بالارتياح والطُّمأنينة ونعمت بالأَمن والسَّلام.

السِّلْمَ والسَّلام مصدران جذرهما اللغوي واحد، يفيد البُرْءَ والتَّبرُّؤ والنَّزاهة والتَّنزه من الشَّيء أَو الآخر. ويستخدم لقطع الصِّلة مع الآخر؛ خيرها وشرِّها. والسَّلام؛ الاصطلاح السِّياسي الشَّائع جدَّاً، ينبثق من صلب هذا المعنى ولا يعدوه، فهو يشير إلى إنهاء حالة التَّحارب وليس يعني بالضَّرورة إيجاد أَواصر من نوعٍ معيَّن، كما أَنَّ انتفاء العلاقات؛ خيرها وشرِّها بين المتسالمين ليس يعني أَبداً انتفاء السَّلام بينهما أَو عدم سلامته؛ سيَّان كان الطَّرفان متجاورين أَم متباعدين.

المشكلة الآن أَنَّ هذا السَّلام أَصبح (موضة) تسم عصرنا الرَّاهن الذي نحن فيه، شأنه شأن أَيِّ (جائحةٍ) فكريَّةٍ أَو اجتماعيَّةٍ أَو أَخلاقيَّةٍ تندفع إلى مقدِّمة ظواهر عصرها حتَّى تسمه بوسمها؛ الوجوديَّة، البنيويَّة، مشكلة المرأة، (موضة الخنافس)، الفيزون ... الكلُّ يتحدَّث الآن، ومنذ فترة غير قصيرة، عن نشدان السَّلام العالمي، والمساعي الحثيثة لتحقيق السَّلام العالمي، وضرورة الوصول

إلى السَّلام العالمي، وخطورة عدم التَّعايش السِّلمي العالمي، إنَّنا نحن بني الإنسان أَمام خطورات ومصاعب تفرض علينا التَّكاتف والتَّآلف وتجاوز الخلافات .... وهلمَّ جرًّا من هذه التَّعبيرات الطَّنَّانة الرَّتَّانة.

كثيرون يخالون أَنَّ هذه الدَّعوات إنَّما هي أُمنيات الضُّعفاء ورجاءاتهم التي يجهرون بها نهاراً أَمام الأَقوياء على استحياء، ويحلمون بها ليلاً أَمام مرآة ضعفهم بعنفٍ وقسوة، ولكنَّ الأَمر على غير هذا النَّحو، فالأَقوياء أَنفسهم يصدِّرون مثل هذه البضاعة بتنزيلات مغرية وينادون بها في مختلف الأَسواق السِّياسيَّة والفكريَّة والاقتصاديَّة ... ويرفعون أَيديهم تضرُّعاً إلى الله أَن يعينهم وأَشقَّاءهم في الإنسانيَّة على تحقيق هذا الأَمل، وترفع شعوب العالم الثَّاني والثَّالث حتَّى العاشر أَيدهم ويقولون بصوت مبحوح منبثق من فؤادٍ مجروح: آمين.

والسُّؤال الذي لا ندحة عن طرحه؛ بعد الإطلالة من علٍ على ما أَنجزته حضارة الإنسان ـ الحضارة الوحيدة على الأَرض ـ من تقدُّمٍ ونماء في مختلف ميادين حياة هذا الإنسان:

هل سينجح البشر في تحقيق السَّلام والعيش بدون قتلٍ وتدميرٍ وتشريدٍ وطردٍ وحروبٍ واعتداءات ....؟

لن نوغل الخيال في الخيال، ولن نحيل السَّلام إلى مُحال، ولذلك لن نوجِّه قصدنا من السَّلام إلى مختلف معانيه وتباينها، فلن يشمل كلامنا السَّلام الفردي؛ الجنايات والجنح والجرائم ... ولن ندرج السِّياسات القمعيَّة والقهريَّة ضمن مجتمع الأُمَّة الواحدة كممارسات سلطويَّة من سلطة تجاه ما يقع تحت يدها وملك يمينها فهذا نوعٌ من العرف يسمَّى الشُّؤون الدَّاخليَّة التي لا يحقُّ لأَحدٍ مهما كان أَو علا شأنه أَن يمسَّ قداستها حتَّى الأُمم المتَّحدة وإن جلَّ قدرها، ولا يهمُّنا

كثيراً هنا إن كان هذا الحقُّ المقدَّس حصراً بحكومات العالم الثَّالث وما دونه أَم كان مُلكاً مُشاعاً لكلِّ أَرباب العروش. ولن نتحدث عن السلام العربي الإسرائيلي فقد أطنبنا في الحديث فيه في الفصول السابقة، وخصصنا الفاصل السابق تحديداً للحديث في مصير السلام العربي الإسرائيلي... إنَّنا نقصد بالسَّلام هنا فقط ما يمكن أَو لا يمكن أَن يقوم بين الأُمم والشُّعوب، فهل هذا الحلم الأَمل ممكنٌ أَم لا، بل هل سيتحقَّق أَم لا ؟

قبل الإجابة عن هذا السُّؤال لا بدَّ من الإشارة . ولو من قبيل التَّلميح . إلى **أَنَّ السَّلام بوصفه قيمة أَخلاقيَّة . اجتماعيَّة . إنسانيَّة إنَّما هو مطلب إنساني مُلحِفٌ، قديمٌ متجدِّدٌ أَبداً تجدُّد الحياة البشريَّة على الأَرض**؛ تمنَّاه الفرد بوصفه قيمة أَخلاقيَّة، ونَشَدَهُ المجتمع كونه قيمة اجتماعيَّة، وتطلَّعت إليه الإنسانيَّة لأَنَّه قيمة إنسانيَّة؛ **اشرئب إليه الإنسان الفرد والنَّوع لأَنَّه أَملٌ مستقرٌّ في قيعان النُّفوس ملتصقٌ بحوافها**. ولن نتحدَّث عن سلوكات البشر التي تنبئ عن ذلك عبر الحضارات ومدى التَّاريخ، ولن نعرِّج على آثار لا عدَّ لها لمفكِّرين لا حصر لهم نادوا بهذا السَّلام بمختلف صوره وأَشكاله، بين الأَسطر وخلفها وأَمامها، **وإنَّما سنتناول مسعًى إلى السَّلام غريباً شكلاً وطريفاً جوهراً؛ إنَّه تحقيق السَّلام عبر الحرب، هل يصدق ذلك؟** هذه هي حقيقة مطلب السَّلام، وهذا سبيله الذي لا بديل عنه، الحرب هي سبيل السَّلام، ولنتوقَّف عند هذه الفكرة قليلاً.

لماذا تحارب الشُّعوب بعضها بعضاً؟ أَمن أَجل مجرَّد والتَّدمير والنَّهب والخراب؟!!

أَبداً، فليس ذلك كلُّه وسواه مما يندرج في إطاره إلاَّ ملحقاتٍ لأَصلٍ هو نشدان الأَمن والسَّلام. نعم من أَجل السَّلام تقوم الحروب وما يلزم عنها من كوارث وفواجع، ولا يطلبنَّ أَحدٌ منَّا أَن نأتيه بمعتدٍ زعم أَو أَعلن أَنَّه يحارب أَو يعتدي على غيره من أَجل السَّلام، ليس لعدم وجوده ولكن لأَنَّ هذه الغاية هي التي تتمحور حولها الأَغراض الظَّاهرة كلها:

فلكي تشعر بالأَمن والسَّلام ينبغي أَن يهابك الآخرون.

ولا يهابك الآخرون إلاَّ إذا كنت قويَّاً.

ولا تظهر قوتُّك إلاَّ إذا اعتديت على غيرك؛ بحقٍّ أَو بغير حق.

وإلاَّ إذا أَظهرت لهم أَنَّك منيعٌ لا تُنْتَهك حقوقك وحرماتك بسهولةٍ أَبداً.

وإذا كانت حدودك مُسيَّجة بهالة الرُّعب هذه شعرتَ بالارتياح والطُّمأنينة ونعمت بالأَمن والسَّلام.

ومن أَجل هذا السَّلام قامت الحروب.

ولا يكون لهذا السَّلام طعمٌ ولا معنى إذا كان محفوفاً بالفقر.

بل شبه المستحيل أَن يكون، لعدم إمكان اجتماع عناصر القوَّة من دون الغنى المادي.

ولذلك يكون النَّهب مشروعاً بالنِّسبة للقوي وللأَسباب التي يراها هو؛ ضريبة، أَتاوة، خراج، تجارة، استثمار ... أَيَّا كانت التَّسمية فهي مسوَّغة تماماً عند مُوجِدِها الذي يتقبَّلها بعين قريرة وضميرٍ جدٍّ مرتاح ... لأَنَّها حق، والحق يعلو ولا يعلى عليه.

وإذا أَردت أَن تتأَكَّد من ذلك حاول أَن تقنع أَمريكيَّاً أَو أَوربيَّاً بأَنَّ النِّفط العربي للعرب، وأَنَّ من حقِّهم أَن يتحكَّموا به كيفما شاؤوا، قد يقتنع بأَنَّ نفط العرب للعرب، ولكنَّك لن تتمكَّن من إقناعه بأَنَّ من حقِّهم أَن يمنعوا نفطهم عمَّن يشاؤون حتَّى ولو قلبت له العصا ثعباناً، أَو جئت له من العجب ما يُخيل التُّراب إلى ذهب، بل حتىَّ ولو فلقت رأسه نصفين.

كثيرون أُلئك . ومن مختلف الأُمم والقوميَّات . **الذين لن يروقهم هذا الكلام،** على الرُّغم من لطف لهجتنا وتهذُّبنا في طرح الفكرة، **سيقولون: إنَّ هذا الكلام يقود في المحصلة إلى أَنَّه لم تحارب أُمَّةٌ قط من أَجل الحق لأَنَّه حق، ولا من أَجل نشر الخير والسَّلام بالمعنى الحقيقي، وبالتَّالي فإنَّ الحضارات كلها قامت على باطل ... وسيعدِّد لنا كلُّ فردٍ مناقب أُمَّته ومآثرها وخدماتها الجليلة للإنسانيَّة.**

لن أَفترض، بل سأُقرُّ بأَنَّ كلَّ الامبراطوريَّات السَّابقة، والحاليَّة، لا تحارب بل تكافح وتنافح وتناضل من أَجل نشر الخير وتحقيق السَّلام، أَفلا يعيدنا هذا إلى نقطة ما من دائرة الحرب من أَجل السَّلام؛ **حتَّى الذين هم على حق إنَّما يحقُّون هذا الحقَّ بالحرب،** بقطع النَّظر عن أَيِّ اعتبار؛ **إنَّ المنطلق الأَساسي لأَيِّ أُمَّة في مدِّ هيلمانها وسلطانها ونفوذها ينبثق من كونها تمتلك الحقيقة والقادرة على نشر الأَمن والسَّلام، أَلا ترى أَمريكا اليوم أَنَّها ظلُّ الله في الأَرض ؟! وقبل عدَّة سنوات فقط أَلم يكن الاتحاد السوفيتي مهيمنا على قرابة نصف العالم باسم العدالة والمساواة ومحاربة الاستغلال ؟!**

ولذلك أتجرَّأ على القول بأَنَّ السَّلام العالمي لن يتحقَّق ليقف عنده التَّاريخ، لأنَّه ـ بهذا المعنى ـ إن قام في ظروف تاريخيَّة معينه فإنَّه سيقوم على حساب شعوب مقهورة طأطأت الرَّأس خوفاً، وسكتت عن حقوقها لعجزها الرَّاهن عن تحصيلها.

وعلى كلِّ حال قد يأتي من يعترض بقوله: ما لنا ولأَيَّام زمان، **إنَّنا الآن أَمام إنسان هو خلاصة الحضارات وعُصارتها، إنَّه نتاج التَّجربة التَّاريخيَّة كلِّها**، ولقد سمى هذا الإنسان في سلَّم الارتقاء الإنساني بكلِّ مظاهره النَّفسيَّة والقيميَّة والعلميَّة والحضاريَّة ... وتعامله مختلفٌ عن تعامل أُناس الأَيَّام السَّالفة، إنَّنا في عصر الحاسوب والفضاء، عصر الحريَّة والانعتاق، عصر مكننة حياة الإنسان بكلِّ مستوياتها وأُطرها، عصر التَّرف الفكري والعلمي ... ولذلك لا يُستبعد أَبداً الوصول إلى صيغة ما من السَّلام العالمي الشَّامل.

سنغضُّ الطَّرف عمَّا لا يجوز غضُّ الطَّرف عنه، سنُلقي بالماضي كلِّه إلى مزبلة التَّاريخ ونعدَّ أَنفسنا أَبناء لحظتنا وكأَنَّنا نسيج وحدنا؛ **كيف سنصل إلى السَّلام العالمي في ظلِّ ظروفنا هذه المحيطة بنا ؟!**

الحقيقة أَنَّ الاعتراض الآنف يمثِّل نمطاً من التَّفكير الغربي الشائع اليوم، وقد عبَّر عنه الإيبستمولوجي المعاصر المتوفى العام الفائت **كارل بوبر**. رأى هذا المفكِّر ـ في لقاء أَجرته معه مجلَّة (دير شبيجل) الأَلمانيَّة (عدد ١٩٩٢/٤/٥) ضرورة سلوك الطُّرق الممكنة كلَّها لتحقيق هذا السَّلام العالمي، نظراً لما وصلت إليه الإنسانيَّة من رقيٍّ ورخاء ... بل رأى ضرورة الحرب من أَجل السَّلام، وأراد من ذلك القضاء على أَيَّ قوَّة ناشئة، ولم يمانع أَبداً في تدمير أَيَّ دولة تُفكِّر في امتلاك الأَسلحة النَّوويَّة أَو الأَسلحة القويَّة التي تهدِّد الأَمن والسِّلم العالميين إذ

رأى أَنَّ ثمَّة دولاً ليست مؤهَّلةً البتة للحياة الحضاريَّة المتطوِّرة، ومثل هذه الدُّول إذا امتلكت أَيَّ قوَّةٍ عسكريَّة فإنَّها ستشكِّل خطراً على الأَمن والسَّلام العالميين، والدُّول العربيَّة منها، ودول العالم الثَّالث قاطبةً، بل ثمَّة دولٌ متطوِّرةٌ حضاريَّاً وتقانيَّاً لا ينبغي لها أَن تمتلك أَسلحة استراتيجيَّة أَو نوويَّة،

وأعلن **كارل بوبر** صراحةً أَنَّه مع الهيمنة الأَمريكيَّة، ومع تفرُّدها في قيادة العالم سياسيَّاً وعسكريَّاً، ومع تنصيبها شرطيَّاً لحفظ الأَمن والسِّلم العالميين، وذلك ببقائها وحدها ممتلكة للسِّلاح النَّووي وعوابر القارَّات ... حتَّى تتمكن من القيام بهذا الدَّور على أَكمل وجه.

لن نفترض حسن أَو سوء النِّيَّة في كلام هذا المفكِّر العجوز ـ الذي كان على حواف المئة من عمره ـ ولن نفترض أَنَّ ما قاله تخريفات هرم، بل سنأخذه على حقيقته المنطلقة من أَرضيَّة فكريَّة واقعيَّة، يعيشها الغرب عموماً؛ الغرب الذي وصل إلى أَوج تقدُّمه العلمي والحضاري، وأَراد أَن يعيش حياة مستقرَّة هانئة، بعيدة عن الحروب والكوارث، ولا سيَّما بعد انتهاء الصِّراع بين قطبي العالم؛ الصِّراع الذي كان يخيِّم على الجميع برعبه القاتل.

ولكن هذه الحياة لن تتمَّ إلاَّ على حساب الآخرين، وإن كانوا لا يفهمون الأَمر على هذه الصُّورة، وإنَّما يفهمونها على أَنَّهم في أَعلى درجات سلَّم الرُّقي والتَّطوُّر، وهم لذلك مؤهَّلون للتَّفكير المنطقي السَّليم، أَمَّا بقيَّة الشُّعوب التي يعيش معظمها في الحضيض فهي شعوبٌ همجيَّة، بدائيَّة، متوحِّشة، وهي لذلك غير قادرة على كبح جماح رغباتها وأَهوائها، وغير مؤهَّلة للحياة المتطوِّرة والرَّاقية، ومن ثمَّ فإنَّ امتلاكها أَسلحةً قويَّةً سينمِّي لديها الرُّوح العدوانيَّة ويثير وحشيتها وهمجيَّتها، وهذا ما يهدِّدُ الأَمن والسِّلم العالميين.

والنَّموذج الذي يقدِّمه **كارل بوبر** لذلك هو الرَّئيس العراقي **صدَّام حسين** الذي لم يكد يمتلك القوَّة حتَّى اعتدى على جاره الضَّعيف. وكأن **صدام حسين** هو وحده الذي لم يحمله رأسه عندما امتلك القوة، وكأنَّ الولايات المتحدة أو بريطانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو غيرها لم تستخدم جبروتها وقوتها إلاَّ لحماية المستضعفين في الأرض والمساكين، أو حتَّى للذود عن حقوقها فَقَطْ.

لن نتوقَّف كثيراً عند فكرة **بوبر** فهي واضحة، وتعيدنا من دون أَدنى محاكمة، أو جهد في الاستنتاج، إلى النُّقطة التي انطلقنا منها، وهي تحقيق السَّلام بالقهر والعنف، والسَّلام الذي سيتحقَّق هنا ـ إن تحقَّق ـ لن يكون نهائيَّاً ولا ختاميًّا، لأَنَّه يقوم على كومةٍ من ركام مشكلات غير مبتوت فيها، فأَيُّ سلامٍ هذا الذي يمكن أَن يصمد وهو قائم على جملةٍ شبه سلسلة من الأَوضاع الرَّاهنة المعلَّقة على شمَّاعة انتظار الحسم ؟!

إن أَغضينا الطَّرف عن المشكلة المحوريَّة في (الشَّرق الأَوسط ـ كما يسمَّى، وهي تسمية تضليلية كما أشرنا) وهي القضيَّة الفلسطينيَّة، فهل يمكننا إنكار أَنَّه لا تخلو دولة عربيَّة من مشكلات أَو مشكلة على الأَقلِّ مع الجوار غير العربي؟ وإن تجاهلنا ذلك أَيضاً فهل نستطيع التَّغافل عن الاستعمار الذي مازال موجوداً في إفريقيا وآسيا وأَمريكا، والتَّناحرات المستمرَّة بَيْنَ كثيرٍ من دول العالم الآن؟ وإن أَغمضنا أَعيننا عن كلِّ ذلك كرمى لعيون السَّلام:

فمن ذا الذي يمكن أَن يُقنعَ الأَجيال القادمة بأَنَّ جزر فوكلاند جزءٌ من بريطانيا؟!

ومن ذا الذي يمكن أَن يمسك الأَلمان ـ عندما يقدروا ـ عن استرداد أَراضيهم الموهوبة لبولونيا؟

حتى البولونيون هل سيظلُّون مقتنعين بالقسمة الرُّوسيَّة التي توسَّعت فيها روسيا على حساب بولونيا؟

وهل سينسى مسلمو البوسنة المجازر التي أُقيمت لهم عند الضَّمِّ وعند الاستقلال الذي لم يكتمل، وربَّما لن يكتب له التَّمام الآن؟

وكذلك أَمر الشِّيشان مع الاحتلال الروسي، والمجازر التي أقامها الروس لهم على مدار سنوات؟

وهل ستقبل الصين باستمرار انسلاخ تايوان عنها، وقد سبق أن ضمت هونج كونج بعد نحو مئة سنة من تأجيرها؟

ومن ذا الذي سيمنع الفلسطينيين من التَّحليق بخيالاتهم كلَّما قرؤوا شعراً أَو نثراً بحيفا ويافا وجبل الكرمل .... ؟!

إنَّ المعادلة صعبة، ولكنْ كلُّ شيء سيعود إلى نصابه أَوَّلاً . متى؟ لست أَدري . ثمَّ يُتجاوز النِّصاب ليشكل بداية مسلسل جديد لا أَحد يدري متى تنتهي حلقاته، ليبدأ مسلسل آخر بإخراج آخر وأَبطال آخرين، وستظلُّ كلُّ أُمَّةٍ ترقب أُفول أَنجم الظَّالمين . الأَقوياء . المهيمنين، وتحثُّ الخُطى لاعتلاء عرش المَنَعَة، وامتلاك الصولجان والهيلمان لتُحقَّ الحقَّ كما تراه وكما سوف تراه.

ولذلك قال **مونتسكيو**: «**إنَّ عبارة السلام العالمي خرافة لا تصلح إلا شعاراً للمقابر**». وبالمعنى ذاته ثمَّة فكرة جميلة تشبه الحكمة، تقول: «**إنَّ المقابر هي أكثر الأماكن استقراراً**».

◆ ◆ ◆

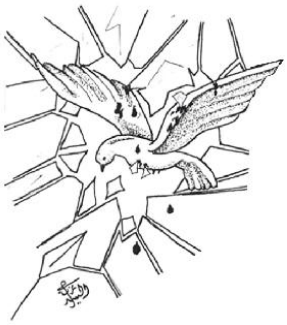

الفصل السَّابع عشر

متى يستفيد العرب

من دروس التاريخ؟

إنَّ الذي يدلُّ على عَدَمِ استفادةِ الحكَّام العَرَبِ من دَرْسِ المحنة هذا هو الَواقعُ لا التَّخيُّلُ ولا القياسُ ولا الاستنتاجُ، فكلُّ المعطياتِ تشيرُ إِلَى مزيدٍ من الانغماسِ في لعبة عَدَمِ الاستفادَةِ مِنْ دُرُوْس الحاضر والماضي!!

لم يكن المفكرون العرب وحدهم هم الذين يطلقون صيحات التَّحذير والتثوير في وجوه الحكام العرب والجماهير العربيَّة بل كثيرٌ من المفكرين الغربيين والسياسيين العالميين صرخوا محذرين العالم العربي حاثِّيين إياه على الاستفادة من دروس التاريخ.

(التَّاريخ لا يعيد نفسه إلاَّ على الأغبياء)، عبارة تختصر ببلاغةٍ بديعة ما ينبغي أن تكون عليه علاقة الإنسان مع الواقع.

ولكن هل كلُّ ما يجب أن يكونَ يكونُ فعلاً؟

هذا هو السُّؤال الذي يستوجب الإجابة أولاً لأنَّهُ هو الذي يقدِّم لنا مفتاح الحلِّ لا الحلَّ.

ثَمَّةَ إجماع بين الفلاسفة على أنَّ الواقع ليس هو بالضرورة ما ينبغي أن يقع أو يكون، ولذلك وجدنا عند كلِّ الفلاسفة تمييزاً بين أحكام الوجوب وأحكام الوجود. وهذا، بكلِّ أسفٍ، يعني أنَّهُ من الممكن جدًّا ألاَّ يكون العرب قَدْ استفادوا من هذه المحنة القاسية الَّتي يقال إنَّ الشعب الفلسطيني قَدْ تعرض لها، بينما حقيقة الأمر أنَّ العالم العربي كله هو الذي تعرض لهذه المحنة ولم يزل. وهذا يعني أيضاً، وبكلِ أسفٍ أيضاً، أن عدم استفادة العرب من هذا الدَّرس تجد في

الفارق بين الوجوب والوجود ما يسوِّغها. ولكنَّ المفرح في الأمر هو أنَّ عبارة (التاريخ لا يعيد نفسه إلا على الأغبياء) تقلب التَّسويغ رأساً على عقب، فبدلاً من أن يكون تسويغ عدم الاستفادة من الدرس صكًّا بالبراءة فإنَّهُ سيجسِّدُ الدليل القاطع على الإدانة... بل على ما هو أشدُّ من الإدانة... على الغباء.

لم يكن المفكرون العرب وحدهم هم الذين يطلقون صيحات التَّحذير والتشوير في وجوه الحكام العرب والجماهير العربيَّة بل كثيرٌ من المفكرين الغربيين والسياسيين العالميين صرخوا محذرين العالم العربي حاثِّيين إياه على الاستفادة من دروس الحاضر والماضي، ولو أردنا حصر المفكرين والمثقفين والسياسيين الغربيين الذين وجهوا صيحات التحذير للعرب وللحكام العرب للاستفادة من دروس التاريخ والواقع لوجدنا كثيراً من الصعوبة، واحتجنا إِلَى كثير من الوقت، وكلاهما أمر يحتاج إِلَى فريق بحث كبير.

الطَّريف في الأمر أَنَّهُ بعد كلِّ جعجعة ومعمعة يلوح في الأفق ما يوحي بأنَّ العرب؛ حكاماً وحكومات وجماهير قَد استفادوا من درسها. وترتفع شعارات البناء وإعادة البناء والتَّوازن والتَّنمية وإعادة الهيكلة... وتميل أحكامنا إِلَى القطع بأننا سنربح الجولة القادمة، وبأنَّ المرحلة القادمة ستكون مرحلة المجد المنتظر... ومع ذلك كلِّه نجدنا دائماً في أوَّل كلِّ جولةٍ جديدة، أو معمعةٍ صغيرة جديدةٍ نغرق في شبر ماء!! ونبدو كياناً منتهكاً وباباً مخلَّعاً!!

ترجع المشكلة في حقيقة الأمر إِلَى أكثر من سبب، ولا نغلو إذا قلنا إنَّ أولها وأكثرها أهميَّةً هو الْهُوَى السَّحيقة الَّتي تفصل بين الحكام والجماهير ليس فيما يخص المسألة الديمقراطية وحسب بل في الطموحات والأهداف والغايات.

لَقَد أثبت الواقع حَتَّى اللحظة الراهنة، لحظة انتهاء الإعداد لهذه الكتاب الَّتي لا نتمنى استمرارها، أنَّ معظم الحكام والحكومات العربيَّة في وادٍ والجماهير العربيَّة في وادٍ آخر، فيما يتعلَّق بمستقبل الأمَّة ومصيرها، وقضاياها الاستراتيجيَّة والخطيرة. وبدا الحكامُ العرب، باستثناء القلَّة النَّادرة، أعداءً لجماهير أقطارهم، وأعداء أشداء لمجموع الأمَّة: الجماهير والمصالح والهويَّة والتُّراث والحاضر والمستقبل. وقد بَيَّنا في بعض فصول هذا الكتاب بعضاً من أوجهِ هذه الحقائق الَّتي باتت من الشِّيوع والمصداقيَّة على حدٍّ يصعب معه التَّنكُّر لها أو محض محاولة التَّفكير في دحضها أو تكذيبها.

لَقَد وضح أشدَّ الوضوح الآن البون الشَّاسع بين الحكام والجماهير في كلِّ ما يتعلَّق بمصالح الأمة من مختلف زوايا النَّظر، وبان جليًّا اتساع الشَّرخ بين مصالح الفريقين وتطلعاتها، وانفضح هذا التقاطب في المصالح، وهذا ما أدَّى إِلَى نتيجة خطيرة هي أَنَّهُ لم يعد أحدٌ يخاف من اتهام هؤلاء الحكام بالخيانة والعمالة. وهذه مصيبة كبرى لأنَّ انعدام الثِّقة المفضوح بين الحاكم والمحكوم، مع بقاء الحال على ما هو عليه، لن يكون معروف النتائج ومن ثَمَّ لن يكون مأمون العواقب.

إنَّ ما يمكن الحديث عنه بثقة الآن، من هذه النتائج، هو أنَّ الحكَّام العرب قَدْ فقدوا جماهيرهم، رُبَّما ستظلُّ الطاعة قائمة ردحاً من الزَّمان، ولكن طاعة عدم الاحترام، وطاعة اللامبالاة، وهذا ذاته سيؤدي إِلَى نتائج خطيرة، على الأقلِّ الأقل، على أخلاق جماهير الأمَّة لن تكون إلا سيِّئة، ولن تكون منعكساتها إلا شديدة السلبيَّة. ولنكن صادقين هنا؛ إنَّ أخطر ما يواجه جماهير

الأمة العربيَّة الآن هو استسهال الخيانة وتسويغها. فهل ثَمَّةَ ما يخشى منه بعد ذلك على مستقبل الأمَّة ومصيرها؟؟!

الذي يهمنا في هذا الأمر هنا هو ما يبدو من عدم رغبة الحكام العرب تحديداً في الاستفادة من كلِّ الدروس الَّتي تعرضت لها الأمة العربية طيلة القرن العشرين على أقل تقدير، ولا من دروس التاريخ الَّتي لا تعدُّ ولا تحصى. ولن نناقش هنا سبب شيوع هذه الفكرة لأنَّها نوقشت إِلَى الحدِّ الذي يجعل من الابتذال العودة إليها، وحسبنا أن نسأل هنا عن آخر الدُّروس وهو درس انتفاضة الأقصى المبارك الَّتي نعيشها منذ نحو سنتين.

على الرَّغْمِ مما يبدو من بعض الاستفادة من المحنة الَّتي تتعرض لها الأمة العربية قاطبة في هذه الآونة على صعيد الحكَّام فإنَّ حقيقة الأمر غير ذلك تماماً، لأنَّ هذه المرَّة لا تختلف أبداً عن المرات السَّابقة، ولا سيَّما أن الحكَّام العرب مازالوا هم أنفسهم بمعنى من المعاني، أو بمعنى أكثر دقَّة إن البنى السُّلطويَّة العربيَّة لم تزل هي ذاتها منذ مطالع الاستقلالات العربية وحَتَّى الآن، اللهم إلا استثناءات نادرة لا يجوز تعميمها، لأنَّها الاستثناءات الَّتي تؤكِّد القاعدة ولا تنفيها.

وعلى الرَّغْمِ من أن هذا الاستمرار في السلطة فترة زمنيَّة طويلة يفترض منطقيًّا وجوب وجود حركة تطوريَّة تفرض على هذه البنى السُّلطوية الاستفادة من الدروس اللاحقة على الدروس الَّتي لم يستفيدوا منها في الفترة الزمنيَّة الطويلة الَّتي حكموا فيها على الأقلِّ، فإنَّ هذا قَدْ يعني في الوقت ذاته أيضاً أو يفترض إمكان الاعتياد على (التطنيش) والرِّضا بعدم الخروج بأي فائدة. ومن شديد الأسف والحسرة أنَّ الاحتمال الثاني هو الذي كان، فقد فضَّل هؤلاء الحكام (التَّطنيش) وعدم سلخ أقلِّ جهد لمحاولة التَّفكير في أقلِّ الاستفادة من الدروس

الَّتي يمرُّون بها هم ذاتهم لا غيرهم. وعلى هذا الأساس فقد بات من باب الأولويَّة أنَّهم لم يستفيدوا من آخر الدروس الحيَّة، والَّتي مازالت حيَّة نازفة الجراح حَتَّى الآن وهو درس الانتفاضة الفلسطينيَّة الثَّانية.

إنَّ الذي يدلُّ على عدم استفادة الحكام العرب من درس المحنة هذا هو الواقع لا التَّخيُّل ولا القياس ولا الاستنتاج، فكلُّ المعطيات تشير إِلَى مزيد من الانغماس في لعبة عدم الاستفادة من دروس الحاضر والماضي، على الرَّغْمِ من بعض الحراك السِّياسي الخادع الذي يوحي بأن ثَمَّةَ صحوة موجودة أو قادمة. فما ذلك، في أغلب الظنِّ، إلا لذرِّ الرَّماد في العيون. ومن باب ذرِّ الرَّماد هذا من الممكن أن نجد بعض التَّطوُّرات والتَّغيُّرات على العلاقات العربيَّة العَربيَّة كما حصل في الآونة الأخيرة بين العراق وبعض دول الخليج العربي، ولكن هذا التَّطور لن يكون مسخَّراً لصالح الأمَّة بوصفها مجموعاً، وإنَّما هو لأغراض مرحلية رجَّح ويرجِّح أبرز المحللين والمتابعين أن الغرض منها هو امتصاص نقمة الشَّارع العربي وفورانه الذي كاد يشكِّل خطورةً واضحة على كثيرٍ من الأطراف. وذهب بعضٌ آخر من المحللين إِلَى احتمال أن يكون الغرض من ذلك أيضاً تمرير بعض المخططات الخيانيَّة الَّتي تمسُّ حقوق شعبنا في فلسطين خاصَّة والأمَّة العربيَّة عامَّة.

أما الجماهير العربيَّة فقد حققت في هذه الانتفاضة، بفضل الإعلام المفتوح إِلَى حدٍّ كبير، تقدماً كبيراً في الوعي وهذا التقدم بحدِّ ذاته درسٌ كبير له أهميته التاريخيَّة. ولكنَّهُ ظلَّ، لأسباب تاريخيَّة، دون الحدِّ المطلوب أو الواجب. ورُبَّما ولأسباب تاريخية أيضاً لن يستطيع القيام بما هو مرتقب منه ومعقود عليه

في هذه المرحلة التاريخيَّة الحاسمة من عمر الأمَّة[١١٤]. وهذا العجز عن ممارسة الدور المطلوب، أو القيام به هو ما تقول به في الافتراضات النظريَّة المنبثقة من طبيعة الواقع والمعطيات التاريخيَّة المرافقة له من مختلف النواحي؛ النفسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة والاستراتيجيَّة وغيرها.

هذا يعني من زاوية أُخْرَى أنَّ الجماهير العربيَّة ذاتها قَدْ «خرجت من الولد بلا حمص»، مقتفية بذلك سنن حكامها، مؤثرة عدم مخالفتها، ورُبَّما كان لمثل هذا الأمر قول الحكماء القدماء: «الرَّعية على دين ملكها». وكذلك القول المأثور: «كما تكونوا يولَّى عليكم».

وطالما أنَّ عدم الاستفادة هو النتيجة المتحققة على أرض واقع الجماهير العربيَّة، فرُبَّما لم يعد من المهم كثيراً، هنا فَقَطْ، معرفة الأسباب الَّتي أدَّت إِلَى عدم استفادة الجماهير العربيَّة من آخر الدروس، ومن الدروس السَّابقة. فالنتيجة هي توافق مع إرادات الحكام في تقرير عدم الاستفادة من دروس الحاضر والتاريخ، أو الأقل عدم ضرورة استثمار الفوائد المجنية من هذه الدروس.

لا ضير أبداً في حمل هذا الكلام محمل التعميم، ولكن لأنَّ موضوع كلامنا هو الصراع العربي الإسرائيلي ومستقبل السَّلام فمن الضروري التَّخصيص، وليكون التَّخصيص صادقاً لا بدَّ من الإشارة إِلَى أنَّ صدق الحكم في عمومه على الجماهير العربيَّة غير دقيق تماماً، لأنَّ عموم الجماهير العربيَّة تقف من الكيان الصهيوني موقفاً ثابتاً لم يتغير إلا في الشذوذ النادر الذي لا يمكن نفيه. وقد تعزَّز موقف الجماهير العربيَّة هذا أكثر في الآونة الأخيرة، وإنَّما قصدنا من

---

(١١٤) ـ كلُّ مرحلة من تاريخ الأمَّة، أي أمَّة، هي مرحلة حاسمة في حقيقة الأمر. ولكن بعض المراحل تتسم بحساسيَّة معينة تجعلها تبدو على مفترق خيارات مصيريَّة حاسمة أكثر من غيرها.

عدم الاستفادة من الدرس أو الدروس هو عجز هذه الجماهير عن الفعل، واستمرار السلبيَّة والانفعال في تحديد مسارات التفاوض العربي الإسرائيلي، والعلاقات العربيَّة الإسرائيليَّة القائمة على قدم وساق بين كثير من الدول العربيَّة وإسرائيل منذ أوقات غير قريبة، والمتزايدة على نحوٍ ملفت للانتباه، ومثير للشكوك، في ظلِّ الانتفاضة الثانيَّة الَّتي ارتكب الكيان الصهيوني فيها من المجازر أكثر من أيِّ وقت مضى، وبعنجهيَّة مقرفة، مقززة، تقشعرُّ لها الأبدان، وتستجلب الغثيان. وعلى الرَّغْمِ من ذلك تتكالب بعض الدول العربيَّة على إقامة العلاقات التجارية والسياسيَّة مع الكيان الصهيوني.

هنا يثور التساؤل الكبير: لماذا يقوم هؤلاء الحكام العرب بذلك؟

رُبَّما نخرج هنا عن إطار سؤالنا المحوري الذي كان: متى يستفيد العرب من دروس التاريخ، لأنَّ ما يبدو هنا خارج عن دائرة الاستفادة من الدروس، فالحقائق ماثلة أمام الأعين مثولها يفقأ عين الجاحد، وعلى الرَّغْمِ ذلك تأتي الممارسات وكأنَّها لم تر من ذلك شيئاً.

نحن هنا أمام مفارقة أكثر هي من أحجية أو لغز، إننا أمام ما يبدو تعمُّد عدم الاستفادة من دروس الحاضر والماضي. والسُّؤال الذي سيطرح نفسه بالبداهة هو: لماذا؟

رُبَّما كان اتهام الحكام العرب أو معظمهم بالخيانة هو الجواب الأكثر إراحة للنفس، لأنَّهُ يختصر كثيراً من المسافات والوقت ويقدم تفسيراً هو الأكثر إقناعاً، على الأقل في الظروف الراهنة. والحقيقة لا تعدو ذلك كثيراً، إذ من الصَّعب، بل من المتعذَّر تبرئة ساحة معظم الحكام العرب من تهمة الخيانة.

ولكن هذا التفسير ينسى أو يتجاهل حقيقة أُخْرَى جدُّ مهمَّة هي الشرط التَّاريخي للاستفادة من الدُّروس واستثمار هذه الاستفادة.

لا شكَّ في أنَّ الواقع المتخلِّف المتردِّي الذي تعيشه الأمَّة العربيَّة قاطبة بما ينشعب إليه هذا التخلُّف من ضعفٍ وتهلهلٍ وترهُّلٍ وتشرذم وتشظٍ وتقوقع وغير ذلك هو الذي يؤدي إِلَى الحيلولة دون حسن الاستفادة من دروس الحاضر والتاريخ، فالتَّخلُّف ليس محض تأخُّر في العلم والتِّقانة والأخلاق والعادات... وإنَّما هو في الدَّرجة الأولى تخلخل البنية الفكريَّة للأمَّة وتخلفها؛ أفراداً وجماعات ومجتمعات، أي بمعنى آخر عجز العقليَّة الفرديَّة والجمعيَّة عن مواكبة الواقع ومستجدَّاته على مختلف المستويات والميادين، وعدم قدرتها على تسخير الواقع والوقائع والأحداث والاستفادة منها الاستفادة المثلى على الأكثر، والاستفادة الممكنة في حدود الطاقات والإمكانات المتوافرة على الأقل.

يمكن تسمية هذا العجز بقلَّة الحيلة والتدبير، وأبرز ما يقود إِلَى ذلك هو الجبن وسوء التقدير، ولكثرة ما عانت الأمَّة من مثل هذه الحال على مرِّ تاريخها زعمت أنَّ رسول الله ﷺ أَنَّهُ قال: «لا أخشى على أمتي الفقر، وإنَّما أخشى عليها قلَّة التَّدبير»[١١٥].

---

(١١٥). ليس هذا الكلام من رسول الله، وفي نسبه إِلَى الرسول ﷺ ما يشير إِلَى مدى معاناة الأمة من مثل تعاني منه الآن. أما الحديث الصحيح كما جاء عند البخاري فهو قوله: «وَاللَّهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ». وهو الحديث ٢٩٢٤ من كتاب الجزية والموادعة من صحيح البخاري، وكذلك الحديث رقم ٣٧١٢ من كتاب المغازي من صحيح البخاري، وورد باللفظ ذاته وبلفظ آخر عند

قَدْ يبدو هذا الأمر عصيًّا على التَّفسير، والحقُّ أَنَّهُ صعب التفسير. ولكن إذا طلبنا المدد من علم النفس لوجدنا فيه ما يمكن أن يقدم لنا بعض ما يفسر لنا هذه الظاهرة، وحسبنا أن نقول إنَّ التَّخلُّف يكافئ الضَّعف، والضعف يؤدي إِلَى الوهن النفسي والعقلي، والوهن النفسي والعقلي يجعل صاحبه؛ فرداً أو مجتمعاً معرَّضا للإيحاء بسهولة، والإيحاء يمارس على نحو مباشر وغير مباشر، من الذات ومن خارج الذَّات، والعلاقة بين الأفراد والمجتمعات والأمم أيًّا كان طرفا العلاقة تنطوي على ممارسة هذا الإيحاء المباشر وغير والمباشر. وإذا عرفنا أنَّ الإيحاء هو ضرب من السيطرة والتلقين أمكننا أن نفهم منبع قلة الحيلة والتدبير في فهم الدروس والاستفادة منها.

قَدْ يبدو في هذا الكلام ما يوحي بأننا نسوِّغ عدم استفادة العرب؛ حكاماً وشعوباً من دروس الحاضر والماضي. والحقيقة خلاف ذلك تماماً لأنَّ فهم الظاهرة لا يعني قبولها، ففهم دوافع السرقة مثلاً لا يعني قبولها أَو الإقرار بها، وفهم سبب الوقوع في أيِّ خطأ لا يعني قبوله أو تسويغه أو إقرار صاحبه عليه.

إنَّ تسويغ عدم الاستفادة من الدروس أمر غير مقبولٍ بحالٍ من الأحوال، ولا سيما أنَّ الدروس من الوضوح بما يجعل من المعيب المخزي ألا نستفيد منها، ونستثمر الظروف لتجاوزها وعدم الوقوع في أخطائها مرَّة أُخْرَى.

فإذا افترضنا أننا أفدنا من الدروس فهل من السُّهولة بمكانٍ استثمار هذه الفائدة؟

مسلم وفي معظم المسانيد. وربَّما يكون الحديث الذي يعبر أكثر عن حالتنا هو الحديث ٧٧٢٨ من مسند الإمام أحمد الذي يقول ﷺ فيه: «مَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْخَطَأَ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْعَمْدَ».

الحقيقة أنَّ هذا الأمر ليس متاحاً بسهولة أيضاً، لأنَّ طبيعة الصراع بين الحضارات والأمم تجعل الأمم القويَّة تمارس ما أمكنها من الضغوط للحيلولة دون أيِّ استثمار لأيِّ فائدة من أيِّ درس في إطار صراع الحضارات وتنافسها، وكثيرون يعلمون أنَّ الدول الصناعيَّة تضع حدوداً لا يجوز لدول العالم الثالث تجاوزها في الصناعة والتصنيع واستخدام التقنية.

هذا أمر واقع فعلاً، ومعرفته لا تعني الدعوة للرضوخ له، ولا القبول به، ولا الاستكانة له، وإنَّما ينبغي أن تفرض علينا أن نفكر في كيفية كسر أطواق هذه الحدود بحكمة وحنكة تحول دون تعرضنا للتهديدات الَّتي تمارسها الغطرسة الغربيَّة علينا.

ولكنَّ المشكلة الأكثر أهميَّة وخطورة الَّتي تعترضنا هنا، أي في إطار فهمنا لمعنى الاستفادة من دروس الحاضر والماضي هي أننا ننطلق في تعاملنا مع الدرس المستفاد وكأنَّنا طرف واحد لا مقابل له، وكأنَّنا نحن فَقَطْ من يستفيد وغيرنا واقف من دون استفادة مما نستفيد!! ولنقوم بعد ذلك بافتراض أنَّنا سنتصرَّف والآخر لن يتصرَّف!!

إذا كنا قد استفدنا من هذه المحنة أو تلك، واتخذنا من التدابير ما يسمح لنا باستعادة نفوذنا ومكانتنا فهل يعني هذا أنَّ الولايات المتحدة وأوربا والكيان الصهيوني... سيقفون مكتوفي الأيدي.

إنَّ أكبر الأخطاء الَّتي ارتكبناها في الماضي هي افتراضنا أننا استفدنا من الدروس وغيرنا لم يستفد منها، ومبادرتنا على أساس أن الآخر سيظلُّ يتصرف كما لو أَنَّهُ لم يعرف أننا استفدنا، وكما أَنَّهُ لم يستفد مما استفدنا، ولذلك ظللنا نُحْبَطُ المرَّة تلو الأُخْرى... هذا على افتراض أننا استفدنا فعلاً من الدروس. فمتى

ندرك أن غيرنا يعقل كما نعقل، ويستفيد كما نستفيد، وأَنَّهُ يسبقنا بشوط بعيد؟؟!

المطلوب إذن هو ليس محض الاستفادة من الدَّرس بحدِّ ذاته، وإنَّما الاستفادة مما استفاده الآخر، فبهذه فَقَطْ يمكن فعل شيء، لأنَّهُ سيكون من السَّهل توقع الدرس القادم، وتوقع ساحة المعركة القادمة وطبيعتها وأسلحتها، ويصبح بذلك من السَّهل على الأقل تفادي الهزيمة... على الرَّغْمِ من أن موجبات الانتصار معظمها متوافرة!!

من الخطأ، بل من كبير الخطأ الظَّنُّ أنَّ الأمة العربيَّة ضعيفة، أو أنَّها غير قادرة على الفعل، أو عاجزة عن المواجهة. ومن عظيم الخطأ الظنُّ أنَّ الوقت قَدْ فات، وأننا لن نستطيع اللحاق بمركبة الحضارة. الفرصة قائمة دائماً، ولكِنَّها تحتاج إِلَى حسن استثمار. والإمكانات اللازمة لحسن الاستثمار أكثر بكثير مما يظنُّ الظانون... إنَّها عند اللزوم معجزات لا تصدق.

فهل نبدأ؟

هل نستفيد من دروس التاريخ؟

وهل نستفيد من دروس الحاضر الَّتي تكفي وحدها؟

وهل نستفيد من الظروف الَّتي تأتي معظمها لخدمة أمتنا ونرفضها؟

* * *

الفصل الثَّامِن عشر

الحكام العرب

أمام المسؤولية التاريخية

هذا الفصلُ في الأصل رسالةٌ وجِّهت إلى الحكَّام العَرَبِ قبيل انعقاد القمة العربيَّة في تشرين الأول بالقاهرة، والتي كانت مخصَّصة للانتفاضة الفلسطينية، وقد نشرت في جريدتي تشرين السورية، والزَّمان اللندنية في شهر تشرين الأول عام ٢٠٠٠م. وقد جاءت القمة مخيبة لكل الآمال والتوقعات.

إذا لم نكن نريد التَّحرك لتحصيل حقوقنا بأيدينا وجهودنا وضاقت الأفق أمامنا عن ذلك بمساعينا فإننا لا نبالغ أبداً إذا قلنا: إن إقناع الشُّعوب الأوربية والأمريكيَّة بالحقيقة كفيل إلى حدٍّ كبيرٍ بخلق ضغطٍ كبيرٍ على الحكومات الغربية لإحقاق الحق العربي...

أسبوعان من الصَّمت والعجز عن الكتابة هي حالي وحال غالبية الكتاب والمفكرين العرب، أمام الصُّور الحية، الناطقة التي تتدفق على الشاشات العربيَّة، والشَّاشات العربيَّة القليلة وحسب، المعبِّرة عن الغَضَبِ الذي يعمُّ الشَّارعين العربيَّ والإسلاميَّ من مشارق الأرض إلى مغاربها، تضامناً مع شعبنا العربي الفلسطيني في الأراضي المحتلة، وتنديداً مزدوجاً أولهما بصمت الحكام والحكومات العربية تجاه المجازر التي تقيمها القوات الصهيونيَّة لأهلنا الفلسطينيين، وثانيهما بالعنف الهمجي لقوات الاحتلال في قتل أطفالنا وشبابنا ورجالنا وكلهم من الأبرياء من غير شك(١١٦).

(١١٦) . إنَّ الصورة التي نتحدث عنها في هذا الفصل؛ من أوله إلى آخره تنصب على الأسابيع الأولى من الانتفاضة الفلسطينية الثانية، أما الآن، وبعد أشهر فقد ازدادت الصورة همجية ووحشية بحق الفلسطينيين، ووصل إلى استخدام كل أنواع الأسلحة المعروفة من أقلها وأدناها إلى أشدها خطورة وفتكاً ودماراً، إضافة إلى هدم المنازل... وكذلك وضع تعاطف الحكومات العربية مع الشعب الفلسطيني لم يزدد إلاَّ رداءة وسوءاً بدءاً من القمة الأولى في القاهرة إلى الثانية في عمان مع بداية عام ٢٠٠١م، إلى القمة الإسلامية في الدوحة، إلى لقاءات وزراء الخارجية العربية ووزراء خارجية المؤتمر الإسلامي... فكلها لم تستطع الخروج بقرار واحد يدعم أو يحمي الشعب الفلسطيني، بل لَقَد منعت

الصُّورة كافية وحدها ولا يمكن للكلام أن يزيد فكرة واحدة على الصُّورة، ولا يمكن أن يفعل أبداً أكثر مما تفعله الصورة.. بل إنَّ الصور المعروضة على قليل من الشاشات التلفزيونية العربية تجعل أبلغ الكتاب عاجزين عن الكلام، والأثر الذي أحدثته هذه الصُّور تعجز، بل عجزت فعلاً عن فعله آلاف المقالات والكتب... وليس من عجب في ذلك فإنَّ مشاهد الانتفاضة، وانفعالات الجماهير العربية وتفاعلها مع الحدث أبلغ من كل اللغات، وأشمل من كل المعاني، وأكبر من كل المفردات... ولذلك لا يحق لي أبداً ادعاء أنِّي أريدُ أن أضيفَ شيئاً إلى ما تقدِّمُهُ الصوُّرة الحيَّة.

ولكنَّ الذي يجعل القلب منفطراً من الألم أمور كثيرة مرتبطة كلها بهذه الانتفاضة التي أعادت الحياة إلى الشارع العربي، وإلى المواطن العربي، وفرضت على هذا الشَّارع إعادة فتح الملفات التي أغلقت عنوةً وحولت إسرائيل الصِّهيونية، على كلِّ ممارساتها العدوانيَّة والهمجيَّة، بقدرة قادر إلى صديق حميم للعرب.. وكأن كل ما مضى من تاريخ الصراع العربي الصِّهيوني محض أوهامٍ، أو افتراء على الصِّهيونيَّة!!!

أوَّل ما يجرح القلب أبلغ الجراح هو غياب الإعلام العربي عن السَّاحة العالميَّة غياباً مخجلاً وكأن العرب ذاتهم يتآمرن على ذاتهم، يتآمرون على حقهم، يتآمرون على كرامتهم... الشعب العربي كشف عن ساعد الجد والجهد والتضحية ولن يقصر أبداً، فمن المسؤول بعد ذلك إذن؟؟!!

المظاهرات التي تحتج على الهمجية الصهيونية، ورفعت بعض الدول العربيَّة مستويات علاقاتها مع إسرائيل، وأعلن آخرون أنَّهُم سيقيمون العلاقات مع إسرائيل مهما كانت نتيجة المفاوضات، ورفض قطع العلاقات مع إسرائيل!!!!

لا أحد في العالم العربي، إلى حدٍّ كبير، يحمل أدنى شكٍّ في همجيَّة الصهيونيَّة وعدوانيتها، والمجازر الَّتي تقيمها لأشقائنا الفلسطينيين، وليس ثمَّة أوضح من الصُّورة المنقولة بأمانةٍ بالغةٍ عن مجابهة الأجساد العارية للرَّصاص الصهيوني... بصدورهم العارية يتقدَّمون لمواجهة الحقد الصهيوني المدجَّج بالأسلحة، والحجر يواجه البندقية برصاصها، وهل من دليل أبلغ على ذلك من أنَّ نحو مئتي شهيد(١١٧) أسقطهم رصاص الاحتلال من دون أن يجرح جندي صهيوني أو مستوطن واحد؟!!

وعلى الرُّغم من ذلك كلِّه فإنَّ العالم الغربيَّ والشَّرقيَّ يعتقد جازمَ الاعتقاد أنَّ العرب هم المعتدون، وهم الذين يمارسون العنف، وهم الذين يحاولون القتل، ونشرات أخبارهم، وتقاريرهم تتحدث عن عنف متبادل، والمشاهد التي يقدمونها تقتصر على الشبان والأطفال الفلسطينيين وهم يرجمون إبليس بالحجارة وتبحث عن أجمل الصور للجنود الصهاينة لتقدمها مقابل صورة العنف الفلسطيني!! وليبدو أنَّ العرب هم العدوانيون وهم الهمجيون، وليبدو الصهاينة وكأنهم الحمائم الوديعة البريئة!!!!

كلُّ ذلك من دون أن يتحرك ضمير أي ثري من أثرياء العرب، أو القادرين من العرب، من أجل توضيح صورة المأساة التي يعيشها شعبنا الفلسطيني على الأقل بل على الأكثر.. نحن لا نطالبهم أبداً بشراء الأسلحة، ولا بالتنازل عن ترفهم..

(١١٧) .كان هذا الرقم عند كتابة هذا الفصل/ المقال، بعيد اندلاع الانتفاضة بأقل من شهر، الانتفاضة الثانية التي اندلعت في الثامن عشر من أيلول عام ٢٠٠٠م. أما الآن ونحن في أواسط عام ٢٠٠١م فقد ناف عدد الشهداء عن الستمئة، وبلغ الجرحى عشرات الألوف.

إننا نطالبهم فقط بمحاولة الضَّغط على بعض الوسائل الإعلامية الغربية لنقل الصور الحقيقة عما يحدث، نطالبهم بقناة فضائية تبث باللغات الأجنبية، وليست اللغة العربية من اللغات الأجنبية، ليعرف العالم حقيقة ما يحدث فقط ولا نريد أكثر من ذلك منهم، لأنني أراهن على فاعلية الشعب الأمريكي والأوربي أكثر مما أراهن على فاعلية الشعب العربي في إطار راهنيته التاريخية المعاصرة، ولكن شريطة أن توضع الحقيقة أمام ذلك الشَّعب الذي سَبَقَ العَرَبَ باحتجاجاته على العدوان الغربي على العراق، وعلى حصار العراق!! وكلنا يعلم كيف أنَّ الشعب الأمريكي عندما وقف على الحقيقة ألزم الحكومة الأمريكيَّة بوقف حربها ضدَّ فيتنام، منتصراً للشعب الفيتنامي على الحكومة الأمريكيَّة، وكلنا يعلم كذلك كيف شكل الشارع الأمريكي وحده قوَّة ضاغطة على الحكومة الأمريكيَّة وألزمها بإلزام إسرائيل وقف اعتداءاتها الهمجيَّة على لبنان عام ١٩٩٦م إثر بثِّ الفضائيات العالميَّة المجازر الَّتي أقامتها إسرائيل في لبنان وأبرزها مجزرة صبرا وشاتيلا، وكذلك الاحتجاجات الأمريكيَّة والأوربيَّة التي حالت دون عدوان جديد على الشَّعب العراقي منذ نحو سنتين... وهذا ما قصده **هنري كسينجر** عندما استشاره الصهاينة في الانتفاضة الأولى، وسألوه عما يمكن أن يفعلوه لمواجهتها، فقال: «عَتِّمُوا عليها إعلاميًّا». وبهذا المعنى تماماً كتب **شمعون بيريز** بعد الانتفاضة الثَّانية بثلاثة أسابيع في جريدة معاريف:

«للمرة الأولى نخسر المعركة، لأنَّنا خسرنا الإعلام».

ولذلك ليس من مبالغة أبداً في القول إنَّ إقناع الشُّعوب الأوربيَّة والأمريكيَّة بالحقيقة كفيلٌ إلى حدٍّ كبيرٍ بخلق ضغطٍ كبيرٍ على الحكومات الغربيَّة لإحقاق الحقِّ العربي... وهذا ما يوفِّر علينا كثيراً من العناء والجهود والدِّماء، ولا

يكلِّفنا أكثر من عشر ما ننفقه على ترفنا وحده. فهل نشتري كرامتنا وحقوقنا بجزء جدٍّ يسير مما ننفقه على ترفنا؟؟؟

ومما يرتبط بهذا الأمر مباشرة هو وقوف الحكام والحكومات العربية مواقف يتعذر وصفها بالحياديَّة، لأنَّها محض سلبية، ولا سيما إذا ما قورنت بمواقف بعض الدول غير العربيَّة، وربما غير الإسلامية، تجاه الأحداث الدامية التي تشهدها السَّاحة الفلسطينيَّة، على الأقلِّ في الفترة الرَّاهنة. ففيما دانت وشجبت وندَّدت بعض الدُّوال الغربيَّة ومعظم الدُّول الإسلاميَّة الاعتداءات الصهيونية الهمجيَّة السَّافرة على الشَّعب الفلسطيني الأعزل، فقد تأخَّرت معظم الحكومات العربية أياماً حتَّى أعلنت إدانتها الخجولة.

والمصيبة الأكبر هي أنَّ معظم وسائل الإعلام العربية وغالبية الحكومات والحكام العرب يصغون إلى تصريحات المسؤولين الغربيين المليئة بالمغالطة وطمس الحقائق فيطربون لهذه المغالطات المسيئة والمشوهة للعرب وللحق العربي ولا يكلفون أنفسهم عناء تكليف السفير، أي سفير عربي بتقديم احتجاج بسيط يلفت النَّظر إلى ما وقع فيه هؤلاء المسؤولون أو إعلامهم من خطأ أو تناقض أو إساءة.. والأمثلة التي تستحق الذكر جد كثيرة منها تصريحات **كلينتون وأولبريت** التي أظهرت الأحداث الدامية التي يفتعلها رصاص الغدر الصهيوني على أنَّها أحداث عنف متبادل، وكأنَّ ثمَّة معركة متكافئة السلاح تدور بين العزل الفلسطينيين وجنود الاحتلال، بل المصيبة الأكبر من ذلك هي تصوير **بل كلينتون ومادلين أولبريت** لمصرع الطفل **محمد الدرة** على أنَّه كان ضحية لتبادل إطلاق النَّار على الرغم من وضوح الصورة وضوحاً يفقأ عين كل زيف أو تشويه أو حرف للحق عن مساره.

والأدهى من ذلك كله ما حدث يوم الخميس ٢٠٠٠/١٠/١٢م عندما أسقط الثائرون الفلسطينيون قتيلين صهيونيين مقابل نحو مئتي شهيد فلسطيني فصرَّح الأمين العام للأمم المتحدة **كوفي عنان** قائلاً: «إن قتل الجنديين جريمة بشعة لا يمكن السكوت عنها».. فسوغ بذلك للحكومة الإسرائيليَّة قيامها بالقصف الهمجي للقنابل والصواريخ لمختلف المناطق الفلسطينيَّة وبمختلف صنوف الأسلحة، وصرح **إيهود باراك** بمنتهى الصفاقة أن مقتل هذين الجنديين فرض عليه استخدام كل الأسلحة في ضرب الشعب الفلسطيني بما لا يقل عن أي حرب أبداً!!! من دون أن يخطر في بال أيٍّ منهما ذكر نحو مئتي شهيد أسقطهم رصاص الاحتلال وهمجية المستوطنين.. وكأن جنود الصهاينة وحدهم من البشر، وليس العرب من البشر أبداً.

إن تركنا **باراك** جانباً، ولن يسامحه التاريخ أبداً على ذلك، أفيعقل أن يصدر مثل هذا عن الأمين العام للأمم المتحدة؟ أيعقل أن يتجاهل أرواح مئتي شهيد فيعدها نسياً منسياً اغتالتهم يد الغدر وهم عزل من السِّلاح عراة الصُّدور، أطفال أبرياء وشبان أبرياء.. ويثور لمقتل جنديين مدججين بالسِّلاح لو أتيح لهما لقتلا العشرات من الأبرياء؟؟!! أيعقل ألا تحتج وسيلة إعلام عربية على هذا التَّصريح الذي صدر عن ممثل الشرعيَّة الدوليَّة؟

لن نسأل عن أسباب هذه السلبية لأنَّ ما فات قد مات، وإنَّما سنتحدث عما ينبغي أن يكون، ولا سيَّما أنَّنا مقبلون على قمَّة عربيَّة ليست قريبة، وليست في وقتها المناسب أبداً.

إنَّ غضب الشارع العربيِّ، وانفعالاته التي أظهرها بعفويته المطلقة عبر مختلف وسائل الإعلام، كشفت عن حقيقة أساسيَّة واضحة غير خفيَّة وهي أن

الشعب إذا تحرك لا يمكن أن يقف شيء أمامه، والشعب العربي كله غاضب ومستاء من السلبية العربية أمام الأحداث الجارية، ومن تاريخ الإخفاق العربي الذي امتد طويلاً، ومن اليأس المسبق من كل قمة عربية...

ولذلك فإنَّ هذا الشارع يتحدث الآن عن سبب تأخير عقد القمة؛ كلهم يدرك أن تأخير القمة هو نوع من أخذ الفرصة واستجداء الزمن لصالح الحكام على أمل أن يبرد الغضب العربي ويبرر لهم، من ثمَّ، عدم اتخاذ القرارات الحاسمة شأن ما كانت تنجلي عنه القمم السابقة، ولهذا السبب ذاته فإنَّ الشَّعب العربيَّ كلَّه سيبذل الغالي قبل الرَّخيص من أجل استمرار الانتفاضة، وعدم السماح للغضب أن يبرد، وعدم إعطاء الفرصة للحكام في استغلال برود هذا الغضب، ومن أجل إحراج الحكام العرب في القمة التي سيعقدونها إن عقدت. وأغلب الظن أنَّ الجماهير العربيَّة التي كشفت الفضائيات عنها أغطية الجهل والتجهيل لن تقف مكتوفة الأيدي ولا صامتة أما مقررات القمَّة العربيَّة القادمة أياً كان موعدها ومكانها.

إنَّ الحكام العرب أمام مسؤولية تاريخيَّة كبيرة سيان عقدت القمة أم لم تعقد. لأنَّ التحديات الراهنة للأمة العربيَّة أكبر من كبيرة، ولم يعد ثمَّة ما يمكن أن يخفى على الجماهير، ولم يعد لدى وسائل الإعلام الرسميَّة العربية ما يكفي من القوة لتضليل الرأي العام، والمعطيات التي يمتلكها الشارع العربي لا تقل أبداً عمَّا يمتلكه الحكام.. وقد كشفت الأيام الأخيرة بوضوح صارخ نوايا إسرائيل تجاه السلام، وهي ليست جديدة على كل حال، ففي استطلاع للرأي العام بين يهود إسرائيل اتفق الجميع على أنَّهم يرفضون السلام مع العرب ولا يؤمنون به. وكلهم تماماً يعدون العرب قتلة ومعتدين ويزعمون أنَّ اليهود مساكين غير قادرين

على قتل ذبابة. وكلهم تماماً متفقون على طرد العرب لا تهجيرهم من فلسطين من دون تعويضات، ولعل واحداً فقط هو الذي وافق على دفع بعض التَّعويضات لهم، وكلهم أيضاً مجمعون على أنَّ الله قد خلق العرب وندم على خلقهم[١١٨]...

بل إنَّ زعماءهم أكثر عدائيَّة بما لا يقاس فكل رؤساء الحكومات الإسرائيلية منذ تأسيسها من أعلام الإرهاب وأصحاب السجلات الممتلئة بالجرائم والمجازر ضدَّ العرب، وعندما سقط الشهداء الخمسة الأوائل في الانتفاضة الراهنة قال **أرئييل شارون** كما ذكرت جريدة لوي فيغارو الفرنسية: «هذا هو السلام الذي نريده». وقال بعد أيام، في الخبر ذاته، «أنا لن أدخل مع **باراك** في الحكومة.. ولكني سأقف معه بكل قوَّة طالما أنَّه يقتل الفلسطينيين». فيما كان **عوفاديا يوسف** قد وصف العرب منذ نحو الشهرين بأنهم ثعابين وأفاعي، وقد خلقهم الله ثمَّ أسف على خلقهم!!!

ولذلك فإنَّ الجماهير العربيَّة لا تنتظر أبداً متابعة المسيرة السلميَّة، ولن يسرها ذلك أبداً. إنَّها تبحث عن إعادة ماء الوجه إلى الكرامة العربيَّة، رُبَّما لا يريدون الحرب، ولكنَّهُم لا يريدون أبداً سلاماً مهيناً، محفوفاً بالذل، ولن يسمحوا أبداً بضياع الحقوق العربيَّة. ولذلك أيضاً لن يقبلوا، ولا يمكن أن يستسيغوا أن تهدد الدول الغربيَّة وغيرها بقطع العلاقات مع إسرائيل فيما يتكالب بعض العرب على إقامة العلاقات الوثيقة مع إسرائيل في الوقت الذي لا

(١١٨) . ذكرنا مثل هذه التصريحات والاستفتاءات في أكثر من فصل من هذا الكتاب، ولاسيما في الفصلين التاسع والعاشر. ولذلك لسنا بحاجة إلى تكرارها هنا، على الرُّغم من ضرورة ذلك.

توجد فيه علاقة طيبة أو شبه طيبة مع أكثر الدول العربيَّة. فإن كان من السهل تضليل الشعب العربي فيما سبق فإن ذلك مما أكل عليه الزمان الآن وشرب.

إنَّ ما هو مطلوب من القمَّة العربيَّة أكثر بكثير مما هو في أذهان الحكَّام العرب، فإنْ كانت الانتفاضة هي الدَّافع إلى التَّعجيل فيها هذا التَّعجيل المتأخر كثيراً عما ينبغي، فإنَّ الدَّوافع إلى عقدها أكثر بكثير من الانتفاضة من دون التَّقليل من شأن الانتفاضة، وأهم ما هو مطلوب البحث عن مكان للعرب بين الأمم... البحث عن الكرامة العربيَّة الضائعة، ومن كبير الخطأ الظنّ أنَّ النفط هو السلاح الوحيد، أو أنَّ الدول غير النفطية طامعة في أموال النفط. ومن كبير الخطأ الظنَّ أن الفرصة قد ضاعت، أو أنَّ الفرص المتاحة قليلة... إنَّها كثيرة، وكثيرة جداً. كل ما نحتاجه هو وقفة صادقة مع الذات ووعي الهوية. فهل سيصعب علينا ذلك؟؟!!

إنَّ ما ينبغي تأكيده آلاف المرات هو أنَّ الفرصة المتاحة أمام العرب فرصة تاريخيَّة لن تتكرر قبل مئات السنين فإن لم نستغلها الآن فإن التاريخ كله سيلعننا، والشعوب كلها عبر التاريخ كله ستحتقرنا، وسنظل سبة على الزمان مادام على الأرض بشر، ولا أبالغ إذا قلنا إنَّ الفرص التي أضاعها العرب منذ أواخر القرن التاسع عشر حتَّى الآن تكفي وحدها ليكون العرب مسبة لأحفادهم على أقل تقدير على مد ما امتد الزمان، فهل سنضيع الفرصة الأخيرة المتاحة الآن أمامنا كي نحمل لواء الحضارة ونغسل ما لحق بنا من عار واحتقار طيلة القرن المنصرم؟؟؟

قديماً قالوا: خيرُ الكلام ما قلَّ ودلَّ. وما قلَّ ودلَّ هذا هو كلماتٌ جدُّ قليلة، قيلت وَكُرِّرت ملايين المرَّات، وتبعتها مليارات الآهات والعبرات الحسرات

وصيحات الغضب والاستهجان لأنَّها على شدَّة وضوحها ويسرها لم تجد من يفهمها أو يستوعبها أو يعمل بها!!!

ثبت الأعلام

- أبراهارد ديفجن: ١٢٦.
- إبراهيم بن محمد علي باشا: ٩٩.
- إبراهيم خياط: ١٨٩.
- الأثير؛ ابن الأثير: ١٨.
- أحشو بروش: ٣٤.
- إدوارد سعيد: ١٣٣، ١٣٤.
- أدونيس: ١٣٣.
- أرئييل شارون: ٨٤، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٧، ١٦٣،١٦٢، ١٦٤، ١٧٥، ٢٢٢، ٢٣٤، ٢٧٤.
- آرثر بيتز: ٤٠.
- إرنست زاندال: ٤٠.
- أسامة بن منقذ: ٢٠.
- أستير: ٣٤.
- أستين جي. إن: ٤٠.
- إسحاق رابين: ٢٣، ٨٢، ١٦٣، ٢٣٦.
- إسحاق شامير: ١٤٥، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٤، ٢٢٢.
- إسحاق ليؤور: ٢٣٤.
- إسرائيل وايز: ١٩٣، ٢٣٥.
- الإسكندر المقدوني: ٢٨.
- أفرايم زوروف: ١٢٧.
- آلان جريش: ٢٨.
- ألفرد ليلينتال: ٧٣، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠.
- إلمر برجر: ٧٢، ٧٣.
- إلياس خوري: ١٣٣.

- إلياس صنبر: ١٣٣.
- إميل أرتيز: ٤٠.
- أوتو ليفيس: ٧٠.
- إيال سيفان: ١٩٥، ٢٢٧، ٢٣٥، ٢٣٦.
- إيخمان: ٤٣، ٨٨، ١٢٨.
- إيهود باراك: ١٤١، ١٤٢، ١٧٥، ١٨٣، ٢٠٣، ٢٢٢، ٢٧٢، ٢٧٤.
- اشر رايخ: ٢٣٤.
- باجي شيلع: ١٩٥، ٢٣٥.
- بازيل هنريك: ٧١.
- بدر الدين عبد المحسن الحسن (الدكتور): ٩٧، ٩٨ ٩٩.
- بديعة أمين: ٩٧.
- بل كلينتون: ٣٤، ١٤٠، ١٤١، ١٩٣، ٢٠٠، ٢٠٢،٢٠٤، ٢٠٩، ٢١١، ٢٧١.
- بلفور: ١٠٣، ١٥٦.
- بلمرستون: ٩٩.
- بنيامين نتنياهو: ٢٢٢.
- بوب تايلور: ٢١٥.
- بوبيا: ٣٤.
- بوتز: ٤٠.
- بول راسينيه: ٤٠.
- بول فندلي: ٢١٦.
- بول مكلوسكي: ٤٠.
- بيلينغ: ١٩٧.
- بيير جريبالي: ٣٣.
- بيير ديون: ٤٠.
- تاج الدِّين موسى: ١٦٧.
- تمام (أبو تمام): ١٨٣.
- تيمور جوكسيل: ٣٩.
- تييس كريستين: ٤٠.

- ثائر ديب: ١٣٥.
- جاليليو جاليليه: ٢٠٤.
- جمال اشتيوي: ١٩٧.
- جمال الدين بن شيخ: ١٣٣.
- جمال عبد الناصر: ١٧٠، ١٧٤.
- جورج بوش: ٢٠٩، ٢١١.
- جورج بوش الابن: ٢٠٩.
- جورنج: ٤١.
- جولدمائير: ١٨١.
- جون بينيت: ٤٠.
- جون تولاند: ٤٠.
- جون ساك: ٤٠.
- جيرار خوري: ١٣٣.
- جيرارد نيرنبرغ: ٢٧.
- جيمس بيكر: ٢١٣.
- حازم صاغية: ٨٥.
- الحبيب بورقيبه: ٥٥، ٨٧،١٧٠، ١٧٤.
- الحسن الثاني (الملك): ٢٤، ٧٩، ١٧٤،
- حسن محمد وجيه (دكتور): ٢٧.
- حسين بن طلال (الملك): ٢٣، ٢٤، ١٧٤، ١٨١.
- حمد بن خليفة آل ثاني: ١٨٣.
- خالدة سعيد: ١٣٣.
- داليا رابكوفيتش: ١٨٤، ٢٣٤.
- داني روبنشتاين: ٢٣٤.
- داني نافيه: ١٢٧.
- داني ياتوم: ٢٣٤.
- دانييل نوريجا: ٢٠٩.
- دومنيك إدَّة: ١٣٣.

- ديفيد إيرفنج: ٤٠، ٤٣.
- ديفيد بنجوريون: ٤٥، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٦، ٨٥، ١٩٧، ١٩٨، ٢٣٣.
- ديفيد ليفي: ١٢٧.
- راؤول هيلبرج: ٤٠.
- روبرت فوريسون: ٤٠، ٤٦.
- روبرت فيسك: ٣٧.
- روجيه جارودي: ٣٧، ٣٨، ٤٠، ١٢٥.
- روجيه حنين: ١٨٥،
- رودلف فربا: ١٢٨.
- رودلف كاستنر: ٨٨.
- روزنبرج:٤٢.
- روكسلانا: ٣٤.
- ريتشارد هارولد: ٤٠.
- زائيف ديفيس: ٢٣٤.
- سارة: ٣٤.
- سالومي: ٣٤.
- ساوس غويلدورف: ١٩٧.
- سليم (السلطان): ٣٤.
- سلمان بن حمد آل خليفة: ١٨٩.
- سمر بهلوان (الدكتورة): ١٠١.
- سولفرد لاند: ٤٥.
- سيرج تيون: ٤٠.
- سيرج كلارس فيليد: ٣٧.
- سيرغي سيدروف: ٧٣، ٨٧، ٨٩، ١٣٠، ١٤٤، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠.
- سيسيل روت: ٤٠.
- شارل أندرلين: ١٨٠.
- شمعون بيريز: ٤٥، ٢٧٠.
- صدام حسين: ٢٤٨.

- صلاح الدِّين الأيوبي: ١٦٧، ١٧١، ٢٣٦.
- صلاح ستيتية: ١٣٣.
- صموئيل شاول: ١١٩.
- صياح جيهم: ١٨٠، ٢٣١.
- طارق عزيز: ١٧.
- عبد الحميد (السلطان): ٩٩.
- عبد العزيز بوتفليقة: ١٨٤،١٨٥، ١٨٩.
- عفواديا يوسف: ٤٥، ١٤٧، ٢٧٤.
- عوفر شيلح: ١٤٧، ١٤٨.
- غاندي: ١٦٣.
- فابيوس جايسو: ٣٦.
- فاروق الشرع: ١٥٤.
- فاروق مردم بك: ١٣٣.
- فايز ملص: ١٣٣.
- فريد لوشتر: ٤٠.
- فيصل البليبل: ١٥٧.
- فيكتور بوسوفاليوك:٢٣٧/٢٣٨.
- فيل ماركوس: ٧١.
- فيلهيلم ستاجانج: ٤٠.
- كارل بوبر: ٢٤٧، ٢٤٨.
- كامبل بيرلمان: ١٠٢.
- كورت فالدهايم: ١٢٥.
- كوفي عنان: ١٤١، ٢٠٣، ٢٧٢.
- كول دانيال: ٤٠.
- كولن باول: ٢٠٣.
- لوجوفيتش: ٤٠.
- لويس التاسع: ١٠٠.
- لويس جولدنج: ٩٧.

- ليسنج روزنوالد: ٧٢، ١٠٦.
- ماثيو بيري: ١٩.
- ماجد شدود: ١٠١، ١٠٢.
- مادلين أولبريت: ١٤٠، ١٤١، ٢٠٢، ٢٧١.
- مارتن بوبر: ١٩٤.
- مارك ويبر: ٤٠، ١٣٤.
- ماكس نورادي: ١٩٤، ١٩٥.
- مايكل مليكور: ١٢٧.
- المتنبي: ١٨٣.
- محمد ﷺ: ٥٢، ٨٢، ١٤٧، ٢٦١.
- محمد أنور السادات: ٢٤، ٤٩، ٥١، ١٨١، ١٨٧.
- محمد الدرة (الطفل الشهيد): ١٤١، ٢٠٢، ٢٧١.
- محمد برادة: ١٣٣.
- محمد جميل بيهم: ١٣٥، ١٣٦.
- محمد حربي: ١٣٣.
- محمد حسنين هيكل: ١٨٠،
- محمد رشاد الشريف: ٢١٦، ٢١٧.
- محمد ظروف: ٥٧، ٥٨.
- محمد علي الفتيت: ١٠١.
- محمد علي باشا: ٩٩، ١٠٠.
- محمد عمارة (الدكتور): ١٠٠.
- محمد مقدم: ١٨٥.
- محمود درويش: ١٣٣، ١٣٤.
- المسيح عليه السلام: ١٧٤، ٢٠١.
- مصطفى عبد العزيز: ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ١٠٦، ١٠٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١.
- مناحيم بيجن: ١٤٤، ١٩٨.
- موسى عليه السلام: ٣٢.
- موشي ديَّان: ٨١، ٨٩، ١٤٦، ١٩٧.

- موشي شـاريت: ٨٩.
- موشيه منوحين: ١٠٧.
- مونتسكيو: ٢٥٠.
- مونرو دينتش: ٢٠١.
- مونيكا لوينسكي: ٣٤.
- ميخائيل سلزر: ١٠٥، ١٠٧.
- ميشل راشلين: ٣٣.
- ميشيل دوبوار: ٤٠.
- ميلارد جيلور: ١٩.
- نابليون بونابرت: ٩٨.
- ناجي جرجي زيدان: ١٠٧.
- ناحوم جولدمان: ٣٣، ٤٥.
- نبيه البرجي: ٢٨.
- نفتالي جولمان: ١٩٦.
- نقفور: ١٨، ١٩، ٢٠.
- نورمان فينكلشتين: ٤٠.
- نيرون: ٣٤.
- هارون الرشيد: ١٨، ١٩، ٢٠.
- هارون ليفي: ٩٨.
- هاري إلمر بازنيز: ٤٠.
- هانس شميدت: ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٦.
- هتلر؛ أدولف: ٣٣، ٣٥، ٤٢، ٤٣، ٤٥، ١٢٦.
- هرتزل؛ تيودور: ٤٤، ٨٠، ٩٩، ١٠١، ١٩٤، ١٩٥.
- هشام حسين أبو حشيش: ١٨٣.
- هلموت كول: ١٨، ٢٣٠.
- هنري روكييه: ٤٠.
- هنري كسينجر: ٢٧٠.
- هيرودوس: ٣٤.

- ولف ديتيار روتي: ٤٠.
- وليام زوكرمان: ٧٣.
- ياسر عرفات: ٢٣، ١٤٤، ١٦٨، ١٧٤، ١٧٥، ٢٣٦.
- ياعيل: ٣٤.
- يحيى العريضي (دكتور): ٢٣٤.
- يعقوب عليه السلام: ٣٢،١٤٥.
- يعقوب دي خآن: ٨٧.
- يوحنا المعمدان: ٣٤.
- يورج هايدر:١٢٥، ١٢٦، ١٢٧.

ثبت المراجع

ومراجع للاستزادة في الموضوع (*)

١. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** . دار صادر . بيروت . ١٩٧٩م.

٢. أحمد سوسة (الدكتور): **العرب واليهود في التاريخ** . دمشق . ١٩٧٥م.

٣. أحمد سوسة (الدكتور): **ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق** . سلسلة دراسات فلسطينية . بغداد . ١٩٨٧م.

٤. أديب ديمتري: **جذور العرقية الصهيونية؛ الصراع العربي الإسرائيلي** . دار الثقافة الجديدة . القاهرة . ١٩٨٩م.

٥. أشرف راضي: **الصراع الطائفي في المجتمع الصهيوني ومستقبله** . كتاب قضايا فكرية . ١٩٨٨م.

٦. أمين عبد الله محمود (الدكتور): **مشاريع الاستيطان منذ الثورة الفرنسية حتَّى نهاية الحرب العالمية الأولى** . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ سلسلة عالم المعرفة . الكويت . العدد ٧٤ . ١٩٨٤م.

٧. بدر الدين عبد المحسن حسن (الدكتور): **الإمبريالية والصهيونية** . جامعة دمشق . دمشق . ١٩٨٨م.

٨. بيير ديمرون: **ضدَّ إسرائيل** . ترجمة حسيب كيالي . إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي . دمشق . ١٩٧١م.

(*) . الأمر الذي يستحق الإشارة إليه هنا هو أننا لا نقصد من هذا الثبت سرد كل المراجع، ولا ما أمكن منها، لأنَّ ذلك أمر متعذر، ورُبَّما لا تتسع له الكتب، وإنَّما غاية القصد وضع شبه دليل وتذكير ببعض المراجع لمن أراد الاستزادة.

٩. جريدة **المحرر العربي: قضايا الساعة في الصحافة العبرية** . باريس . العدد ٢٩٧ . ١ حزيران ٢٠٠١م.

١٠. جريدة **المحرر العربي؛ معلومات عن مئتي ألف غادروا إسرائيل** . باريس . العدد ٢٩٧ . ١ حزيران ٢٠٠١م.

١١. جون لافين: **العقلية الإسرائيلية** . الهيئة العامة للاستعلامات . القاهرة . ١٩٨١م.

١٢. حامد ربيع (الدكتور): **الأنموذج الإسرائيلي للممارسة السياسيَّة** . معهد الدراسات والبحوث العربية . القاهرة . ١٩٧٥م.

١٣. حامد ربيع (الدكتور): **عملية صنع القرار السياسي في المجتمع الإسرائيلي** . القاهرة . ١٩٧٣م.

١٤. حبيب قهوجي: **استراتيجيا الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة** . مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية . دمشق . ١٩٧٨م.

١٥. حسن محمد وجيه (الدكتور): **مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي** . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ سلسلة عالم المعرفة . الكويت . العدد ١٩٠ . ١٩٩٤م.

١٦. رشاد الشامي (الدكتور): **إشكاليَّة الهوية في إسرائيل** . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ سلسلة عالم المعرفة . الكويت . العدد١٩٧ . ١٩٩٥م.

١٧. رشاد الشامي (الدكتور): **الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية** . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ سلسلة عالم المعرفة . الكويت . العدد١٠٢ . ١٩٨٦م.

١٨. رشاد الشامي (الدكتور): **الفلسطينيون والإحساس الزائف بالذنب في الأدب الإسرائيلي** . دار المستقبل العربي . القاهرة . ١٩٨٨م.

١٩.رشاد الشامي (الدكتور): **القوى الدينيَّة في إسرائيل** . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ سلسلة عالم المعرفة . الكويت . العدد ١٨٦ . ١٩٩٤م.

٢٠.روجيه غارودي: **قضية إسرائيل والصهيونية السياسية** . دمشق . ١٩٨٤م.

٢١.ريجينا الشريف: **الصهيونية غير اليهودية** . ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ سلسلة عالم المعرفة . العدد ٩٦ . ١٩٨٥م.

٢٢.ريزا دومب: **صورة العربي في الأدب اليهودي** . ترجمة عارف توفيق عطاري . دار الجليل للنشر . عمان . ١٩٨٥م.

٢٣.سعدي بسيسو: **إسرائيل خيانة وجناية** . دمشق . ١٩٥٦م.

٢٤.سمر بهلوان (الدكتورة): **القضية الفلسطينية** . جامعة دمشق . دمشق . ١٩٨٩م.

٢٥.سيرغي سيدوف: **الصهيونية ونهج الإرهاب** . ترجمة عادل الجبوري . نوفوستي . موسكو . ١٩٨٤م.

٢٦.شارل أندرلين: **أسرار المفاوضات الإسرائيلية العربية** . ترجمة صياح جهيم . دار الفاضل . دمشق.

٢٧.صموئيل إتينجر: **اليهود في البلدان الإسلاميَّة** . ترجمة جمال الرفاعي . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ سلسلة عالم المعرفة . العدد ١٩٧ . ١٩٩٥م.

٢٨.عبد الله التل: **خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية** . القاهرة . ١٩٦٤م.

٢٩.عبد الوهاب المسيري (الدكتور): **الاستعمار الصهيوني وتطبيع الشخصية اليهودية** . بيروت . ١٩٩٠م.

٣٠.عبد الوهاب المسيري (الدكتور): **الأيديولوجيا الصهيونية** (جزءان) . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ سلسلة عالم المعرفة . الكويت العددان ٦١ . ٦١ . ١٩٨٢م/ ١٩٨٣م.

٣١.عبد الوهاب المسيري (الدكتور): **الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ** . دار الشروق . القاهرة . ١٩٦٩م.

٣٢.عبد الوهاب المسيري (الدكتور): م**وسوعة المفاهيم والاصطلاحات الصهيونية** . مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام . القاهرة . ١٩٧٥م.

٣٣.عبد الوهاب المسيري (الدكتور): **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية؛ أنموذج تفسيري جديد** (٧أجزاء) . دار الشروق . القاهرة . ١٩٧م.

٣٤.عبد الوهاب المسيري (الدكتور): **اليهودية والصهيونية وإسرائيل** . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . ١٩٧٥م.

٣٥.عزت السيد أحمد: **الأمم المتحدة بين الاستقلال والاستقالة والترميم** . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.

٣٦.عزت السيد أحمد: **كيف ستواجه أمريكا العالم** . دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢م.

٣٧.عفيف البزرة: **إسرائيل والمياه العربية** . بيروت . ١٩٨٤م.

٣٨.ماجد شدود (الدكتور): **الاستراتيجية** . جامعة دمشق . دمشق . ١٩٨٦م.

٣٩.علي إبراهيم عبد وخيرية قاسمية: **يهود البلاد العربية** . بيروت . ١٩٧١م.

٤٠.علي محافظة: **نهاية التاريخ؛ مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني** . مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام . القاهرة . ١٩٧٢م.

٤١.كيث وايتلام: **اختلاق إسرائيل القديمة؛ إسكات التاريخ الفلسطيني** . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ سلسلة عالم المعرفة . الكويت . العدد ٢٤٩ . ١٩٩٩م.

٤٢.مجموعة من المؤلفين: **دراسات في آفاق الصراع العربي الصهيوني** . اتحاد شبيبة الثورة . دمشق . د.ت.

٤٣.مجموعة من المؤلفين: **الصهيونية حركة عنصرية** . المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت . ١٩٦٩م.

٤٤.محمد أديب العامري: **عروبة فلسطين عبر التاريخ** . بيروت . ١٩٧٢م.

٤٥.محمد حافظ غانم (الدكتور): **المشكلة الفلسطينية في أحكام القانون الدولي** . القاهرة . ١٩٦٥م.

٤٦.محمد رشاد الشريف: **العلاقات الأمريكية الإسرائيلية** . ضمن مجلة **الوحدة** . العدد ٩٠ . آذار/ مارس ١٩٩٢م.

٤٧.محمد ظروف: **الانتفاضة؛ خيار المقاومة والمأزق الصهيوني** . ضمن جريدة **البعث** . العدد ١١٥١٢ . يوم الثلاثاء ٥/٦/٢٠٠١م.

٤٨.محمد عزة دروزة: **العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث على فلسطين** . بيروت . ١٩٨٠م.

٤٩.محمد عزة دروزة: **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها** . بيروت . ١٩٥٩م.

٥٠.محمود عباس: **الوجه الآخر؛ العلاقات السرية بين النازية والصهيونية** . دار ابن رشد للنشر والتوزيع . عمان . ١٩٨٣م.

٥١.مصطفى عبد العزيز: **إسرائيل ويهود العالم؛ دراسة سياسية وقانونية** . منظمة التحرير الفلسطينية . بيروت . ١٩٦٩م.

٥٢.هنري كتن: **فلسطين في ضوء الحق والعدل** . بيروت . ١٩٧٠م.

٥٣.وحيد محمد عبد المجيد: **اليهود العرب في إسرائيل** . مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام . القاهرة . ١٩٧٨م.

٥٤.يفغيني بريماكوف: **الولايات المتحدة والنزاع العربي الإسرائيلي** . بيروت . ١٩٨٠م.

٥٥.يفغيني بريماكوف: **تشريح نزاع الشرق الأوسط** . تعريب سعيد أحمد . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٧٩م.

٥٦.يوري إيفانوف: **احذروا الصهيونية** . نوفوستي . موسكو . ١٩٦٩م.

٥٧.يوسف سلمان: **الولايات المتحدة والصراع العربي الإسرائيلي** . بيروت . ١٩٨٤م.

■ ◆ ■

من كتب المؤلف المنشورة

- الأمم المتحدة بين الاستقلال و الاستقالة و الترميم . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.
- أَميرة النَّار والبحار (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٧م.
- أَنا صدى الليل (شعر) . دار الأَصالة للطباعة – دمشق – ١٩٩٥م.
- أنا لست عذري الهوى (شعر) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٩م.
- أنا والزمان خصيمان . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- أنا وعيناك صديقان (شعر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠١م.
- أُنشودة الأَحزان (شعر) – دار الأصالة للطباعة – دمشق . ١٩٩٦م.
- انهيار الشعر الحر – دار الثقافة – دمشق (ط١) ١٩٩٤م. ـ دار الفكر الفلسفي . دمشق – (ط٢) ٢٠٠٣م.
- انهيار دعاوى الحداثة ؛ الحداثة ضرورة تاريخيَّة لا خيار سياسي – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٥م.
- انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.
- بديع الكسم . وزارة الثقافة . دمشق – ١٩٩٤م.
- تفجيرات أيلول وصراع الحضارات . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٣م.
- الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- الدخيل على المصلحة (قصص) – ن . م – دمشق – ١٩٩٣م.

- دفاع عن الفلسفة – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- علم الجمال المعلوماتي: نحو نظريَّة جديدة . دار الأصالة . دمشق . ١٩٩٤م.
- غاوي بطالة (قصص قصيرة) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٦م.
- فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون – دار طلاس – دمشق – ١٩٩٣م.
- قراءات في فكر بديع الكسم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- قراءات في فكر عادل العوا . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠١م.
- كيف ستواجه أمريكا العالم؟ . دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢م.
- لا تعشقيني (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- لبنان بَيْنَ حربين؛ الأزمة اللبنانية بَيْنَ الداخل والخارج . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- مكيافيليَّة ونيتشويَّة تربوية: نحو سلوك تربوي عربي جديد . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- من رسائل أبي حيان التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠١م.
- الموت من دون تعليق (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- النظام الاقتصادي العالمي الجديد . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م .
- نهاية الفلسفة . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٤م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا (ط٢) – دار الفكر الفلسفي – دمشق – ٢٠٠٣م.

المشتمل

. **الإهـداء** ٥

. **مقدِّمة الطبعة الثانية** ٧

. **مقدِّمة الطبعة الأولى** ١١

الفصل الأول

هذا هو التَّفاوض ١٥

الفصل الثاني

الابتزاز هو لغة الحوار الصهيونية ٢٩

الفصل الثالث

القوة هي الحوار الوحيد الممكن مع إسرائيل ٤٧

الفصل الرابع

استثنائيَّة المفاوضات العربيَّة الإسرائيليَّة ٦١

الفصل الخامس

ماذا تريد إسـرائيل من السَّلام؟ ٧٧

الفصل السادس

التَّطبيع ضـرورة أَم خِيار؟ ٩٣

الفصل السابع

لماذا نقاوم التطبيع ١١١

الفصل الثامن

أي سلام يمكن أن يكون مع إسرائيل ١٢٣

الفصل التاسع
العقلية اليهودية وإمكانية السلام معها ١٣٧

الفصل العاشر

تضافر القوى الإسرائيلية على قمع العرب ١٥١

الفصل الحادي عشر

الوصاية على التَّاريخ وتأمين مستقبل الشَّعب..... ١٦٥

الفصل الثاني عشر

التطبيع بين السنة وفرض العين ١٧٧

الفصل الثالث عشر

عودة اللاجئين بين الحق والمفارقة ١٩١

الفصل الرابع عشر

الموقف الأمريكي من عملية السلام ٢٠٥

الفصل الخامس عشر

مصير السَّلام العربي الإسرائيلي ٢٢٥

الفصل السادس عشر

انهيار أُسطورة السَّلام ٢٣٩

الفصل السابع عشر

متى يستفيد العرب من دروس التاريخ ٢٥١

الفصل الثامن عشر

الحكام العرب أمام المسؤولية التاريخية ٢٦٥

. **ثبت الأعـــلام** ٢٧٧

. **ثبت المراجـــع** ٢٨١

. **صدر من كتب المؤلف** ٢٨٧

. **المشـــتمل** ٢٨٩

تطلب

منشورات دار الفكر الفلسفي

من

مكتبة دار طلاس

دمشـــــــق ـ المرجة ـ برج دمشق ـ ط١ ـ ص. ب: ١٦٠٣٥
هـ الإدارة ٦٦١٨٠١٣ ـ ١١ ٠٠٩٦٣ ـ هـ المكتبة: ٢٢٢٩٥٥٨
ومن مندوبيـــــها في المحافظات

مكتبة النُّوري

دمشـــق ـ مقابل البريد المركزي ـ ص . ب: ٨٣٤ ـ ١٧٦
هـ: ٢٣١١١٨٩ ـ ٢٢١٤٥٣٠ فاكس: ٣٣٣١٦٧٥ـ ١١ـ ٠٠٩٦٣

مكتبة نوبل

دمشـــــق ـ مقابل فندق الشَّام ـ هـ: ٢٢٣٦٨٧٣ـ ١١ ٠٠٩٦٣

مكتبة الحقيقة

اللاذقيَّة ـ مقابل مدخل الجامعة ـ هـ: ٤٢١٤٤٠ ـ ٤١ـ ٠٠٩٦٣

مكتبة كردية

اللاذقيَّة ـ شارع البلدية القديمة ـ هـ: ٤٧٥٣١٤ ـ٤١ـ ٠٠٩٦٣

* * *

دار الفكر الفلسفي
للدراسات والترجمة والنشر
دمشق ـ ٢٠٠١ م